

الهيئة العامة لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالأكاديمية

يوسف فرهي أحمد الجزائري



صَحَائِف

من تاريخ الأديب العربي



دار المعارف بمصر



كتب عربي
(إهداء)

المسئولية للحساب
مراعاة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالإسكندرية

رقم التسجيل

٧٥٠٠
٧٥٠٠

صَحَائِفُ مِنْ تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

مؤلف

يوسف فهمي أحمد البخرايلى

١٩٦٨



دار المغارف بمطرو

تقديم الكتاب

بقلم السيد / محمد حمدي عاشور
محافظ الاسكندرية ورئيس الهيئة المحلية لرعاية
الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

تواصل الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية نشاطها الثقافي المثمر وتستمر على تشجيع المنتجين من أعضائها في حدود إمكانياتها المالية لإخراج مصنفاتهم إلى حيز الوجود بغية أن يستفيد المطلعون مما تضم من الأبحاث الثقافية المختلفة .

وانقد طرق الأستاذ يوسف فهمي أحمد الجزائري عضو مجلس إدارة الهيئة بابا من أبواب تاريخ أدبنا العربي العريق فوضع كتابه «عوائف من تاريخ الأدب العربي» وقارن فيه بين بعض الاتجاهات الأدبية في تراثنا العربي وبين ما يماثلها في الأدب الفرنسي .

وبهذا العمل الذي قام به السيد المؤلف تكون الهيئة المحلية قد أسهمت في مجال الفكر العربي المقارن بغيره من الآداب الأخرى المشهورة بأصالتها.

ولم أثنى إذ يسرني أن أقدم هذا الكتاب - أرجو للمؤلف مزيداً من الإنتاج في هذا المجال وللهيئة المحلية التوفيق في تأدية رسالتها - وأسأل الله أن يسدد خطانا في سبيل الرقي المطرد في ظل رائد نهضتنا الشاملة وقائد عروبتنا الرئيس جمال عبد الناصر ،،

محمد حمدي عاشور
محافظ الاسكندرية

٢٨ من رجب ١٣٨٨
٢١ أكتوبر ١٩٦٨

صدرت هذه المقدمة الكريمة من السيد / محمد حمدي عاشور والكتاب في
مرحلة الطبع - وإذ ذاك صدر القرار الجمهوري باختيار سيادته وزيراً للإدارة
المحلية - والهيئة تتقدم لسيادته بصادق التهنية راجية له التوفيق ودوام الرقي

تمهيد

ليس المقصد من هذا الكتاب إضافة جديد على تاريخ الأدب العربي - فمعظم الأعلام الذين جاء ذكرهم في صحائفه تناولهم الكتاب القدماء والمحدثون بالشرح المفصل المسمّى بما يجمل الحديث عن سيرهم وآثارهم الأدبية قولاً معاداً لفائدة القراء فيه .

ولكن بدا لي أن مقارنة هؤلاء الأعلام بنيرهم وإبراز أوجه الشبه بينهم أو تأثر بعضهم بأدباء مشهورين في تاريخ الأدب الفرنسى يضع كلبنة متواضعة في كيان تاريخ الأدب العربى العام .

فمن أوجه الشبه هذه يقف القراء على معلومات طريفة قد لا تكون واضحة المعالم في أذهانهم - ومن ذلك التأثير يستبين لهم أن الأدباء العرب لم يكونوا أقل براعة في إنتاجهم الأدبى الخالد من الأدباء الفرنسيين .

ففيما يتعلق بأوجه الشبه حاولت أن أظهرها في - سيرتى قيس بن الملوّح « مجنون ليلي » وجميل بن مَعْمَر وفي نماذج من الشعر المنسوب إلى المجنون وشعر جميل بُشَيْئَة - وكذلك في نماذج من شعر وضّاح اليمى وعمر بن أبى ربيعة - وأبرزت الشبه الواضح فى فضل دنديات عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين على تنقيهِ الأدب العربى من الشوائب والمجون فى صدر الإسلام تماماً كما كان لقصر « هدام دى رامبوييه » ومنتدياتها من فضل على تنقية الأدب الفرنسى من الإنتاج الغث والألفاظ التى تتنافى مع الأسلوب المذهب الرفيع فى القرن السابع عشر الميلادى . وأوضحت فى الحديث عن الشاعر محمود سامى البارودى قدرته الفائقة على الوصف التصويرى وقارنت هذه المقدرة بما اتصف به شعر « الفريد دى فينى » من تفوق فى هذا الباب مستشهداً بنماذج من شعر الشاعرين .

أما عن التأثر فحاولت إبرازَه في إنتاج الشاعر إسماعيل صبرى وصلة هذا الإنتاج بالشريف الرضى والشاعر الفرنسى ، كما حاولت إظهار مواطن تأثر شاعر النيل حافظ إبراهيم بالشاعر الفرنسى ، فكتور هوجو ، فيما ديجَّ قلبه من شعر ونثر — وأخيراً وجهت النظر إلى تأثر الشاعر خليل شيبوب بالمذهب الرومانسى .

ولقد خطرت فكرة تأليف هذا الكتاب على البال عندما هزَّ كيانى النفسى قصر ذات اليد عن الإسهام مالياً فى المجهود الحربى لاسترداد أجزاء الوطن العربى السليبة — وما أن تردد فى مخيلتى الواعية قول الشاعر :

لاخيلَ عَسَدَىْ أَهْدِيهَا وَلَا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنَّمَا لَمْ تُسْعِدْ الْحَالُ

حتى قمت إلى الموسوعة التى أخذت فى تأليفها منذ ثلاث سنوات متضمنة تراجم الأعلام الذين تحمل شوارع الاسكندرية أسمائهم وأخترت منهم أعلام الكتاب الثمانية وتبرعت بما يعود علىَّ من حق التأليف المالى للمجهود الحربى لاكون قد أدبت — بالنطق — بعض الواجب نحو الوطن العزيز وقدمت للقراء فائدة أدبية أرجو أن تعود عليهم بالنفع — والله ولىُّ التوفيق ؟

يوسف فهمى أحمد الجزايرلى

الاسكندرية فى أول أغسطس سنة ١٩٦٨

١ - مجنون ليلى وجميل بثينة

لابد لمن يريد التحدث عن مجنون ليلى من تناول موضوع القصص والقصاصين وما كان لفن القصة والرواية من الأثر في الحياة الأدبية إبان السنين الأولى لظهور الإسلام والعصرين الأموي والعباسي بالشرح الموجز ليتبين أمر مجنون ليلى على حقيقته .

فقد كان هؤلاء القصاصين شأن في الحركة الأدبية عظيم على مرّ الأعوام وأخذ ينمو بقدر ما كانت الحضارة الفارسية وحضارة الأمم المتاخمة لشبه جزيرة بلاد العرب تتغلغل في نفسية الأمة العربية ثم تعدى تطوره الحد المألوف فانقلب إلى أثر سيء لم يسره تاريخ الأدب العربي فحسب بل التشريع الإسلامى والحياة العقلية العربية في شتى نواحيها .

ووضح هذا الأثر السيء جلياً عندما استقرت الحياة العربية بعد الفتوحات الأولى وانتقلت من الصحراوات المقفرة إلى المدن والأقاليم العريقة في التمدن وأخذ المفكرون في تدوين ما وصل إلى أذهانهم بطريق النقل في مؤلفات ما من مطالع عليها إلا ويجد هذا الأثر ماثلاً في كثير من صحائفها — ولم يكن عشاء هؤلاء المفكرين بالهين إذ أنهم لاقوا من الصعاب في جميع الروايات والأحاديث ما جعلهم جديرين بالشكر على ما بذلوا في هذا السبيل من صبر وأناة .

وإن كان علماء الحديث والكلام قد صادفوا من هذه الصعاب الشيء الكثير فإن الأدباء الذين كرسوا جهودهم لوضع الدعائم الأولى لتاريخ الأدب العربي قد وجدوا منها ما لم يقدرُوا على تذليله ذلك لأنهم لم يكونوا في تلك العصور من القوة الفكرية الناقدة بحيث يستطيعون التفريق بين الصحيح الذى تسطع حقيقته بدليل النقد العقلي وبين المكذوب الذى يلبس كذبه في عناصره نفسها بعد تمحيصه تمحيصاً عليها . ولأنهم لم يجدوا أمامهم لتدوين هذا التاريخ إلا روايات ملوّهة بالمغالة والأساطير وأحياناً الخرافات السخيفة .

ولا أدل على إسراف الرواة في سرد الوقائع التي تخالف المعقول مخالفة بينة والتي تظهر فيها المغالاة والخرافة جليتين من أن حمّاداً الراوية زعم للوليد بن يزيد أنه يستطيع أن يروى على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة لمن لم يعرفهم الوليد نفسه من الشعراء — ويقال إن الوليد امتحنه في ذلك حتى ضجر فوكل به من أتم امتحانه ثم أجازته .

من هذا الدليل وحده يتضح مقدار إسراف الراوى في انتحال الشعر ونسبته إلى الشعراء منهم الذين وجدوا فدلاً ومنهم من لم يكن لهم وجود إلا في خيالة أمثال حمّاد وخاف وغيرهما من مشاهير الرواة والقصاصين .

والذى زاد الطين بلة وجعل الإسراف يتعدى دائرة التصور هو أن بعض هؤلاء الأدباء حرصاً على الاقتراب من الحقيقة فيما أرادوا تدوينه من تاريخ الأدب العربى ذهبوا إلى البادية لينقلوا شعر العرب من أهلها — فلما وجد سكان البادية أن هؤلاء الأدباء يحزلون لهم العطاء على ما يحفظون من شعر ونثر فطنوا لهذا الربح السهل وأخذوا يقدون على المدن لعرض بضاعتهم وأسرفوا هم أيضاً في انتحال الشعر ونسبته إلى طائفة كبيرة من الشعراء لم تدب لهم قلم على سطح الأرض .

ويحدثنا الراوية الأصمعى — وهو أحد من ذهبوا إلى البادية للأخذ عن أهلها وأحد من بذلوا المال فى سبيل شراء ما كان الأعراب يعرضون من قصائد وأخبار — يحدثنا هذا الراوية المشهور أن أعرابياً يدعى أباً ضمة ضم أنشد أمامه لمائة شاعر يحملون جميعاً اسم عمر — فلما غادره أخذ يحدّثه هو وخلف الأعراب ما يعرفان من الشعراء باسم عمر فلم يقدرأ على ذكر ثلاثين .

فإذا عرفنا أن خلفاً هذا لا يقل عن حمّاد اخلاقاً والروايات إذ كلاهما لم يكن ليتورع عن ابتداع القصص للكسب لما كانا عليه من الاندفاع فى هذا السبيل وأن أمثال أبى ضمة ضم كانوا لا شغل لهم إلاّ الزواج إلى المدن وقص الشعر والأخبار الكاذبة على الأدباء وعلى مریدی الأدب فى مجالسهم اتضح لنا أن الكثير من

الشعر العربي لا يستطيع إسناده إلى من تسب إليهم من الشعراء إلا بعد التمهيد
وإمعان الفكر في صحته .

ومن ثمّ نستطيع القول في غير تردد: إن مجنون ليسى لم يكن إلاّ شخصية
وهمة خلقها القصاصون من خيالهم الفيّاض لتكون بمثابةهم في مجالس الأدب
تدرّ عليهم الربح الوفير .

غير أن الرواية التي تحيط بهذه الشخصية الخيالية لها قيمتها من الناحية الأدبية
فهي وإن كانت مشوبة بالمخالاة والخرافة إلاّ أنها محبوبة الأطراف خلاصة السياق
رائعة النتيجة ومن ثمّ فهي تكون عملاً روائياً متكاملًا .

فبطلها ليس كأبطال الروايات العادية لا يقرم إلاّ بدور قليل الأهمية ولا
يتجمع حوله من الأحداث إلاّ القليل بل يظل بكل ما في هذه الكلمة من معان
وقوة فهو يناضل الأحداث حتى يسلبه النضال عقله ثم يصصره شهيد غرامه تحفه
الكرامة والإباء .

أما بقية أشخاصها فكل منهم يمثل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية في ذلك
العصر البعيد — فليلي العامرية فتاة مطيعة لا ترفض ما يأمرها به أبوها ولو أدى
ذلك إلى بذلها أكبر تضحية تبذلها فتاة في ريعان شبابها وهي إخماد لهيب حبها في
صدرها الذي يفيض بالآلم — وليلي بعد ذلك سيدة تحفظ عهد الزوجية المقدس
فلا تخون زوجها وردا ، على الرغم من لقاءها بمن تحب وعلى الرغم من عشقها
المتغلغل في قرارة وجدانها .

وورد زوج تنازعه الغيرة والشفقة على حبيب زوجته فيرثى لحاله ويلعن
الحظ السيء الذي حرم هذا العاشق الولهان من أن يبلغ المنى بمن يحب ويهوى .

والموتح والد المجنون شيخ وقور يريد أن يفتدى ولده بكل عزيز عنده
ولكن تقاليد قبيلة عامر التي هو أحد ساداتها تمنعه من الاسترسال في هذا الحنان
الأبوي فيفرض أمره إلى الله ويضرع إليه أن يشفي ابنه من مرض الحب العضال
ويدفعه هذا الحنان الفيّاض إلى استصحاب ابنه قيس إلى قبر رسول الله ليحسد في
زيارته الساوي والعزاء .

وهكذا نجد في جميع أفراد الرواية أشخاصا يقرمون بأدوار تراوح في الأدبية مما يجعل قصصها شيقة يتبعها القارىء في شغف واهتمام قويين .

وكل هذا يدل دلالة مدعمة على أن فن القصة في صدر الإسلام بلغ حدا لا يستطيع الناقده عنده إلا أن يعترف لهؤلاء القصاصين بالبراعة الغنية وسلامة الذوق .

وقبل أن نعرض لشعر المجنون لتعرف على قيمته من الوجهة الأدبية يجدر بنا الإلمام في إيجاز سيرته كما تناقلتها كتب الأدب وأن نثبت بالدليل المنطقي أن هذا الشاعر لم تكن لوجوده حقيقة تاريخية نظمت لصحتها في غير شك .

وليس من الصعب إقامة البراهين التي تدل على ذلك - فالقصاصون أنفسهم يقدمون لنا من الحجج ما يغني عن أى استنتاج .

وللوصول رأسا إلى ما نبغى نستطيع تقسيم هذه الحجج إلى أربعة أقسام :
قسم خاص بالشك في وجوده - وقسم خاص بنسبه ونسب ليلي - وثالث بحياتها الغرامية وما قيل في ذلك من حكايات - ورابع بانتحال الرواة شعر الشعراء المعروفين ونسبته إليه - وستتم البحث ببعض استنتاجات توضح أن الباقي من أشعاره المعروفة لم يقام إلا شعراء مجهولون وتناقلها الرواة فكانت لهم مورد رزق في مجالس الأمراء والعظماء .

أما الشك في وجوده فقد تعددت الرواية فيه - فالأصمعي يحدثنا عن أعرابي من بني عامر - وهي القبيلة التي ينسب المجنون إليها - إذ سأله عن المجنون العامري فقال : عن أيهم تسألني فقد كان فينا جماعة رموا بالمجنون فعن أيهم تسأل ؟
فقلت : عن الذي كان يشبب بليلى - فقال : كلهم كان يشبب بليلى .. قلت : فأنشدني بعضهم - فأنشدني لزاحم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلبُ الذي لجَّ هائماً بليلي وليداً لم تُقطَّعْ تَمَامُهُ
أفِقْ قد أفاقَ العاشقون وقد أتى لك اليومَ أنْ تلقى طيباً تَلَامُهُ
أجِدْكَ لا تَنفِسِيكَ ليلي مُلِمَّةً تُلِمُّ ولا عهداً يطولُ تقادُمُهُ

قلت : فأنشدني لغيره منهم - فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طاملاً لا عبتُ ليلي وقادني إلى اللهو قلباً للحسانِ تبوعُ
وطالَ امتراءُ الشوقِ عينيَ كلها نزفتُ دموعاً تستجدُ دموعُ
فقد طالَ إمساكي على الكبدِ التي بها من هموى ليلي الغداة صدوعُ

قلت : فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت - فأنشدني لمهدي بن الملوح المجنون :

لو أنَّ لك الدنيا وما عُدِلَتْ به سواها ويلي بائنٌ عنكَ بيئتها
لكنتَ إلى ليلي فقيراً وإنَّما يقودُ إليها وُدُّ نَفْسِكَ حينها

وإن نظرة فاحصة يلقيها الناقد الدقيق على هذه الرواية بأكملها تكفي لإقناعه بأن الأعرابي أقحم فيها إقحاماً وإن قائلها وناقلها وناظم أشعارها لم يكن سوى الأصمعي عينه - نطلع الأبيات المنسوبة إلى مزاحم بن الحارث يشابه مطلع الأبيات المنسوبة إلى معاذ بن كليب - أما معنى أبيات المجانين الثلاثة فيكاد يكون واحداً إذ يدور حول حب ليلي الذي يقرب من العبادة - ولو أن هناك أعرابياً طلب منه الأصمعي على غرة أن ينشده للمجانين الذين يعرفهم لخطرت على باله أشعار من ألوان مختلفة كأن ينشده لأولهم ما قاله في حب ليلي ولثانهم ما قاله في جمال ليلاه ولثالثهم ما قاله في هجرها أو رضاها أو ما إلى ذلك ولا سيما أن ليلي كلٌّ من الشعراء الثلاثة لم تكن تلك التي تنسب إلى بني عامر والتي تكني أم مالك.

والأطراف من ذلك هو أن الرواة يجعلون وجود قيس بن الملوح المجنون أمراً يحيط من كرامة قبيلته فيضعون على لسان أحد أفرادها قوله لابن دأب حين سأله عن المجنون : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً ؟ فيجيب الرجل على الفور : أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى تروى أشعار المجانين ؟ -

ولما قال ابن دأب : اننى أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق أجاب :
هيهات ! ! بنوعا مر أغلظ أكبادا من ذلك .

أما محمد بن الحكم وهو أحد الثقات فى الرواية الصحيحة فيقول نقلا عن عوانه :
ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا : ابن أبى العقب صاحب قصيدة الملاحم - وابن
القرية - ومجنون بنى عامر .

ولقد أيد هذه الرواية الأصمعى نفسه فقال : رجلان ما عرفا فى الدنيا قط
إلاّ بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القرية وإنما أوجدهما الرواة .

وكما تعددت الروايات فى أن مجنون ليلى لم يوجد إطلاقا تعددت الروايات
أيضا فى حقيقة نسبه - وتناقض هذه الروايات نتيجة طبيعية للاختلاق والوضع
الزائف . فمن كان وجوده مشكوكا فيه كان من الصعب الاتفاق على نسبه - ومن
ثمّ اختلف الرواة فى نسب المجنون .

فصحب التبريزى والرياشى وأبو العالقة يزعمون أنه هو الأفرع بن معاذ -
ويزعم خالد بن كلثوم ان اسمه مهدى بن الملوّح - ويدعى آخرون أنه قيس بن
الملوّح ويدللون على ذلك بما نسبوه ليلى العامرية من أنها أنشدت :-

ألا ليت شعرى والخطوب كثيرة
متى رحل قيسٍ مُستَقِيلٌ قَرَّاجِعُ

وهكذا جعل هؤلاء الآخرون ليلى من شعراء نساء العرب على الرغم من أن
وجودها فى العالم الديوى من أساطير الأراين - أما هشام بن محمد الكلبي فيزعم
أنه قيس بن الملوّح ويدل على اسم أبيه الذى اخترعه بأن ينسب إلى قيس نفسه
أنه أنشد عندما مات أبوه وعقر ناقته على قبره :

عقرتُ على قبرِ الملوّحِ ناقتي بِنْدَى السَّرْحِ لَمَّا أَنُ جَفَّاهُ الأَقَارِبُ

وما من شك فى أن هذا البيت من وضع الراوية هشام نفسه ليبرهن على صحة
سياق القصة حين يأتى فى سردها الخيالى موت الملوّح وجفاه الأقارب له وذبح
قيس ناقته على قبره ليستعوض بها عن ذلك الجفاء المزعوم .

ومن مجموع هذه الروايات المتناقضة الشديدة الاختلاف يتضح أن كل قصاص كان يبذل غاية الجهد في خلق رواية تجعله موضع ثقة مردييه ولا يتسورع في توكيد ما يذهب إليه من المزاعم عن أن يمتنع شعرا يؤيد روايته ثم ينسبه إما إلى ليلي ليدل في إصرار على أن اسم المجنون قيس وإما إلى قيس ليبرهن على أن اسم أبيه الملوّح .

وعلى هذا النحو من الاختلاف سار كل منهم عندما أراد إثبات كنية ليلي . وإن يذكروا قد اتفقوا على نسبها — فلكي تكون كنيته « أم مالك » جعلوا المجنون يقول :

تَكَادُ بِلَادُ اللَّهِ يَا أُمَّ مَالِكٍ بِمَا رَحِبَتْ يَوْمًا عَلَى تَضْيِيقٍ
ولكي تكون كنيته « أم عمرو » فلا بأس عندهم من أن ينزلوا على المجنون
شيطان شعره ليثبت لهم هذه الكنية الجديدة فيقول :

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا حُبَّهُ عَامِرِيَّةً لَهَا كَنِيَّةٌ عَمْرُو — وَلَيْسَ لَهَا عَمْرُو
تَكَادُ يَدِي تَسْدَى إِذَا مَا مَسْتَهَا وَيَنْبُتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ الْخُضْرُ

ولا بأس أن يكون البيتان — على ما فيهما من تكلف وركاكة — من شعر
المجنون مادام الخرض من وضعهما هو إثبات أن ليلي العامرية هي « أم عمرو » —
وعلى صحة التاريخ وقديسيته السلام

أما قصة غرام المجنون بليلى وكيف نشأ حبه لها فقد كان اختلاف الرواة
فيها مصدرا لاتساع نطاق الخيال الروائي في فجر الإسلام وضحاها — وكان أيضا
السبب الأساسي في كثرة الشعر الذي ينسب إلى المجنون ومصدر تعدد ألوانه —
وقبل التعرض لهذه القصة الأسطورية بالنقد أرى من الملائم سردها بجملة لإظهار
الجانب الفني في نسجها .

فقيس بن الملوّح كلف بليلى العامرية وهما في عهد الطفولة وقد علفت به
وشغفها حبه على الرغم من صغر سنهما — وكان يرعيان غم أهلها ولم يزالا على
حبهما حتى كبرا فحجبت عنه فقال يذكر أيام الطفولة :

تَعَلَّقَتْ لَيْلَى وَهَمَى ذَاتَ دُؤَابَةٍ رَلَمَ يَبْدُ الْأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ
صَغِيرِينَ تَرَعَى الْبُهْمَ يَأْلَيْتَ أَنْتَا إِلَى الْيَوْمِ لَمْ نَكْبِرْ وَلَمْ تَكْبِرِ الْبُهْمُ

والحكاية كانت تكون طريقة إذا وصلت في سياقها بما صنعه الرواة الآخرون
من أجزاء السيرة بعد ذلك — غير أن النزاع على التباين في القصص حدا بهؤلاء
الرواة إلى أن يجعلوا حب المجنون ليلي العامرية يبدأ وهما كبيران — فيقول ابن
الكلبي عن ابن الجصاص : إن سبب عشق مجنون ليلي أنه أقبل ذات يوم على
ناقة وعليه حلنان من حلل الملوكة فمر بامرأة من قومه يقال لها كريمة وعندها
جماعة نسوة يتحدثن — فنزل وجعل يحدثهن وقد أعجب به بجماله وجماله وكانت
بينهن ليلي — وما زال على ذلك طول يومه — فبينما هو كذلك إذ طلوع عليهم
فتى عليه بردة من برد العرب يقال له « منازل » يسوق معزى له — فلما رأيته
أقبلن عليه وترك المجنون فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أَأَعْقُرُ مِنْ جَرِّ كَرِيمَةٍ نَاقَتِي وَوَصِّلِي مَفْرُوشَ لَوْصِلِ مُنَازِلِ
إِذَا جَاءَ قَعْقَعُنَ الْحَلِيَّ وَلَمْ أَكُنْ إِذَا جِئْتُ أَرْضِي صَوْتَ تِلْكَ الْخَلَاخِيلِ
مَتَى مَا انْتَضَلْنَا بِالسَّهَامِ لَضَلَّتُهُ وَإِنْ تَرَمَّ رَشَقًا عِنْدَهُمَا فَهُوَ نَاضِلِي

« فلما أصبح لبس حاته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضا لمن فأنق ليلي
قاعدة بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبي وهويته وعندها جويزات يتحدثن معها
فوقف بهن وسلم ثم أخبرنه بأن مجلسه لن يكون فيه منازل فنزل فجعلت ليلي تتدلى
عليه فكانت تعرض عن حديثه ثم تصغى إليه وقد علق قلبه بحبها — وبيناهما كذلك
إذ أقبل فتى آخر من حبيها فاخذت تُسِرُّ إليه — ولما انصرف وجدت أن وجهه
المجنون قد تغير فأنشأت تقول :

كَلَانَا مَظْهَرٌ لِلنَّاسِ بَغَضًا وَكُلُّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَسْكِينُ
تَبْلَغُنَا الْعُيُونُ بِمَا أَرَدْنَا وَفِي الْقَلْبَيْنِ شَمُّ هَوَى دَقِينُ

« فلما سمع البيتين شفق شهقة شديدة وأغمى عليه فمكث ساعة ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمسك بحب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ ،

هذه هي رواية ابن الكلبي عن ابن الجصاص وكأني بهذا الراوى كان بين الحميين يوم لقاها يسمع ويرى ويدرك حديثهما بطريقة ، الاختزال ، قبل أن يعرفها الناس بعد عدة أجيال - وكأني وأنا أقرأ هذه الحكاية أمام منصة الشاعر أبي رباية ، أنصت في عهد الصبا إلى قصة أبي زيد الهلالي سلامة وهو يرويها في براعة وعُنفجية ويتفنن في تزويدها بالحواشى المثيرة وهو يضرب ربابته بقوسها ليضفى على حديثه الكثير من العظمة المفتعلة .

ويتفق أبو مسكين مع ابن الجصاص في كل تفاصيل هذه الرواية بعد أن يضيف عليها لونا من الوصف الخلاب ولكنه يقول إنها حدثت لقيس بن معاذ أحد المجنونين الآخرين - وهذا الخلاف يهدم كيانه القصصى من أساسه .

وكل من يمعن النظر في هذه الحكاية يؤمن بأن شيئاً منها لم يقع لقيس بن الملوّح أو لقيس بن معاذ - وإنما إذا كان طرف منها قد وقع بالفعل فإنما يكون ذلك لعمر بن أبي ربيعة الذي كان من عاداته مداهمة النساء في حينه والجلوس معهن والتحدث إليهن وعقر ناقته عند الاقتضاء لما كان عليه من سخاء في هذا السبيل ثم يغضب بعد ذلك للانشغال عنه بفتى آخر - وكل من قرأ أخبار ابن أبي ربيعة يلبس هذه الحقيقة في روح سرد القصة نفسها .

وفي ثنايا هذه القصة الأسطورية نلح ظاهرة هي من لزوميات القصص العربي في القرون الأولى للتاريخ الهجري تلك هي المغالاة التي تتخطى كل حدود المعقول - فقيس بن الملوّح ، المجنون ، يشفق عندما يسمع شعر ليلي - ويقينا أنها لم تقله - يشفق شهقة شديدة ويغمى عليه ساعة - وسيغمى على هذا المسكين في قصص الرواة طوال حياته الغرامية التعسة لاتفه الأسباب حتى لينحال قراؤها أن ثلاثة أرباع عيشته كانت إغماء تلو إغماء - فلا يفيق إلا لينظم الشعر الذي ينسب إليه - ولعل الرواة نسبوه إليه وهو في حالة إغماء شديد حتى لا يكون واعياً فيلومهم على هذا الانتحال المذهل .

وبعد ذلك اللقاء الذى وصف على النحر المتقدم اشتهر أمر غرامها ولاسيما بعد أن أخذ يقول فيه الشعر فيتناشده الناس - ثم يتقدم قيس ليخطب ليلي من أهلها فيفعلون عليه - وردا ابن محمد العقيلي ، فتزوجها ورد على كره منها وذاك بعد أن تحدث بينها وبين حبيبها حوادث غرامية طريفة من حيث سداجتها وبعدها عن الواقع - ومنها ذهابه إليها ذات ليلة ليطلب أدما فتأتى وتصب السمن فى إناء وهما يتحدثان فى نشوة الغرام فتستنقع أرجلهما وهما لا يدريان من فرط الحشق والهيام - ومنها أنه ذهب إليها ليلة أخرى يطلب ناراً فأعطته شيئاً منها فى خرقه ووقفنا يتحدثان فاحترقت الخرقه فأخذ طرف ردائه ووضع النار فوقه وما زال ينقلها من طرف إلى آخر حتى لم يبق من ردائه إلا مايستر عورته - وهكذا يجهلك الرواة أيها القارىء تصديق المستحيل لأن المستحيل فى عرفهم من ألزم لزوميات القصص فى عصرهم .

ولما لم يكف قيس عن التشبيب بليلى بعد زواجها شكاه أهلها إلى السلطان فأهدر دمه - ولكن المجنون لا يخاف على حياته فيفشى حبها إلى أن رحل أهلها إلى بلاد أخرى فيباح عليه الحزن والهم وتشتد عليه قسوة الغرام فيفقد عقله .

وتختلف الروايات حتى فى جنونه - فمن النصاصين من يقول إنه لم يكن مجنوناً - وينكرون كل الروايات التى تنسب إليه الجنون ويؤكدون أن سبب تسميته بالمجنون يرجع إلى البيتين المفسوبين إليه :

ولمِنى لمجنونٌ بليلى مؤكَّلٌ ولستُ عَزُوفاً عَنْ هَوَاهَا وَلَا جَلِيداً
إذا ذكرتُ ليلي بكيتُ صباةً لَتَدَكَّارِهَا حَتَّى يَبَلََّ الْبُكَا الْخَدَّ

ومن الغريب حقاً أن الأصمعى الذى ينكر وجود المجنون - كما تقدم القول وذلك على أساس ما سمع من روايات الأعراب فى البادية - يعود فيروى لابن عبد الصمد بن المحدث ولحماد بن طالوث ولعمر بن شبة أن قيساً لم يكن مجنوناً بل كانت به لَوْثَةٌ أحدثها الحشق فيه - وهذا القول يناقض ما ذهب إليه الأصمعى من أن قيساً ليس له وجود فعلى بين سكان الدنيا !!!

أما عثمان بن عمار المرثى فيجعل جنونه يبدأ من ذلك اليوم الذي لقي فيه ليلي وهي في جماعة من أترابها فأخذت تتحدث إليه ثم توجه الانفاتها إلى فتى آخر ثم توجه إليه فيقول البيتين الآنف الذكر - ويغمى عليه ويستفيق وقد ذهب عقله فلا يلبس ثوباً الا خرقه ولا يشئ إلا عارياً ويلعب في التراب ويجمع العظام أى أنه صار أحد مجاذيب السيد أحمد البدوي الذين نعرفهم الآن بما ياتون من أعمال تدخلهم في زمرة البلهاء أو المستبلين .

وهكذا تجعل رواية عثمان بن عمار المرثى المجنون يفقد عقله لمجرد سماعه بيتين من شعر ليلي فيهما بريق من الأمل في حبها وتجعل عيشته نكداء منذ هذه اللحظة إلى أن يتوفاه الله فيذهب إلى الدار الباقية وهو في زمرة شهداء الغرام الأفلاطوني .

غير أن الراوية الكلبي يجعل لجنون قيس مقدمة شيقة - فيزعم أن والد قيس وأمه ورجال عشيرته ذهبوا إلى أبي ليلي قبل أن يزوجها وردا العقيلي . وتوسلوا إليه أن يزوجها من ابنهم لأنه إذا لم يفعل قضى عليه بالموت - فيصر أبوها على تزويجها من « ورد » خشية العار - فيأس قيس ويزول عقله فيأخذ به أبوه إلى الحج ليتعلق بأستار الكعبة ولكنه يسمع صائحاً في الليل يصيح باسمها فيصرخ ويسقط من شياً عليه - كمادته - ويمكث كذلك إلى الصباح (دون أن يموت !!) ثم يفيق ويقول :

عَرَضْتُ عَلَى نَدَى الزَّامِ فَقَالَ لِي هُنَّ الْآنَ فَيَأْسُ لَا أَذْكُ مِنْ صَبَرِ
إِذَا بَانَ دَنْ نَمَوى وَأَصْبَحَ نَائِياً فَلَا شَيْءَ أَجْدَى مِنْ حُلُولِكَ فِي الْقَبْرِ

ثم يتعلق بأستار الكعبة ويصيح « اللهم زدني من هوى ليلي » - ويهم بعد ذلك على وجهه في البرية مع الوحش ولا يأكل إلا ما ينبت فيها من بقل ولا يشرب إلا مع الظباء وطال شعر جسده ورأسه وألفته الظباء والوحوش فكانت لا تنفر منه !! وهذا الوصف الخيالي الشيق تقدم « الكلبي » الراوية العربي على مؤلف قصة طرزان الأمريكية بعدة قرون - ولعل المؤلف الأمريكي قد علم برواية الكلبي فانسج من خطوطها العريضة سلسلة طرزان التي لقيت إقبالا شديداً على

دور السينا من محي المخامرات المماثلة لمغامرة العاشق المسكين
مجنون ليلي .

غير أن قيس الطرزانى ، المتوحش النافر الفاقد العقل سرعان ما يسترد عقله
ويترك الصحراء ويبحث عن مساكن ليلي من وقت إلى آخر فيترصد لزوجها
حتى إذا وجدته وهو يصلي الفجر في يوم ممطر يهجم عليه لا ليغتاله أو ليلحق به
الأذى ولكن ليقبض على ذراعيه ويقول له في لطف وعذوبة :

بربك هل ضمنت إليك ليلي قيل الصبح أو قبلت فاهما ؟
وهل رقت عليك قرون ليلي رفيف الأقحوانة في ندها ؟

فلا يستحي هذا الزوج الحربى ولا يشور أو يزجر المجنون على قوله هذا بل
يجيب فى ليونة متناهية لا تتفق والروح العريية التى تغضب لأية بادرة تمس
العرض من قريب أو من بعيد : أما وقد حلفتى فنعم ! - وعندها تعود العصبية
الجنونية إلى قيس فيقبض بكلى يديه على الجمر ولا يفارقه حتى يسقط مغشيا عليه
فى نوبة من نوبات إغمائه التى لا تحصى - وما من شك فى أن هذه الحكاية
البديعة السياق من نسج خيال الرواة الخصب الذى يحليه نظم البيتين الرائعين
المتقدمين وهما يكونان لوحة تستحق أن تتناولها ريشة الرسامين لإبراز منظر ورد
يضم ليلي إلى صدره وقد ألقى نسيم الصباح على أحد كتفيه شعر ليلي الطويل
الفاحم السواد .

ويزيد محمد بن الحكم على سياق هذه الحكاية أن أهل المجنون عثروا عليه
وأخذوه يترىض فقال له بعض الفتيان إن جبلى النعمان كانا مقرا لليلي - فاسرع
يسألهم أى الرياح تاتى من ناحيتهما فيقولون الصبا فيمكث المجنون ثلاثة أيام فى
هذا المكان دون أكل ولا شرب حتى تهب ريح الصبا ويقول :

أيا جبلى نعمان بالله خلّيا سبيل الصبّا يخلّص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة على كبد لم يبق إلا صميمها
فإن الصبّا ريح إذا ما تنسمت على نفس محزون تجلّت همومها

وأكبر الظن أن هذه الآيات انتهت للمجنون في عصر متأخر عن العصر الذي يقال إنه عاش فيه لإثبات صحة هذه الرواية فقط - ذلك لأن كل المعنى الذي يستخلص منها هو وصف ريح الصبا حين تهب ولأن روح معانيها روح متمدنة ليس فيها من خشونة أهل البادية شيء - ويخال لي أنها صيغت في العصر العباسي لما في كلماتها من سلاسة وعذوبة جرس .

وبعد أن يعيش المجنون على هذا النحو البوهيمي الشاق ردحاً من الزمن غير قصير يقضى الرواة على حياته بالخيال الفياض نفسه الذي أحيوه به .

فيزعم عثمان بن عمار المُرِّي أن شيخاً من بني مرة أراد رؤية المجنون فسافر إلى أرض بني عامر والتقى بالملوح والد قيس فقص عليه حكاية ابنه التعس في إسهاب ثم دله على فتى لا يانس المجنون في البادية إلا له ولا يقول شعره إلا إليه - فيسأله الفتى عما يريد من المجنون فيقول إنه يود رؤيته فيقبل أن يستصحبه إلى حيث يأتي كل يوم ويحذره أن يهابه إذا رآه حتى ولو رماه بالحجارة وأن يجلس إلى جانبه دون أن ينظر إليه كأنه لا يريد مخاطبته حتى إذا سكن من نفاره ياشده شعراً غزلاً ويستحسن أن يكون من شعر قيس بن ذريح لأنه موجب به .

ثم يدل الفتى الشيخ على المكان الذي تعود المجنون أن يأتي إليه في الصحراء ويتركه - فيذهب الشيخ وينشده الشعر حتى يانس فيبكي بالامخالاة نفسها التي نجدتها في كافة أجزاء الرواية لأن بكاءه يبيل الرمل الذي بين يديه ١١ وينشد قائلاً :

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتَنِي بِقَوْلٍ يَحِيلُ الْعُصْمَ سَهْلَ الْبَاطِحِ
تَنَاءَيْتَ عَنِّي حِينَ لَالِي حَيْثَلُهُ وَخَلَفْتِ مَا خَلَفْتِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

وبينا هو كذلك إذ سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عن بصر الشيخ - وفي اليوم التالي جاءت المرأة التي كانت تمنع له الطعام إلى الطعام فوجده بحاله وفي اليوم الثالث ذهب الشيخ مع أهل المجنون إلى الصحراء فوجدوه ميتاً في واد كثير الحجارة خشن فاحتمله أهله فغسلوه وكفنوه ودفنوه .

ومن الغريب حقاً أن نجد في هذه الرواية عكس ما زعمهم في رواية سابقة من

أن المجنون لا يأكل إلا من نبات الصحراء بين أنواع الحيوانات الأليفة والمتوحشة على حين أن أمراًة في هذه الرواية تصنع له الطعام يومياً وتركه في المكان الذي تعود أن يأتي إليه ليأكل - وأغرب من ذلك أن يتفق ذهاب الشيخ للبحث عن المجنون في البادية مع صعود روحه إلى بارئها بعد ثلاثة أيام كأن لقاء الشيخ بالمجنون وموته كانا على موعد - وعن الغريب أيضاً أن يقول المجنون البيتين السابطين على ما فيهما من نعومة التحضر وهو على ما هو عليه من النفور والتوحش بعد البقاء طويلاً في الصحراء بين الظباء والوحوش .

وعلاوة على ما نلاحظه في قصة حياة مجنوز ليلي كاهن دن تناقض وشذوذ ومخاللة مما يدل صراحة على اخلاقها فاننا نجد فيها العناصر نفسها التي نجدها في قصة « جميل بن معمر وبثينة » . وليس من المبالاة إذا قلنا إن قصة المجنون ما هي إلا نسخة محرفة من قصة « جميل وبثينة » .

فجميل وبثينة يلتقيان في النسب تماماً كما يلتقى قيس بن الملوح بليلى العامرية لأن جميل من ربيعة وبثينة كذلك .

وجميل كالمجنون علق ببثينة وهما طفلان - وقال في ذلك شعراً حلوا جزلاً يزيد في المتانة وعذوبة الجرس على شعر المجنون في هذا الصدد - فاسمعه يقول :

عَلِقْتُ الهَوَى مِنْهَا وَلَيْدَا قَتْلَمْ يَزَلْ
إِلَى الْيَوْمِ يُنِمِّي حُبَّهَا وَيَزِيدُ
وَأَقْنَيْتُ عَمْرِي بِاتِّظَارِي وَعَدَّهَا
وَأَبْلَيْتُ فِيهَا الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ
قَلَا أَنَا مَرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِباً
وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ

ومن عجيب الصدف أن تكنى بثينة جميل بن معمر بأمر عمرو كليلى - وأن يقول جميل الشعر في ذلك كما قاله المجنون :

فَمَلْ تُجْزِيَنِي أُمُّ عَمْرٍو بِوَدَّهَا
فَإِنَّ الَّذِي أَخْفَى بِهَا فَوْقَ مَا أَبْدَى

وحب جميل لبثينة يدوم حتى الممات كما يدوم حب المجنون لليل فيقول جميل:
يَهْوَاكَ مَاعَشْتُ الْفَوَادُ فَإِنْ أُمْتُ
يَتَّبَعُ صَدَايَ صَدَاكَ بَيْنَ الْأَقْبَرِ

وجميل صادق الصبابة لا يحول عن غرامه مثل المجنون - فغرام الاثنين قوى
متين يتغلغل في قلوبهما ويستولى على وجدانهما - وفي ذلك ينغث جميل هذه
الصبابة في بيته الرنان :

خَالِيَتِي فِيمَا عَشْتَا هَلْ رَأَيْتَا
قَتِيلًا بَسَكَ مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي ؟

وجميل يلتقى ببثيناه في الليل بعيدا عن أهلها ويغامر من أجل ذلك مرات
ومرات ثم يخطبها من أهلها بعد أن يتناشد الناس شعره فيها فيرفضون زواجه
منها ويقدمون شعره للسلطان فيهدر دمه فيتتبع بثينة ويصعد فوق التلال المجاورة
لها ليتنسم ريح الحى الذى تسكنه ويقول :

أَيَا رِيحَ الشَّمَالِ أَمَا تَرِئْنِي أَهْمٌ وَلَائِي بَادِي النُّحُولِ
هَبِي لِي نَسْمَةً مِنْ رِيحِ بُثْنٍ وَمُنًى بِالْهُبُوبِ إِلَى جَمِيلِ
وَقُولِي يَا بُثَيْنَةَ حَسْبُ نَفْسِي قَلِيلُ أَوْ أَقْلُ مِنَ الْقَلِيلِ

وكل هذه الوقائع نجدها ماثلة في سيرة المجنون متتالية فيها على نمط واحد
وسياق واحد ليس فيه من التباين شيء .

وأبو جميل بن معمر كأبى المجنون يضرع إلى الله أن ينجى ابنه من حب
بثينة وينصح إلى هذا الابن أن يعزف عن هذه الفتاة المتزوجة وأن يوجه حبه إلى
خير فتاة في قبيلته لأنه قادر على الزواج منها لما هو عليه من الغنى والجاه -
فيرفض كما رفض المجنون ويبكى ويقول مثله : إن القلب لا يستطيع التخلص
من حبه ثم ينشد هذه الأبيات الثلاثة الشيقة :

أَلَا مَنِّ إِقْلَبِ لَا يَمَلُّ فَيَسْذُ هَلْ
أَفِقُ فَالْتَعَزَّى عَنْ بُثَيْنَةَ أَجْمَلُ
سَلَا كُلُّ ذِي وَدٍّ عَلِمْتَ مَكَانَهُ
وَأَنْتَ بِهَا حَتَّى الْمَمَاتِ مُوَكَّلُ
فَمَا هَكَذَا أَحْبَبْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَهَا
وَلَا هَكَذَا فِيمَا مَضَى كُنْتَ تَفْعَلُ

وجميل كالجنون مدرف في حبه وفي صباه - فإسرافه في الحب يجعله يعزف
عن الإفادة المادية من شعره فلم يمدح أحداً - وإسرافه في الصباية ينطقه بهذه
الآيات المليئة بالوله واللوعة :

لَهَا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ بِالْحُبِّ مَنِيْعَةٌ
هِيَ الْمَوْتُ أَوْ كَادَتْ عَلَى الْمَوْتِ تَشْرَفُ
وَمَا ذَكَرْتُكَ النَّفْسُ يَا بُشْنُ مَرَّةً
مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَادَتْ النَّفْسُ تَتَلَفُ
وَالَاَّ اعْتَرَتْهُ زَقَرَةٌ وَاسْتَكَانَهُ
وَجَادَلَهَا سَجَلٌ مِنَ الدَّمْعِ يَذْرِفُ
وَمَا اسْتَطَرَفَتْ نَفْسِي حَيْثُهَا لِحْلَةٌ
أَسْرٌ بِهِ إِلَّا حَدِيثُكَ أَطْرَفُ

ويقول في موضع آخر من ديوانه :
لَقَدْ لَجَّ مِثَاقٌ مِنْ اللَّهِ يَبِينُنَا
وَلَيْسَ لِمَنْ لَمْ يَوْفِ اللَّهَ مِنْ عَهْدِهِ
قَلَا وَأَيُّهَا الْخَيْرَ مَا خُنْتُ عَهْدَهَا
وَلَا لِي عِلْمٌ بِالَّذِي فَعَلْتُ بَعْدِي

وما زادها الواشونَ إلا كرامة
 على وما زالت مسودتها عندى
 أنى الناس أمشالى أحب فحالهم
 كحالى أم أحببت من بينهم وحدى؟
 وهل هكذا يلتقى المحبون مثل ما
 لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى؟

ومن كل هذه الشواهد المقدمة يتضح فى جلاء أن شخصية المجنون الخيالية
 وشخصية جميل بن معمر واحدة - وأن الرواة لما وجدوا فى حياة جميل مادة
 قصصية صالحة لتغذية فن الرواية عمدوا إلى توسيع محيطها الروائى بحياة
 أسطورية أخرى أكثر منها اقتراباً إلى المثل العليا التى لم يدانيها جميل مثل ما داناها
 قيس بن الملوّح ولم تسم إليها بثينة مثلاً سميت ليلي العامرية .

فجميل وإن كان محباً صادقاً مسرفاً فى حبه إلا أنه لم يحن لهذا الحب ولم
 يترك الأهل والأصدقاء ويأجأ إلى البادية ليعيش بين الظباء والوحوش بعيداً
 عن متع الحياة ورغدها كما فعل قيس - فهو وإن كان يحب بثينة حباً يقرب
 من العبادة إلا أنه لا يتردد عندما تغضبه فى أن يتركها نائمة بجانب ناقته
 ويرحل ويستمر على هجره لها زمناً ليس بالقصير .

وبثينة وإن كانت من هؤلاء النسوة اللاتى أخاصن فى حبهن إلى حد كبير إلا
 أنها ليست ساذجة صافية النفس كليلي - فالزوع إلى الحبث والخذاع يجعلها قادرة
 على استنباط الحيل للتخلص من المأزق - فهى إذا ما رآها جميل وهو فى زى
 الراعى وجاء أهلها على صراخ الفزع الذى دفعته من صدرها عند رؤيته ألقت
 بثوبها فى النار لتزعم لذويها أنها صرخت لاحتراق هذا الثوب .

وبثينة لا تقيم لحرمة الزوجية والحرص على شرف الزوج كبير وزن فلا
 تتورع عن أن تلتقى بجميل فى خلوة - فإذا جاء خادمها ليسقيها لبناً ووجدها معه

أخفت جميلاً تحت متاعها وجعلت خادمتها تنادها فيقتنع زوجها وأبوها وأخوها بأن الخادم كذب عليها - وإذا كانت هذه الحكاية لا يسهل تصديقها إلا أن لقاء جميل بها يدل على مكرها واستطاعة إخفاء هذه المغامرة بوسيلة أو بأخرى - وبئسنة لا تحجم بعد ذلك عن أن تنعت هذا الزوج السيء الحظ بأقبح الصفات وتسميه بالأعور الذميم على حين أن ليلي لم تحاول الإساءة إلى سمعة زوجها ورد أو ذمه .

وبئسنة إلى جانب ما تقدم حققه سليطة اللسان سريعة البديهة في ذلك . على خلاف ليلي البسيطة الطوية الطيبة الراضية بما قدر لها الكاظمة الغيظ السكابة للواعج حبها حتى الممات - فقد قال الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي دامت خلافته إلى عام ٩٧ هـ (٧١٥ م) إلى بئسنة وهي في سن الكهولة : ما الذي رأى فيك جميل حتى أحبك كل هذا الحب؟ فلم يكن منها إلا أن أجابت على الفور: الذي رأى فيك الناس حين استخلفوك !!

فجميل وبئسنة لم يكونا إلا شخصيتين عاديتين جمعتهما الغرام فأحب كل منهما الآخر حباً قوياً ولكنه حب يخضع للنظم البشرية - فيتخلله الهجر والصد والوصل ويتخلله الخبث والمكر وابتكار الخيل والفروسية ثم ينتهى بالفراق كأي حب مألوف . ذلك لأن جميل بن معمر له وجود تاريخي معترف به فقد كان شاعراً من بني عذرة وتوفي بمصر عام ٨٢ هـ (٧٠١ م) ومن ثم لم يكن في وسع الرواة أن يجعلوا قصة حبه خيالية بحت فاضطروا إلى سردها مع إدخال بعض الحواشي الأسطورية التي لم تشوّه كل جوانبها الحقيقية .

أما المجنون وليلي فشخصيتان يمتازان طابعها النبيل والعفة والتفاني في الصباغة والبعد عن الشهوات الدنيئة والتوجع للفراق حتى الممات - فهما - كما أراد لهما الرواة - يمثلان من الناحية الاجتماعية الذروة في الحب العذري الصادق وهما لا نجد في حب جميل وبئسنة .

وكما كان من السهل إقامة الأدلة على اختلاق القصصين لشخصية مجنون ليلي فإنه ليس من العسير تقديم البراهين الدالة على انتحالهم لشعره .

فعلاوة على البرهان المنطقي الذي نستخلصه من نفى وجود المجنون كشخصية تاريخية حقيقية لاثبات انتحال هذا الشعر فإن القصاصين والرواة أنفسهم يمدوننا ببعض البراهين الأخرى في هذا الصدد .

فأيوب بن عتبة يقول : إن شعر قيس بن الملتوح مجنون ليلى وضعه فتي من بني مروان كان يهوى امرأة منهم - وكان يقول فيها الشعر وينسبه إلى المجنون وقد صنع له أخبارا وأضاف إليها ذلك الشعر فحمله الناس وزادوا فيه ،

ويقول ابن الكلبي إن بعضهم حدثه أن المجنون وشعره من وضع فتي من بني أمية كان يهوى ابنة عم له - وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه .

وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ولا شعراً هذه سليله قيل في لبني إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح ،

ويؤكد ابن الأعرابي أن جماعة من بني عامر سئلوا عن المجنون فلم يعرفوه وذكروا أن هذا الشعر كله مولد عليه .

هذه هي أدلة القصاصين والرواة أنفسهم - أما الأدلة العقلية فيستطاع استخلاصها من أمرين : أحدهما نسبة بعض أشعار المجنون إلى الشعراء المعروفين - والآخر الإحساس الذي يستولى على النفس عند قراءة البعض الآخر من هذا الشعر فيدلنا بالبديهة على أنه إما إشاعر من كبار الشعراء للروح التي تلمسها فيه وإما لشعراء مجهولين وضعوه في عصور متأخرة - من ذلك الأشعار التي تنسب للشاعر نصيب وهي :

أَمُسْتَقْبَلِي نَفْحَ الصَّبَا ثُمَّ شَائِقِي بِيرِدِ ثَنَائِيَا أَمْ حَسَّانَ شَائِقُ
كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا الْخَمْرَ شَجَّهَا بِمَاءِ النَّدَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ عَاتِقُ
وَمَا شَمْتُهُ إِلَّا بَعِيْنِي تَفَرُّسًا كَمَا شَيْمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ

وكل من يقرأ شعر نصيب لا يشك لحظة في أن هذه الأبيات من نظمه وأنها

حشرت في شعر المجنون حشراً لا ثبات رواية ذهابه إلى ليلي ذات مساء وطلبه النار فاته بقبس منها فوضعه على أطراف ردائه حتى احترقت جميعها - وليس في هذه الحكاية ما يدل على أن الأشعار المتقدمة قيلت بمناسبةها .

ومن هذه الأشعار أيضاً تلك التي تنسب إلى المجنون وهي :

وخبّرتماني أنّ تسليماً متمزلاً ليلي إذا ما الصيفُ ألقى المراسيما
فهذي شهورُ الصيفِ عناقداً انقضت فما للنوى ترمى بليلى المراسيما ؟

وما علينا إلاّ أن نرجع إلى قصيدة جميل الياثية المفتوحة لنحس فيها هذه الروح التي نشعر بها عند قراءة هذه الأبيات التي قالها جميل في قصيدته :

وأنت التي إن شئت كدرت عيشتي وإن شئت بعدت الله أنعمت باليا
وأنت التي مامن صديق ولا عدا يرى نضو ما أبقيت إلاّ رثى ليا

إذا خدّرت رجلى وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
ولا زادني الواشون إلاّ صباية ولا كثرة الناهين إلاّ تماديا

لقد خنمت أن يغتالي الموت عنوة وفي النفس حاجات إليك كما هيما
وإني لتتني الحفيظة كلما لقيتك يوماً أن أبشك ما ييا

وقالوا به داء عنام أصابه وقد علت نفسي مكان دوائيا
ألم تعلّى يا عذبة الريق أني أبيت إذا لم ألق وجهك صاديا ؟

فإذا مزجنا هذه الأبيات ببعض التي تنسب إلى المجنون من البحر والروى نفسيهما لتكونت من هذا المزيج قصيدة لا نشك لحظة في أن قائلها شاعر واحد شعر في نظمها بإحساس واحد هو عاطفة الحب القوي فخرجت جزلة العبارة صادقة التعبير

والواقع هو أننا إذا أضفنا الأبيات المتقدمة إلى الأبيات الآتية التي تنسب إلى المجنون وهي :

تخليلي لا والله لا أملك الذي قضى الله في ليلي ولا ما قضى لي
قضاءها لغيري وابتلاني بحبها فلا بشيء غير ليلى ابتلاني؟
أعد ليالى ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرأ لأعد ليالي
وما أشرف الإيقاع إلا صباة ولا أنشد الأشعار إلا تداريا
وقد يجمع الله الشيتين بعدما يظن أن كل الظن أن لاتلاقيا
لحى الله أقواما يقولون إتنى وجدت طوال الدهر للحب شافيا

لعلنا في غير كبير عناء أن الذى قالها جميعها هو جميل - وأن اسم ليلى في
البيتين الأول والثاني وضع بدل اسم « بشن » وهو اختصار « بثينة » وكان جميل
كثيراً ما يخاطبها في أشعاره بهذه التسمية المقتضبة الحلوة .

وهل في العقلاء ذوى الإدراك الحصيف من يصدق أن رجلاً فقد عقله وهام
على وجهه فاقد الوعي يستطيع نظم هذه الأبيات الرصينة العذبة الجرس والمعاني
التي تدل على رجاحة العقل وقوة الإدراك السليم فيما يستطيع نظمها من القوافي .

ولست بذلك أريد القول إن جميع الأبيات التي تنسب للمجنون ليلى من هذا
البحر الطويل ومن هذه القافية المفتوحة هي من شعر جميل بن ميمر وإنما الذى
أريد الوصول إليه هو أن بعض هذه الأبيات أخذت من شعر جميل ووضعت
في الشعر الذى ينسب إلى المجنون وبعضها الآخر قاله الرواة ونسبوه إليه .

أما الإحساس الذى يستولى على نفوسنا لدى قراءة طائفة كبيرة من الأشعار
المنسوبة إلى المجنون فنستدل منه على روح مؤلفها الحقيقى ونستطيع إلى حد ما
تعيين هذا المؤلف من بين الشعراء - فنجد مثلاً ظاهراً في هذه الأبيات التي بقول
الرواة إن المجنون قالها عندما وجه ليلى بين أترابها وأراد التجنث إليها فأعرضت
عنه وأخذت تكلم شاباً يدعى « منازل » وهى التي مطلعها :

أعقير من جراً كريمة ناقتى ووصلى مفروشاً لو ضل منازل ؟

فإن نسبتها إلى عمر بن أبي ربيعة ربما تكون أقرب إلى الحقيقة كما قدمت لأن طابعه الشعري فيها واضح ويتجلى هذا الطابع أيضا في روعة الوصف الدقيق في الأبيات الآتية التي تنسب عبثاً إلى المجنون :

ولم أرَ ليلي بعدَ موقفِ ساعةٍ بخيفٍ مُتًى ترمى جَسارَ المحضَّبِ
ويبدى الحصى منها إذا قَدَفَتْ به من البردِ أطرافَ البَنانِ المخضَّبِ
فأصبحتُ من ليلي الغداةَ كناظرٍ مع الصبحِ في أعقابِ نجمٍ مغربِ
ألا إنما غادَرْتُ يأمَ مالكٍ صدَى أينما تذهب الريحُ يذهبِ

فإن هذا الوصف البديع المفعم بالغزل الشجي لا يعرف كيف يسمو إليه إلا عمر بن أبي ربيعة الذي له في مثل هذا اللون من القريض مواقف مشهورة .

ونخذ مثلاً آخر تلك الأبيات التي عزاها الرواة إلى قيس بن الملوِّح ليدلوا على نسبه ونسب ليلي وعلى اسم أبيه - فإنك تجد فيها من التكلف والإسفاف ما يجعلك تجزم بأنها وضعت في عصور مختلفة لا تمت إلى العصر الذي يقال إن المجنون عاش فيه بسبب - ويمكنك أن تضم إليها تلك التي وضعت على لسانه ليرد بها على ليلي عندما جاءته قائلة : يا قيس إن أمك تزعم أنك جئنت من أجلى وتركت الطعام والشراب فاتق الله وابق على نفسك فيبكي ويقول :

قالتُ جئِنتُ على أئيشٍ فقلتُ لها الحبُّ أعظمُ مما بالمجانين
الحبُّ ليسَ يَفِيقُ الدهرَ صاحِبُهُ وإِنَّمَا يصرع المجنون في الحينِ

فهل المجنون الذي ذهبت كل قواه العقلية يرتجل هذين البيتين ليرد على ليلاه بمجرد أن تخاطبه في أمر جنونه ؟ إن هذا لا يقبله عاقل من مجنون ليس له عقل :

ومن الأبيات التي تنسب لهذا المعتوه وتظهر فيها النعومة الواضحة التي تحمل على أنها نظمت في العصر العباسي الثاني وقت أن توغل الترف في الاجتماع العربي وكانت من نتائجه تلك النعومة المترفة التي نلاحظها في كثير من الشعر والنثر في ذلك العصر - من تلك الأبيات المقطوعة التالية :

يا للرجالِ لهمَّ بات يعرفون
 مستطرف وقديم كاذب يبليني
 من عاذري من غريم غير ذي عسر
 يابى فيمطلني ديني ويلوني
 لا يبعد النقد من حتى فينكره
 ولا يحدثني أن سوف يقضيني
 وما كشرى شكر لو يوافقني
 ولا منأى سواه لو يوافيني
 أطعته وعصيت الناس كلهم
 في أمره وهواه وهو يعصيني

ومن الأدلة التي تؤكد أن هذه الأبيات وضعت في العهد العباسي الثاني أن الحبيبة فيها تخاطب بالمذكر وقد غلب هذا التذكير في ذاك العصر على التأنيث إذ اتبعته معظم الشعراء حتى الفحول منهم - وما زال - مع الأسف يطبع أغانيها بطابعه المستهجن .

وإذا علمت أن الرواة يدعون أن المجنون قال هذه الأبيات عندما ألحت ليلي في الصدد عنه فأتى إليها ذات يوم وجلس يتحدث إلى صاحباتها ثم أنشد هن هذه الأبيات فأخذن يضحكن منه وهو يبكي تبين لك أن الميوعة المرنة التي تتنافى مع خشونة البادية لا تظهر في الأبيات فحسب بل في حكاية المناسبة التي قيلت فيها .

ويعزو الرواة للمجنون أبياتا تخرجه عن حالة العذرية التي أحاطوه بها وعن الحب الأفلاطوني التي من كل شائبة - فقد قالوا على لسانه حين علم أن زوج ليلي سبه وقال : أو بلغ من قدر قيس بن الملوّح أن يدعى محبة ليلي وينوء به باسمها ؟ قالوا على لسانه الأبيات التالية :

فإن كان فيكم بعلٌ ليلي فإني
 وذي العرض قد قبلتُ فأما ثمانيا
 وأشهدُ عند الله أني رأيتها
 وعشرون منها إصبعا من ورائها
 أليس من البلوى التي لاسوى لها
 بأن زوجتُ كلباً وما بذلتُ لينا ؟

ففي هذه الآيات يبدو قيس بن الملوّح ندلا . وهذا لا يتفق وما ألبسه هؤلاء
 الرواة من برّد الشهامة في الحب والتفاني في الصباغة النقية ولا مع روح التسامح
 والإشفاق والرثاء لحال المجنون التي وجدناها في معاملة زوج ليلي له حين سأله
 إذا كان قد ضمها (قبيل الفجر أو قبلَ فأها) .

غير أن القصاصيين لم ينسوا أن ينسبوا للمجنون الأشعار المليئة بالمثل العليا
 والروعة والجمال اللفظي مثل قوله :

الله يعلم أن النفس هالكة
 بالياس منك ولكني أعنيها
 منيتك النفس حتى قد أضربها
 واستيقنت خلفاً بمّا أمنيها
 وساعة منك ألوها وإن قصرت
 أشهى إلى من الدُنْيَا وما فيها

ومن الشعر المنسوب إلى المجنون ما يتضمن الرصانة والمتانة الدالّتين على الروح
 العربية الأصيلة كقولهم عنه :

طربت وشاقتك المحول الدوافع
 غداة دعاً بالبين أسقع تازع
 شجافه نعيماً بالفراق كأنه
 حريب سليب تازح الدار جازع
 فقلت ألا قد بين الأمر فانصرف
 فقد راعنا بالبين قبلك رائع

..

وقد يتنأى الإلف من بعد إلفه
 ويصدع ما بين الخليطين صادع
 وكمن هوى أو خيرة قد ألفتهم
 زماناً فلم يمنعهم البين مانع
 كأنى غداة البين تميت تجوبة
 أخو ظماً سدت عليه المشارع
 تخلّس من أو شال ماء صبابة
 فلا الشرب مبدول ولا هو نافع

ولعل من المفيد تلخيص البحث القيم الذى دوّنه عميد الأدب العربى الدكتور
 طه حسين فى حديث الأربعاء عن شخصية المجنون - ويتركز هذا التلخيص فى
 الاستنتاجات الآتية :

١ - أن هذه الشخصية كانت رمزاً لطائفة من الآراء الأدبية وعذوانا
 لآلوان وضّاحة من ألوان العاطفة وشكلاً خلافاً من أشكال فنون الشعراء فى
 العصر الأموى .

٢ — أن المجنون ليس له شخصية شعرية بارزة في كل شجره وإنما نلاحظ في هذا الشعر بعض شخصيات الشعراء المعروفين أخذ شعرهم وأضيف إلى المجنون .

٣ — أن اسم ليلي كان شائعاً عند العرب في ذلك الوقت مثل اسم « هيلانه » عند اليونان في عصر الأبطال .

٤ — أن هذا المجنون نراه إما فاقد الشعور من الإغماء أو فاقد العقل تأمها في القفار — ورجل هذا شأنه لا يمكن أن يصدر عنه شعر بعضه من المتانة يمكن بل خليق بمستشفى الأمراض العقلية .

واقده أضاف أمير الشعراء أحمد شوقي لبنة كبيرة في كيان تخليد ذكر مجنون ليلي بتأليفه المسرحية الشعرية التي تحكى قصة غرامه العذرى النادر . ولعل أمير الشعراء أراد أن ينافس بهذه المسرحية الرائعة مسرحية شعرية سبقتهما في الشعر الفرنسى هي مسرحية « سيرانو دى برجراك » Cyrano de Bergerac ، التي ألفها الشاعر الفرنسى « أدمون رويستان » Edmond Rostand ، خلال عام ١٨٦٨ م . وفي هذه المسرحية التي تمتد من روائع الشعر الفرنسى يمت بطلها « سيرانو دى برجراك » ، في بعض نواحي حياته بصلة إلى مجنون ليلي — فهو مثله شاعر مغرم لا ينال من حبيبته ما كان يتمنى — وهو مثله يتسلم ويشقى بهذا الحب العذرى الأفلاطونى إلى آخر لحظة من حياته — وهو من النبل بحيث يقدم لمن يعشق (وهى روكسان) الشاب الذى تحبه فى حالة من قوة الشاعرية واتساع الأفق الأدبى وذلك بأن يلقنه الأشعار التى ينظمها فى حب « روكسان » ، التى تجهل أنه يحبها ، والى تخال أن هذه الأشعار الرائعة من نظم حبيبها الشاب الوسيم وليس من نظم « سيرانو » ، الدميم الخلقة الكبير الأنف بشكل مضحك — وإذا كانت شخصية المجنون وهمية فإن شخصية « سيرانو » حقيقية . فقد كان شاعراً فرنسياً من الشعراء الساخرين الما جنين — وقد عاش فى الفترة الواقعة بين عامى ١٦١٩ و ١٦٥٥ م — أى أنه مات وعمره ٣٧ عاماً . وقد نالت مسرحية « سيرانو دى برجراك » شهرة كبيرة وخلدت اسم « سيرانو » بعد أن كاد التاريخ يهمل ذكره على غرار مسرحية مجنون ليلي التى كان لها أثر عميق فى إبراز اسمه لتتسع دائرة تخليده فى إطار تاريخ الأدب العربى على مر الأجيال .

٢ - وضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة في الميزان

كثيراً ما يضع التاريخ على هامشه خطيماً - فإذا ما طواه الموت طويت صفحته على أثره فلا يتردد ذكره على الألسن إلا نادراً كأنه أحد النكرات الذين لم يسهموا في تشييده جانب من الحضارة الإنسانية .

والشاعر الذي أحاول بهذا الحديث إظهار نواحي النبوغ فيه هو وضاح اليمن وأحد هؤلاء المظمورين الذين دون التاريخ أسماؤهم في زاوية من هامشه ليلاقي القارئ عليها نظرة عابرة دون تكبد أى عناء في التعرف على ما تركوا من آثار قيمة في الفنون أو العلوم .

ولقد كان شاعرنا ممن توافرت فيهم صفات النبوغ على الرغم من تجاهل تاريخ الأدب العربي لهذه الصفات - فهو ضليع في لغته متين في تفهم معانيها الدقيقة لدرجة أن أشعاره استشهد بها للدلالة على بعض المترادفات الحويصة التعبير فكلمة « التنويل » على معنى التقبيل أثبت اللغويون صحة ذكرها بالمعنى الأخير ومثلوا لذلك بقول وضاح اليمن:

إذا قلتُ يوماً نَوَّلتُني تبسمتُ

وقالتُ معاذَ اللهِ من فعلٍ مَاحَرُمُ

فما نَوَّلتُ حتى تضرَّعتُ عندها

وأبأْتُها مارتخصَ اللهُ في اللِّمَمِ

وكلمة المحراب على معنى الغرفة استشهدوا على صحتها ببيتها المأجنى في مرماه العذب

في جرسه :

رَبَّةُ محرابٍ إذا جَسَّتْها لم ألقها أو أرتقى سَلَمًا

ولم يترك شاعرنا باباً من أبواب القريض إلا طرقه ولا لوناً من ألوان الشعر إلا نظم فيه فأجاد كل الإجادة .

وإذا كانت الصفتان المميزتان اشعر عمر بن أبي ربيعة هما البراعة في التشبيب وبلوغ الذروة في وصف ما يعرض له من صور أو حوادث فإن وضّاح اليمن لم يكن أقل منه شأنًا في هاتين الناحيتين - فقد شبيب فأحسن ووصف فاتقن لدرجة أن ما وصف يتمثل أمام قارئه صوراً رائعة المنظر صادقة التعبير بهيجة النسق .

وقد يحظر على البال - عندما تاتي المقارنة بين الشاعرين - سؤال لا بد لمن يتخيل ما بلغه عمر بن أبي ربيعة من الشهرة وذيوع الصيت وما بقى عليه وضّاح اليمن من الترك في ركن من أركان النسيان من أن يطرحه على نفسه في كثير من الدهشة - وهو لماذا رُفِعَ بالأول إلى أعلى عليين وزُجَّ بالثاني في حفرة الإهمال السحيقة على حين أن فن كل منهما يكاد يكون واحداً في نزعاته وفي جماله بل وفيما يغذى شاعريته من مشاعر وأحاسيس؟

والجواب عن ذلك فجمده واضحاً في نظم الاجتماع الغريزية التي لم تستطع الأجيال لها تبديلاً على الرغم مما أدخلت على البيئات المتعاقبة من أساليب في مختلف العصور الماضية .

فالدعاية الطنانة كانت وما تزال العامل القوي في تفضيل رجل على رجل ولو كان مستوى إدراكها العقلي في درجة واحدة من الارتقاء .

ومن شرائط نجاح هذه الدعاية الأساسية الجاه ووفرة المال ومكانة الأسرة من البيئة - وفي جاه عمر بن أبي ربيعة وفي غزارة ماله وسمو مكانة أسرته ما شدد أزر هذه الدعاية وجعل حظه منها أكبر بكثير من حظ وضّاح اليمن .

فتاريخ الأدب العربي يقيم من عمر صاحب مدرسة ينتمي إليها العرجي ومن هم على شاكلة العرجي - ويضع الوضّاح في مرتبة الشعراء الثانويين الذين لا نتعرف على جهودهم الأدبية إلاّ من حواشي سيرهم كأنهم أفراد عاديون لم يسهموا في الحركة الفكرية إبان صدر الإسلام بنصيب مثير خلاق .

وأكبر الظن أن تلك الغمرة كان من نتائجها المجحفة أن قذفت بوضّاح اليمن -
 فى القرن الأول الهجرى - إلى شاطئ مجهول لموت بعيداً عن النافخين فى أبواق
 الدعاية فتدفن الرمال فى موجاتها المتلاحقة جسمانه ومعظم آثاره الفكرية -
 وكان أحرى بهذه الآثار أن يضاف كنزها الثمين بأكمله إلى تراث الناطقين بالضاد
 الأدبى مصحوباً بما يستحق من تفصيل وشرح وتقدير .

ولنستعرض فيما يلى بعض أبيات من شعر ابن أبى ربيعة فى التشبيب والوصف
 وبعض أبيات من القليل الذى وصل إلينا من شعر وضّاح اليمن فى هذين اللونين
 من القريض لنقف على أوجه الشبه فى تفكير الشاعرين :

فعمر بن أبى ربيعة شبب بزَيْنَب بنت موسى الجمحية فى قصيدته التى
 يقول فيها :

ألا يا بَكْرُ قد طَرَقَا	خيالٌ هَاجَ لِي الأَرَقَا
لَزَيْنَبَ إِنِّهَا هَمَّى	فكيفَ بِحَبْلَهَا خَلَقَا
تَخَدَّ لَجَّةٌ إِذَا انصَرَمَتْ	رَأَيْتَ وَشَاحَهَا قَلَقَا
وَسَاقًا تَمْلَأُ الخَلَاخَا	لَ فِيهِ تَرَاهُ مُخْتَنِقَا
إِذَا مَا زَيْنَبُ ذُكِرَتْ	تَسْكَبُ الدَّمْعُ مُتَسِقَا
كَأَنَّ سَحَابَةً تَهْمِي	بِمَاءٍ حَمَلَتْ غَدَقَا

وقال وضّاح اليمن يشبب بجارية تدعى حَبَابَةَ شاهدها بالحجاز وسمع
 غناها فأعجب بها إعجاباً شديداً . وكانت حَبَابَةَ من المغنيات الشهيرات فى
 صدر الإسلام مثل سلامة القس وغيرها :

يَا مَنْ لِقَلْبٍ لَا يُطِيعُ الزَّاجِرِينَ وَلَا يُفِيقُ	
تَسْلُو قُلُوبَ ذَوَى الهَوَى	وَهُوَ المَكْلَفُ والمَشْوَقُ
تَبَلَّتْ حَبَابَةُ قَلْبَهُ	بِالدَّلِّ والشَّكْلِ الأَنِيقِ
وَبَعَسِينَ أَحْوَرَ يَرْتَعَى	تَهْقِطُ المَكْثِيبِ مِنَ العَقِيقِ

مَكْحُولَةٌ بِالسَّحَرِ تُنْشِئُ نَشْوَةَ الْخَيْرِ الْعَتِيقِ
 هَيْفَاءُ إِنَّ هِيَ أَقْبَلَتْ لَاحِتَ كَطَالِعَةِ الشُّرُوقِ
 وَالرِّدْفِ مِثْلُ نَقَا تَلْبَسُ دَفْءُ فَهْوٍ زُحْلُوقٍ زَلُوقِ
 دَاوِي هَسَوَى وَأُطْفِئِ مَا فِي الْفُؤَادِ مِنَ الْحَرِيقِ
 وَتَرْفِئِ أَمْسِي فَقَسْدُ كَلَفْتَنِي مَالًا أُطِيقِ
 فِي الْقَلْبِ مِنْكَ جَوَى الْحُسْبِ بِّ وَرَاحَةِ الصَّبِّ الشَّفِيقِ
 هَذَا يَقُودُ بِرُمْتِي قُودًا إِلَيْكَ وَذَا يَسُوقُ
 يَا نَفْسُ قَدْ كَلَفْتَنِي تَعَبَ الْهَوَى مِنْهَا فَذُوقِ
 إِنَّ كُنْتَ تَائِقَةً لِحَرْرٍ صَبَابَةٍ مِنْهَا فَتُوقِ

فالسِّيَاقُ فِي الْقَصِيدَتَيْنِ يَكَادُ يَكُونُ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ - وَالْخِيَالُ مُتَقَارِبُ الْفِكْرِ
 كَأَن مَبْدَعَهُ شَاعِرٌ لَا شَاعِرَانِ - فَعَمَرُ بْنُ أَبِي رِيْعَةَ يَشْكُو لِبُسْكَرِهِ مَا يَلَاقِي مِنْ
 طَيْفِ زَيْنَبٍ مِنَ الْآرَقِ وَهِيَ كُلُّ هَمٍّ فِي الْحَيَاةِ فَكَيْفَ بِهَا تَصْرُمُ حِيلَ وَدَادِهِ ؟
 وَزَيْنَبُ خَدْلُجَةٌ - أَيْ مَكْتَمَةٌ الذَّرَاعَيْنِ وَالسَّاقَيْنِ حَتَّى أَنْ هَاتَيْنِ السَّاقَيْنِ تَحْتَنَقَانِ
 بِالْخِلْجَالِ - وَزَيْنَبُ إِذَا ذَكَرْتَ فَاضَتْ عَيْنَا عَمْرٍ بِالْدمْعِ الْمُنْهَمِرِ عَلَى خَدَيْهِ كَمَا تَهْمِي
 السَّحَابَةُ الْمَغْدُوقَةُ مِنَ الْمَطَرِ .

ووضَّاحُ الْيَمَنِ يَشْكُو مِنْ قَلْبِهِ الَّذِي لَا يَسْلُو حَبَابَةً مَعَ أَنَّهَا أَسْقَمَتُهُ بِالْذَّلِّ
 وَبِسِحْرِ الْعَيْنِ - وَحَبَابَةُ مَحْبُوبَتِهِ هَيْفَاءُ وَفِي رَدْفِهَا مِنَ الْعَظْمِ مَا فِي ذِرَاعِي وَسَاقِي
 زَيْنَبُ فَاتِنَةُ ابْنِ أَبِي رِيْعَةَ مِنَ الْإِمْتَلَاءِ وَالضَّنْخَامَةِ - وَهَذَا هُوَ مَعْيَارُ جَمَالِ أَجْسَامِ
 الْغَوَانِي فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ - وَحَبَابَةُ كَلَفَتْ وَضَّاحُ الْيَمَنِ مَا لَا يَطِيقُ كَمَا جَعَلَتْ زَيْنَبُ
 عَيْنِي عَمْرٍ تَهْمِي بِالْدمْعِ الْمُدْرَارِ .

وَيَسِيرُ الشَّاعِرَانِ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ فِي التَّشْيِيبِ فَيُوهِمَانِ الْقَارِئَ أَنَّ
 الْمُحْصَنَاتِ يَسْعَيْنِ إِلَيْهِمَا وَيُطْلِنِ وَدَّهِيَا وَيَعْجَبِينَ بِهِمَا - وَكُلَا الشَّاعِرَيْنِ يَذْكُرُ
 اسْمَهُ فِي قِصَائِدِهِ الَّتِي مِنْ هَذَا النُّوعِ لِيُثَبِّتَ وَجُودَهُ وَلِيُؤَكِّدَ أَنَّ هُوَلَاءِ الْمُحْصَنَاتِ
 لَمْ يَسْعَيْنِ لغيرِهِ وَإِنَّمَا لَهُ هُوَ بِالذَّاتِ :

فاسمع لابن أبي ربيعة يقول في هذا الباب عن زينب الجحفة :

ما زال طرفي يحارُّ إذْ برزتْ حتى رأيتُ النقصانَ في بصرى
أبصرتها ليلةً ونسوتها يمشينَ بين المقام والحجرِ

...

قدْ فُزْنُ بالحسنِ والجمالِ معاً وفُزْنُ رِسْلاً بالدَّلِّ والخَفَرِ
يُنْصِتُنَّ يوماً لها إذا نطقتْ كيما يُشَرِّقْنَهَا عَلَى البَشَرِ
قَالَتْ لِيَتَرَبَّ لها تُحَدِّثُهَا لِنَفْسِدَنَّ الطَوَافَ فِي عَمَرِ
قُومَى تَصَدِّى لَهُ لِيَعْرِفُنَا ثمْ أغمز به يا أخت في حَفَرِ
قَالَتْ لها قد غمزته فأتاني ثمْ اسْبَطَرْتُ تَسْعَى عَلَى أَدْرِ
مَنْ يُسْقَى بِحَدِّ المَنَامِ رِيْقَتَهَا يُسْقَى بِمِسْكِ وَبَارِدٍ نَخَمَرِ

وينسج وضاح الين على منوال عمر بن أبي ربيعة فيقول :

حَيَّ الَّتِي أَقْصَى فُؤَادِكَ حَلَّتْ
عَلِمْتُ بِأَنَّكَ عَاشِقٌ فَأَذَلَّتْ
وإذا رَأَيْتُكَ تَقْلَقْتُ أَحْشَاؤُهَا
شَوْقاً إِلَيْكَ فَأَكْثَرْتُ وَأَقَلَّتْ
وإذا دَخَلْتَ فَأَغْلَقْتُ أَبْوَابَهَا
عَزَمَ الْغَيُورُ حِجَابَهَا فَأَعْيَلَّتْ
وإذا خَرَجْتَ بَكَتْ عَلَيْكَ صَبَابَةٌ
حَتَّى تَبْلُغَ دُمُوعُهَا مَا بَلَّتْ
إِنْ كُنْتَ يَا وَضَّاحُ ذَرْتَ تَمْرَ حَبَا
رَحُبَّتْ عَلَيْكَ بِلَادُنَا وَأَظَلَّتْ

وما من شك في أن كل منصف لا يتردد في أن يجد في لوني التشبيب المتقدمين
قوة الشاعرية الخصبة في وضّاح اللمن ويلس فيهما عناصر جمال التعبير وعذوبة
الجرس ويحكم عادلاً بأن شاعرنا لا يقل عن ابن أبي ربيعة في روعة الخيال
وحسن الأسلوب مع مرح المجنون الذي هو أحد مميزات نبوغ الشعارين .

أما الشعر الوصفى فالشاعران لهما طريقة بارعة في عرض صورة واضحة
في رسمها جلية في تكوينها مكتملة في إطارها ولو ذهبنا في سبيل ذلك إلى أبعد حد
من الخلاعة .

فالوضّاح يصف ليلة من ليالي لوه مع روضة بنت عمرو التي أحبها وهام
بها - فتأتى قصيدته وكأنها لوحة زاهية رسمتها ريشة رسام ماهر فيقول :

أَغْنَى عَلَى بَيْضَاءَ تَفْتَرُّ عَنْ بَرْدٍ

وَتَمْشِي عَلَى هَوْنٍ كَشِيَةِ ذِي الْحَرْدِ

وَتَلْبَسُ مِنْ بَزِّ الْعِرَاقِ مَنَا صَفَاً

وَأَبْرَادَ عَصَبٍ مِنْ مُهْلَمَلَةٍ الْجَنَدِ

إِذَا قُلْتُ يَوْمًا نَوَّلْنِي تَبَسَّمَتِ

وَقَالَتْ لَعَمْرُ اللَّهِ لَوْ أَنَّهُ اقْتَصَدَ

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ بِعَلَّهَا

وَقَدْ وَسَّدَتْهُ الْكَفَ فِي لَيْلَةِ الصَّرْدِ

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ أَهْلًا وَمَرْحَبًا

سَتُعْطَى الَّذِي تَهْوَى عَلَى رَغْمٍ مِنْ حَسَدِ

أَلَسْتَ تَرَى مِنْ حَوْلِنَا مِنْ عَدَوِّنَا

وَكُلَّ غَلَامٍ شَامَخِ الْأَنْفِ قَدْ مَرَدَ ؟

فَقُلْتُ لَهَا إِنِّي أَمْرٌ فَأَعْلَمِينَنِي

إِذَا مَا أَخَذْتُ السَّيْفَ لَمْ أَحْفَلِ الْعَدَدِ

بني لي إسماعيلُ جِداً مؤثلاً
وَعَبْدُ كلالٍ قَبْلَهُ وأبو حَمْدُ
تُطِيفُ عَلَيْنَا قَهْوَةٌ في زجاجةٍ
تريكِ جَنانَ القومِ أَمْضَى من الأسدِ
فينبئني له عمر بن أبي ربيعة ليريه آية من شعره الوصفى في لوحة جميلة
تبين موقفاً من مواقف الغرامية العديدة التي تضرب بصراحتها ومجونها الأمثال
فيقول :

جَرَى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينها
فَقَرَّبَتْنِي يومَ الحِصَابِ إلى قَتلى
فَطَارَتْ بِحَدٍّ مِنْ فَوَادى وَقَارَتِ
قَرِينَتُهَا حبلَ الصَّفَاءِ إلى حَبْلى
فلَمَّا تَوَاقَفْنَا عَرَفْتُ الذى بها
كَمَلِ الذى بى حَدُّوكَ النعلَ بالنعلِ
فَقُلْنَ لَهَا هَذَا عِشَامُ وَأَهْلُنَا
قَرِيبٌ أَلَمَّا تَسَامَى مَرْكَبَ البَغْلِ ؟
فَقَالَتْ فَمَا شَتْنٌ قُلْنَا لَهَا انزلى
فَلَلْأَرْضُ خَيْرٌ مِنْ وَقُوفٍ عَلَى رَحْلِ
نَجْسٍ دَرَارَى تَكْنَفُنْ صُورَةَ
من البدرِ وَاقْتِ غَيْرُ هُوجٍ وَلَا عَجَلِ
فَسَأَلْتُ وَاسْتَأْنَسْتُ خِيفَةً أَنْ يَرَى
عَدُوٌّ مَقَامى أَوْ يَرى كَاشِحٌ فَعَلِ
فَقَالَتْ وَأَرْخَتِ جَانِبَ الْيَسْتَرِ إِنَّمَا
مَعِى فَتَكَلَّمْ غَيْرَ ذى رِقْبَةٍ أَهْلِ

فقلتُ لها ما بي لهم من ترقب
ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا
وهن طيبات بحاجة ذى الشكل
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا
نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل
فقلت فلا تلبثن قلن تحدثى
أتيناك - وانسبن انسياب مهب الرمل
فقمن وقد أفتمن ذا اللب إنما
أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى

هذا هو الشاعر وضاح اليمن فى مقابلة عمر بن أبى ربيعة وكان من الإنصاف أن يُعرف مقداره الأدبى فى ناحيتين من نواحي القريض مع مقارنة هذا المقدار بما ارتفع إليه أحد فحول الشعراء فى صدر الإسلام للدلالة على أن شاعرنا لم يكن نكرة - وكل ما فى الأمر أنه كان مطموراً - ولم يكن خاملاً وإنما لم تنح له الفرص المواتية والدعاية الطنانة الكافية ليستطيع عرض إنتاجه الفكري القوى وشعره الجزل فى سوق الأدب ومعارض التاريخ عرضاً مستفيضاً يتفق وما يجب أن يكون له من تقدير سليم بعيد عن شوشرة الدعايات والتهويل - وسيوضح من تحليل وعرض ما نظم وضاح اليمن من قصائد فى أنواع الشعر الأخرى أن حظه من هذا التقدير فى عالم الأدب لم يكن إلا قليلاً شحيح المقدار .

ولنبداً الآن فى تقديمه إلى من يجهلون سيرته بذكر أخباره التى تدل على نسبه وما وقع له من أحداث طوال حياته .

فهو - كما نسبه صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني - سيد الرحمن ابن إسماعيل بن كلال - ووضاح لقب غلب عليه لجماله وبهائه - ويختلف فى تحقيق هذا النسب : فيقول قوم إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع وهرز

لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة - ويؤمن آخرون أنه من آل خولان
ابن عمرو بن قيس بن معاذ بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث وينتهي نسبه
إلى المرءف بن قحطان .

ومن ذكروا أنه حميرى خالد بن كلثوم إذ قال : - « كان وضّاح اليمن من
أجل العرب وكان أبوه إسماعيل بن كلال بن داؤد من آل خولان بن عمرو
ابن معاوية الحميرى - فمات أبوه وهو طفل فانتقلت أمه إلى أهلها وانقضت عدتها
فتزوجت رجلاً من أهلها من أولاد الفرس - وشب وضّاح في حجر زوج أمه -
فجاء عمه وجدته أم أبيه ومعهما جماعة من أهل بيته من حمير يطلبونه - فادعى
زوج أمه أنه ولده - فحاكود فيه وأقاموا البيعة أنه ولد على فراش إسماعيل
بن كلال أبيه - فحكم به الحاكم إليهم ومسح يده على رأسه وأعجبه جماله وقال له :
إذهب فأنت وضّاح اليمن لا من أتباع ذى يزن فعلمت به هذه الكلمة منذ يومئذ
فلقب وضّاح اليمن ،

ومن زعموا أنه من أبناء الفرس ابن الكلبي ومحمد بن زياد السكلابي .

وكان وضّاح اليمن والمقنع الكندى وأبو زيد الطائى يردون مواسم
العرب مقنعين يسترون وجوههم خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء
لجملهم ١١

ولم تذكر المراجع التي أمكن الاطلاع عليها لتحقيق أخبار سيرته تاريخ ميلاده
ولو على وجه التقريب .

وليس من شك في أن الروايات التي تدعى أن هذا الشاعر ليس له وجود
وأن سيرته محض أسطورة لا تقوم على أسس متينة من الحقائق التاريخية التي
يركن إلى صحتها في غير تردد - إذ أن الروايات التي تناقلت سيرة حياته والكثير
من أشعاره الذي وصل إلينا ورجال السند الذين ذكروا تفاصيل هذه السيرة
وهذه الأشعار لا تدع مجالاً للشك في وجوده وفي صحة معظم أخباره خصوصاً
وأنه كان معاصراً لطائفة كبيرة من الشعراء الذين عاشوا في صدر الإسلام

وجاء ذكره في سير عدد من هؤلاء الشعراء عندما تعرض الرواة والمؤرخون لتدوين هذه السير في كتبهم وفيما يُروى عنهم .

والخلاف في نسبه لا ينهض دليلاً على الشك في وجوده كشاعر فحل من شعراء صدر الإسلام ولا سيما أن هذه المراجع التي تختلف في حقيقة نسبه تجمع على تحديد تاريخ وفاته في العشر السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجري .

والمصدر الوحيد الذي لا يمكن أن يتطرق الشك إلى صدق سنده والذي يعين السنة التي مات خلالها وضّاح اليمن هو النجوم الزاهرة لابن تغري بردى - فقد ذكر صاحب هذا المصدر التاريخي الموثوق في صحته ما يلي عند سرده وفيات عام ٩٣ الهجري (٧١١ م) :- وفيها أى في تلك السنة - توفي وضّاح اليمن - واسمه عبدالله بن إسماعيل بن عبد كلال - كان من أهل صنعاء من الأنبار وقيل : اسمه عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال - ووضّاح اليمن لقب له لجمال وجهه - وهو صاحب القصة مع أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك بن مروان التي ذكرها بن خلد - كان في تاريخه ،

ويقيني هو أن كل هذه الروايات مجتمعة تبعد كل شك في وجوده شاعراً من شعراء الأندلس .

وكان الوضّاح يهوى امرأة من أهل اليمن - وقيل من بنات الفرس - تدعى روضة بنت عمرو من ولد فرعان ذي الدروع السكندى - وقد ذهبت به كل مذهب وخطبها فامتنع قومها من تزويجه إياها وعاتبه أهلها وعشيرته فقال في ذلك :

يا أيها القلبُ بعضَ ما تجددُ	قد يعشقُ المرءُ ثمَّ يتَّشددُ
قد يكتمُ المرءُ حُبَّه حَقَباً	وهوَ عَمِيدٌ وَقَلْبُهُ كَمِيدٌ
ماذا تُريدُ من فتى غَزَلٍ	قد شَفَّهَ السُّقْمُ وَالسَّهَدُ
يَهْدِدُونِي كَسِياً أَخَافَهُمُو	هَيْهَاتَ أَنَّى يَهْدِدُ الْأَسَدُ

وقال في روضته هذه بعد أن زوجت غيره :

ياقلبُ وَيَحَاكَ لَا يَذْهَبُ بِكَ الْحُرْقُ
 إِنَّ الْإِلَى كُنْتَ تَهْوَاهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا
 مَتَابِ لَهُمْ لَمْ يُبَالُوا إِذْ هَجَرْتَهُمْ
 وَأَنْتَ مِنْ هَجَرِهِمْ قَدْ كُنْتَ تَحْتَرِقُ

وقال في تباريح الشوق الذي كان يملأ قلبه إليها :

يَارَوْضَةَ الْوَضَّاحِ قَدْ عَنَيْتِ وَضَّاحَ الْيَمَنِ
 فَتَأْسَيْتِ خَلِيكَ مِنْ شَرِّ بٍ لَمْ يَكْدُرْهُ الدُّرُ
 الرِّيحُ رِيحُ سَفَرٍ جَلٍ وَالطَّعْمُ طَعْمُ سُلَافٍ دَنْ

وعندما حمل إلى الوليد بن عبد الملك بالشام هاجه الحنين إلى روضته المعبودة
 فأنشد يقول :

أَبَتْ بِالشَّامِ نَفْسِي أَنْ تَطِيَّبَا
 تَذَكَّرْتُ الْمَنَازِلَ وَالْحَبِيَّاتَا
 أَلَا لَيْتَ الرِّيحَ لَنَا رَسُولُ
 إِلَيْكُمْ إِنْ شِمَالاً أَوْ جَنُوبَا
 فَتَأْتِيكُمْ بِمَا قَلْنَا سَرِيعَا
 وَيَبْلُغُنَا الَّذِي قَلَّمْ قَرِيبَا
 أَلَا يَارَوْضُ قَدْ عَذَّبْتَ قَلْبِي
 فَأَصْبَحَ مِنْ تَذَكَّرِكُمْ كَثِيرَا
 وَرَقَّتْ نَفْسِي هَوَاكَ وَكُنْتُ جَلْدَا
 وَأَبْشَدَى فِي مَقَارِقِ الْمَشِيِّتَا

وناجى طيفها في غربته وقد كوى لهيب الفراق وجدانه فقال :

طريق الخيال فرحياً سهلاً بخيال من أهدى لنا الوصل
وتسرى إلى ودون منزله خمس دراهم تعمل الإبل
يا حبة من زار معتسفاً حزن البلاد إلى والسهل
حتى ألم بنات قبت به أغنى الخلاق كلمهم شلاً
والله مالى عنك منصرف إلا إليك فأجمل الفعلا

وفى النماذج المقدمة من الشعر الغزلى الرقيق المتقن ما يبرهن فى وضوح على
أن شاعرنا وضاح اليمن كان من كبار شعراء عصره .

ولم يبق الدهر على جمال روضة وبهاثها ليكون للوضاح فيهما بعض السلى
والتغنى بما ضا من محاسن ورونق - فأصيبت بعد زواجها من غيره بداء الجزام
ويقول بعد الرواة إن الوضاح كان على سفر مع أصحابه وبينما هو يسير استوقفهم
وعدل عنهم ساعة ثم عاد وهو يبكي وقال إنه عدل إلى روضة فوجدتها جذمت
وأخرجت من بلدها فأصلح من شأنها وأعطاهما جزءاً من نفقته - وهكذا قدر
لشاعرنا أن يرى بعينه مصدر وحيه وإلهامه وقد حطم الداء الويل تمثاله الرائع
بمحوه الفتاك المدمر بعد أن كان ملاذه الذى يلجأ إليه كلبا أنشب الفراق والإخفاق
فى الغرام أنيابهما فى قلبه العانى .

لما أسامت إليه الدعاية المخرضة فى شهرته وذيعوع صيته أسامت إليه
الدعاية الكاذبة فى سيرته كرجل يحافظ على كرامته ويحرص كل الحرص على أن
يبادل من تعهدوه برعايتهم وعطفهم إحساناً بإحسان .

فهذه الدعاية الكاذبة التى شنّها العباسيون على الأمويين لينالوا من سمعتهم
ولييطعنوا فى عقيدتهم الدينية وفى عروضهم لأسباب سياسية كان من نتائجها
المباشرة سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية على أنقاضها المقوضّة عام
١٣٣ هـ (٧٥٠ م) - هذه الدعاية عيّنّا أقامت من وضاح اليمن عريداً فاجراً
ينذهب فى بحونه المتطرف إلى حد التشذيب بزوجة الخليفة الأموى الوليد بن
عبد الملك الذى دام حكمه من عام ٨٧ إلى ٩٧ هـ (٧٠٥ - ٧١٥ م) والذى على

أيامه بلغت الأمبراطورية العربية العربية أوج عزها - كما جعلت منه مستهتراً بكل القيم الأخلاقية فيتخذ من هذه السيدة الحسبية النسبية خلية مسرفة في نزقها مستهينة بشرفها وشرف أمرتها العريقة في المجد والسودد .

وقبل أن أتناول أقوال هؤلاء الرواة بالتسفيه وأقيم الحجة على بعد ما ذهبوا إليه عن الحقيقة أجد من الملائم سرد رواياتهم على علاتها لتبين مواضع الضعف فيها وذلك من سياقها نفسه .

فقد روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الآغانى» عن محمد بن خلف بن المرزبان عن القاسم بن الحسن المروزي عن الحمري عن لقيط والهيثم بن عدي أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان (وهي أخت الخليفة التقى الورع العادل عمر بن عبد العزيز) استأذنت زوجها الوليد بن عبد الملك وهو خليفة في الحج فأذن لها فقدمت مكة ومعها من الجوارى ما لم ير مثله حسناً - وكتب الوليد وتوعد الشعراء جميعاً إذا ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن تبعها .

وقدمت فترامت للناس - وتصدى لها أهل الغزل والشعراء ووقعت عينها على وضّاح اليمن فهويته ١١

وروى صاحب الآغانى أيضاً عن الحرّمى بن أبى العلاء عن الزبير بن بكتّار عن جعفر مولى أبى هريرة عن أبيه عن بديح: «أن أم البنين قدمت حاجة وهي عند الوليد بن عبد الملك وهو خائفة - فبعثت إلى كثير عزّة وإلى وضّاح اليمن أن انسباني - فأما وضّاح اليمن فإنه ذكرها وصرح بالنسب بها فوجد الوليد عليه السبيل فقتله - وأما كثير فعُدل عن ذكرها ونسب جاريتها غاضرة»

ويقول بديح - الذى جعله صاحب الآغانى فى الرواية الثانية سنده الأصيل - «إن عبید الله بن قیس الرقیات علق بأم البنین حين رآها تحج فقال فيها شعراً بعد أن حذر بديحا هذا من إباحة سره» :

أَصَحَّـوَتْ عَنْ أُمِّ الْبَنِي وَذَكَرَهَا وَعَنَّاها
 وَهَجَرَتْهَا هَجَرَ امْرِئٍ لَمْ يَقْلُ صَفْوَةً صَفَاءُها
 قُرْشِيَّةٌ كَالشَّمْسِ أَشْرَقَ نَوْرُها بِيَمَانِها
 زَادَتْ عَلَى الْبَيْضِ الْحَسَّانِ بِحُسْنِها وَنَقَائِها
 لَمَّا اسْتَبَكَّرَتْ لِلشَّبَابِ وَقُنَّعَتْ بِرَدَائِها
 لَمْ تَلْتَفِتْ لِإِدَائِها وَمَضَتْ عَلَى غُلُوَائِها
 لَوْلَا هَوَى أُمِّ الْبَنِي وَحَاجَتِي لِلْقَائِها
 قَدْ قَرَّبَتْ لِي بَخْلَةً مَحْبُوسَةً لِنَجَائِها

أما الحرمي فيقول إن أم البنين لما جاءت مكة حاجة أرسلت إلى وضّاح اليمن وإلى ابن قيس الرقيات (وليس إلى كثير عزّة) - كما جاء في رواية لقيط والهيثم بن عديّ المتقدمة الذكر - أن انسباني - فهاب قيس الرقيات ونسب بجاريتهما غاضرة - وأما وضّاح اليمن فنسب فباع ذاك الوليد فطلبه فقتله .

وليس من العسير تفنيد هذه الروايات المتناقضة في كيانها لإظهار كذبها وبهتانها وذلك بالاستنتاجات المنطقية التالية :

أولا - أن أبا الفرج الأصفهاني من أخصّ الأوفياء للعباسيين وقد ألف كتابه الموسوعي « الأغاني » في عهدهم وراجع الأصوات المختارة المثة في كتابه الخليفة الواثق وكان الخليفة هارون الرشيد هو الذي اختار هذه الأصوات - ولا يستبعد أن يكون أبو الفرج قد اختار الروايات التي تنسب الفجور والاستهتار بالشرف إلى أم البنين ليرضى نزعة العباسيين إلى الخط من شأن بني أمية بعد أن دالت دولتهم - وكان وضّاح اليمن هو كبش الضحية التي تقدم قرباناً لحبك رواية أم البنين بأن ينسب إليه المجون المتطرف والدعارة الجامحة وخيانة الخليفة عبد الملك الذي أحسن إليه واکرمه .

ثانياً — أن تناقض هذه الروايات، الواضح يهدمها من أساسها ويبعدها عن الحقيقة التاريخية كل البعد .

ثالثاً — أنه ليس من المعقول أو المقبول منطقياً أن سيدة فاضلة مثل أم البنين — بنت عبد العزيز بن مروان وشقيقة عمر بن عبد العزيز — تبذل للرجة أنها تدعو وضّاح اليمن وكثير — في رواية — ووضّاح اليمن وقيس الرقات في رواية أخرى — للتشبيب بها وهي تؤدي فريضة الحج وتخاصم إلى الله في بيته الحرام .

رابعاً — أن يخالف الشعراء في مكة أوامر الخليفة المشددة ويذكروا أم البنين في شعرهم جهاراً دون أن يبادر عامل الخليفة على مكة إلى إنزال العقاب الصارم بهم .

خامساً — ألا يكون في موكب أم البنين حرس كبير من الرجال الأشداء يمنع وقوع مثل هذا الاستهتار من جانب الشعراء إذا أقدموا عليه .

سادساً — أن الأشعار المنسوبة لعبيد الله بن قيس الرقيات لا يستبعد أن تكون من نظم أحد شعراء العباسيين لحبائك الرواية التي تحيط من شأن أم البنين وتعرض شرفها وعرضها للقول الفاحش — ولا يستبعد أيضاً أن يكون ناظمها هو أبو الفرج الأصفهاني نفسه لإضفاء ثوب الزيف البراق على حقيقة الأمر لطمسها لإرضاء لبني العباس .

هذا ما استطاع استنتاجه من أقوال الرواة على النحو المدون قبل — ولعل هذا الاستنتاج يقنع القارئ الحصيف بأن هذه الأقوال مختلفة وكاذبة في جملتها وتفصيلها .

ولأتطرق الآن إلى سرد حكاية قتل وضّاح اليمن كما يرويها صاحب الأغاني، نقلاً عن خالد بن كلثوم وهي تلخص في الآتي :

وكان وضّاح اليمن قد شبيب بأم البنين وهي أم عبد العزيز بن الوليد والشرف

فيهم - فبلغ الوليد تشييبه بها فأمر بطلبه فأتى به فأمر بقتله - فقال له ابنه عبد العزيز : لا تفعل يا أمير المؤمنين فتحقق قوله - ولكن افعل به كما فعل معاوية بابي دهميل فإنه لما شبب بابنته شكاه يزيد وسأله أن يقتله فقال : إذن تحقق قوله - ولكن تبرد وتحسن إليه فيستحي ويكف ويكذب نفسه ،

« فلم يقبل الوليد من ابنه عبد العزيز هذا الحل - وجعل وضاح اليمن في صندوق ودفنه حياً . »

« وقد وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية وبين رجل من ولد الوليد فنخار» خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابقة وذلك في دولة بني العباس . فوضع الشعوبي عليهم كتاباً زعم فيه أن أم البنين عشقت وضاحاً فكانت تدخله صندوقاً عندها - فوقف على ذلك خادم الوليد فأنهاه إليه وأراه الصندوق فأخذه فدفنه ،

وروى علي بن سليمان الأخفش في كتاب « المختارين » عن السكري عن محمد ابن حبيب عن الكلبي : « أن أم البنين عشقت وضاحاً فكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقم عندها - فإذا خافت وارتته في صندوق عندها وأقفلت عليه - فأهدى للوليد جوهر له قيمة فأعجبه فدعا خادماً له فبعث به معه إلى أم البنين وقال :

« قل لها إن هذا الجوهر أعجبني فأثرتك به » - فدخل الخادم عليها فجأة ووضاح عندها - فأدخلته الصندوق وهو يرى قادی إليها الرسالة ودفع إليها الجوهر وقال : « يا مولاتي هبيني منه حجراً - فقالت لا يا ابن الخنى ولا كرامة - فرجع إلى الوليد فأخبره - فقال كذبت يا ابن الخنى وأمر به فقتل - ثم لبس نعليه ودخل على أم البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط وقد وصف له الخادم الصندوق الذي أدخلته فيه . فجلس عليه ثم قال لها : « يا أم البنين ما أحب إليك هذا البيت من بين بيوتك فلم تختارينه - فقالت : « أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجي كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب - فقال لها : « هي لي صندوقاً من هذه الصناديق قالت : « كلها لك يا أمير المؤمنين . قال : « هذا الذي جلست عليه - قالت : « خذ غيره فإن لي فيه أشياء أحتاج إليها - قال : « ما أريد غيره - قالت : « خذه يا أمير المؤمنين . »

« فدعا بالخدم وأمرهم بحمله حتى انتهى إلى مجلسه فوضعه به - ثم دعا عبيداً له فأمرهم بحفر بئر في المجلس عميقة فنُحِثَ البساط - حُفرت إلى الماء - ثم دعا بالصندوق فقال :- يا هذا إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كُفِّنَّاكَ ودَفَنَّا ذَكَرَكَ وقطعنا أثرَكَ إلى آخر الدهر - وإن كان باطلاً فإننا دفعنا الخشب وما أهون ذلك - ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب ولم يُر بعد ذلك وضَّاح اليمن في الدنيا » .

ونظرة مدققة يلقيا الناقد المنصف على هاتين الروایتين المختلفتي السند تجعله يؤمن عن عقيدة راسخة بأنهما مختلفتان من ألفهما إلى يائهما وأن مصدرهما الاصيل هو ذلك الشعوبي الخبيث الذي فاخره أحد أحفاد الوليد بن عبد الملك فانتصر عليه فصمم على الانتقام منه بالطعن الفاحش في عرض إحدى جداته أم البنين بكتاب ألفه - وتلقفته الدعاية العباسية في لطف وغبطة وخصته بأوسع مدى من النشر وتلقفه الرواة الموالين لبني العباس في سرور وأعطوه أوفر قسط من انتاج خيالهم الشرير .

وليست المسألة مقصورة على روايات كاذبة قصد بها النيل من شرف امرأة أحببت شاعراً نثر عليها من الكرام دون دحضها بالبراهين الدامغة - وإنما مسألة هامة تتعلق بناحية تاريخية يجب إثبات اختلاقها الدنيء دفاعاً عن سيده من فضليات نساء العرب في الحقبة الأولى من البصر الإسلامي ودفاعاً عن سلسلة متعاقبة الحلقات من خلفاء الدولة الإسلامية في فجر ظهورها وهي الدولة الأموية التي كان لها أكبر الفضل في الفتوحات وأقوى الأثر في نشر الحضارة الشرقية في العهد الأول للإسلام ولا سيما في عهد الوليد بن عبد الملك الذي وطد دعائم الإمبراطورية العربية وانتصر قواده على البوزنطيين (الروم) وبلخوا بلاد القفقاس والمغرب وصقليا وإسبانيا - وفي الشرق فتح قتيبة بن مسلم بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة وتشكنت وبلغ حدود الصين بينما كان محمد بن قاسم يفتح بلاد الهند .

وقبل إقامة الأدلة التي لا تقبل الشك على بهتان هذه الفرية السافلة يجدر تفنيده الروايات المتقدمة الذكر لتبيان تناقضها وبتدها عن العقل والمنطق .

ففي رواية لقيط والهيثم بن عدي نجد أم البنين تعشق وضَّاح بمجرد أن

تراه ودون أن تعباً بأوامر الخليفة زوجها الذى حرم على الشعراء الاقتراب منها والتشبيب حتى بجواربها - وكأنها بذلك الوصف إحدى هؤلاء النساء الطائشات اللاتي لا يقمن للشرف وزناً حتى ولو كن فى حى بيت الله الحرام - فتترامى للناس وتطلب التشبيب بها فى غير حشمة .

وفى رواية بُدِيح بن عبد الله بن النخعي تبعث إلى الوضّاح وإلى كثيرٍ عزّة أن النسباني فيفعل الوضّاح وينسب كثيرٌ بجاريته غاضرة - ثم يأتي الحرمي ويقول إنها أرسلت إلى وضّاح وإلى ابن قيس الرقيات فيفعل وضّاح وينسب ابن قيس الرقيات بجاريته غاضرة - وفى هذا التناقض ما يقطع بكذب الروایتين معاً - ومن ناحية أخرى لا يستطيع العقل أن يصدق فى سهولة أن امرأة أمير المؤمنين تأتي حاجة وفى ركبها حرس قوى وقد سبقتها أوامر الخليفة المشددة إلى عامله على مكة إلى حد أن تبعث إلى وضّاح اليمن وإلى كثيرٍ أو ابن قيس الرقيات ليقولوا فيها النسب ضاربة بأوامر زوجها عرض الحائط ومخاطرة فى نزع واستتار بشرفها وشرف أسرته الكريمة فى غفلة من رجال حرسها الأقوياء الساهرين .

وإن كانت بين الروايات المختلفة رواية فيها ظل خافت من الحقيقة فهى تلك التى تعزى إلى خالد بن كاشوم الذى أمار اللثام على جليلة الأمر بما وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية وبين رجل من ولد الوليد من فخار أدى إلى الكتاب الذى وضعه هذا الشعوبى وضمنه حكاية قتل وضّاح اليمن على الصورة الخيالية التى أتيت على تفصيلاتها .

وفى عناصر هذه الحكاية بالذات كل البراهين التى تقطع باختلاقها فى غير لباس - فأم البنين فى سياقها تتمثل لنا حمقاء تطلع خادمها على خليلها وتضعه فى الصندوق أمامه وتزجره وتهينه بدلاً من أن تسترضيه ليغض الطرف عن خيانتها الزوجية - ويتمثل لنا الخليفة الوليد أرعن مغفلاً فيأتى بالصندوق الذى يضم وضّاح اليمن حتى ينتهى إلى مجلسه ويدفنه حياً على مرأى من رجال بلاطه دون مبالاة بما يترتب على ذلك من افتضاح أمر زوجته وتلوّث عرضها . وكنا الصورتين لا تحتاج

إلى أى عناء لاثبات ما اشتملت عليه من زيف مشوه واختلاق واضح يقومان
دليلاً لا يقبل الشك على كذبهما .

ولنعرض الآن لما كان عليه الوليد بن عبد الملك من أخلاق وصفات لنتبين ما إذا
كان تساهله فيما يتصل بشرفه وعرضه على النحو الذى ادعاه الرواة عن أم البنين
يتفق وما سطره التاريخ المأثور بالنسبة إلى هذه الأخلاق والصفات أو يتعارض
معها كل التعارض .

فابن الأثير يحدثنا عن هذا الخليفة الأموى فى كتابه « الكامل » ، فيقول
« إنه ولى الخلافة عام ٨٦ هجرية فصعد على المنبر واجتمع إليه الناس فخطبهم
قائلاً : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله المستعان على مصيبتنا لموت أمير المؤمنين ،
والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة : فقوموا وبايعوا » - ويختتم ابن الأثير
هذه الكلمة بقوله إن الوليد كان أول من عزى نفسه وهناها من الخلفاء !!

فهل فى شدة بأس هذا الحاكم المستبد المتكبر ما يدعو إلى الظن فى أنه كان
سهل القياد يرضى بأن تفعل زوجته ما افتراه عليها الرواة دون أن يطيح برأسها
لمجرد الشك أو الشبهة وقبل أن تلتطخ سمعته وسمعة أسرة بنى مروان بالعار ولاسيما
أنها بنت عمه ؟

وكان من كبريائه المتطرفة وتعاليه أن حج بالناس عام ٩١ الهجرى فخطب
الخطبة الأولى فى يوم الجمعة وهو جالس - وكان من جبروته وقبضه على زمام
الحكم بيد من حديد باطشة لا تعرف المهادنة أن اختار ولاته من بين الطغاة
الجبابرة الذين قال فيهم عمر بن العزيز قبل توليه الخلافة : « الحجاج بالعراق -
والوليد (أى الخليفة) بالشام وقرّة بن شريك بمصر وعثمان بن حيان بالمدينة
وخالد بن عبد الله بمكة - اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فادحاً » - فإين
كان الجبار خالد بن عبد الله حين تجرأ الشعراء وشيخوا بأم البنين فى مكة ؟

ويقول ابن الأثير إن الوليد خطب الناس فقال : « أيها الناس - أيكم

بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع العاصي - أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه - ومن سكت مات بدائه - ثم نزل وكان جباراً عنيداً، وهذه الصفات لا تستقيم في ملك يريد الزور والإفك أن يجعل منه ضعيفاً فاقدر النخوة والرجولة ولا يعرف ما يجري في مخدع زوجته .

ومن الغريب حقاً أن يكون هذا الخليفة الذي يتهم في عرضه دون أن يشور لشرفه في غضب ما حق هو ذلك الرجل نفسه الذي أغضبه دخول المخنثين بالمدينة على النساء لفتنتهن فيامر عامله ابن حزم الأنصاري بأن يخصيهم جميعاً وفيهم الدلال - والغريض - وابن عائشة ومن إليهم - وأغضبه شنوذ الشاعر الأحوص الخلقى فأمر عامله بجلده مائة جلدة وصبَّ الزيت على رأسه ووضعه في البئس (أى الغرائر الكبيرة)

وبعد كل ما تقدم يقال في جرأة نادرة إنه كان من الضعف بحيث لم يقدر على صون بيته من أن تدب فيه قدم تدنس طهره ١١

ولم يكن الجبروت والقسوة والأخذ بالشدة كل صفاته إذ كان إلى جانب ذلك خليفة مصلحاً - بنى المساجد وأمر بإنشاء الطرق في جميع أطراف إمبراطوريته وبحفز الآبار العديدة في كل مكان - ومنع المجذومين من الخروج على الناس وأجرى عليهم الأرزاق - وفي عهده كان الوالى على بلاد المغرب موسى بن نصير وطارق بن زياد قائده - وقد أعطى كل مُقْعَدَ خادماً وكل ضرير قائداً وفتح الأندلس والهند .

وكان لحنّانا لا يحسن النحو دميّا يتبختر في مشيته سائل الأنف جداً - وهذا النقص إذا اجتمعت عناصره في رجل يملك السلطة المطلقة ضاعفت من الغيرة التي تلازم المحروم من جمال الخلقة وتجعله شديد الحرص على عرضه يشور في وحشية تجرف كل شيء أمامها إذا خالجه أى ظل من الشك في نقاء فراشه .

هذا هو الوليد بن عبد الملك الذي تقيم منه الدعاية العباسية وأبواقها من

المرتزة والنفعيين والمنافقين خليفة خاملاً خائراً العزيمة فاقد النخوة تعشق زوجته وضاح الين فيقنع بدين أحد صناديقها انتقاماً لعرضه الملبوس - وهو بما دون قبل ملك ذو شكيمة جبروتية وعزيمة لاتين وغضب يمحو كل ما يعترض سبيله إذا ثار وزجر .

أما زوجته أم البنين فالنار يخ المأثور يقدمها لنا نقيه صالحة في إطار وقور يتفق وماله من عظمة وطيب الأرومة وسامق النسب والحسب . فهي قوية العطف والشفقة تطلب العفو عن عبد الله بن قيس الرقيات من والد زوجها الخليفة عبد الملك بن مروان - وكانت ذات دالة كبيرة عليه لما زالت به حتى عني عن الشاعر وحققت رجاء أبيها عبد العزيز بن مروان وعبد الله بن جعفر في الشفاعة لهذا الشاعر - وبعد ذلك يفتري الرواة عليها ويقولون إن بن قيس الرقيات الذي أحسنت إياه ونجته من الموت - تحقيقاً لرجاء والدها - قد شيب بها وفضحها بقصيدته الآنف الذكر - وكانت هذه السيدة الفاضلة - أخت الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وحفيدة عمر بن الخطاب أحد الخلفاء الراشدين الأربعة - محسنة سبابة لفعل الخير ساعية في تحقيقه - فقد أدخلت الثريا بنت علي بن عبد الله التي استخف بها عمر بن ابن أبي ربيعة وهي في عنفوان شبابها وجمالها وكانت تضع الخواتم في أصابعها العشرة فضربته بظاهر كفها فأصابته الخواتم ثنيتين العليين وكادت تقلعها ولم يفلح علاجها واسودتا وعييره الشعراء بهما - والثريا هي زوجة سهيل الذي قيل فيه وفيها :

أيها المنكحُ الثريا سهيلاً عمرُك الله كيف يلتقيان
هي شاميةٌ إذا ما استقلتُ وهو إذا ما استقلَّ يمان

أقول أدخلت المحسنة أم البنين الثريا هذه على زوجها وكانت قد كبرت وأعوذتها الحاجة وما زالت به حتى قضى حاجتها وأغدق عليها العطاء .

وسيدة هذا بعض ما تتحلى به من خصال حميدة لا يعقل أنها تقدم في رعونة وطيش على بيع شرفها الغالي دون مبالاة على النحو الذي وصفته الدعاية العباسية المغرضة .

ولعل من المفيد التنويه في هذا المقام بالمقال الذي كتبه المستشرق هـ ليسفي

بروفنسال ، في دائرة المعارف الإسلامية عن بني أمية لإثبات أن هذه الدعاية كانت قوية هدامة إلى أبعد مدى - فقد جاء بالمقال الأنف الذكر - وأنه إذا كانت التواريخ التي كتبت بعد سقوط دولتهم والتي كان أصحابها متأثرين بالآراء السائدة بين أهل التقى تقرن ذكر الأمويين بالسخط واللعنة - فينبغي ألا ننسى حقيقة لا ريب فيها هي أن الإسلام إنما توطئت أركانه ديناً تدين به الأمم في أيام حكمهم وكان بعض ذلك بتأثيرهم - على أن التاريخ الذي تغلب عليه روح الدين والذي أصبح تاريخ الإسلام الرسمي في عهد بني العباس يعيب على الأمويين أشياء كثيرة حتى أنه يرميهم بالتقصير في أداء الفرائض الدينية وأنهم نبذوا روح الدستور الإسلامي في الحكم .

وما من شك في أن واضعي قصة وضاح الين وأم البنين من بين هؤلاء الذين تأثروا بذلك التاريخ الرسمي العباسي الذي يقرن اسم الأمويين بالسخط واللعنة ومن أعوانهم ذلك الزنديق الشعوبي مؤلف الكتاب الممقوت .

هذه هي قصة وضاح الين مع أم البنين التي ظهر باطلها ظهوراً لا يحتاج إلى أكثر مما تقدم من الإيضاح .

ولأعود الآن إلى صاحبة شاعرنا في جولاته الشعرية بمد أن حاولت قدر الاستطاعة أن أرد عليه اعتباره وأنقد سمعته بما شبها من إفك ظالم بالنسبة إلى خليفة مدحه فأثابه ثم حمل إليه بالشام فكرر المدح فأحسن رفده وأجزل صلته .

ولم يكن الوضاح مجحولاً في عصره من الفئتين شأنه في ذلك شأن الناهيين من الشعراء - فقد غنى بشعره ابن محرز وابن عباد وابن سريج وحكم الوادي وهم من مشاهير المغنين العرب في ذلك الحين .

وفيما يلي أنموذج من شعره الغزلي الرقيق الذي يسرى من السمع إلى أعماق الوجدان فيغمره حنيناً عذباً :

يا تقوى لكثرة العذال	ولطيف سرى مليح الدلال
زائر في قصور صنعاء يسرى	كل أرض مخوفة وجبال

يَقْطَعُ الْحَزْنَ وَالْمَهَامَةَ وَالْبَيْدَ مِنْ دُونِهِ ثَمَانُ لَيَالٍ
عَاتِبٌ فِي الْمَنَامِ أَحْبَبُ بَعْتَبَا هُ إِلَيْنَا وَقَوْلِهِ مِنْ مَقَالٍ
قَلْتُ أَهْلًا وَمَرْحَبًا عَدَدَ الْقَطْرِ وَسَهْلًا بِطِيفِ هَذَا الْخِيَالِ
حَبَّذَا مَنْ إِذَا خَلَوْنَا نَجِيًّا قَالَ : أَهْلِي لَكَ الْفِدَاءُ وَمَالِي
وَهِيَ الْهَمُّ وَالْمَنَى وَهَوَى النَّفْسِ إِذَا اعْتَلَّ ذَوْهَوَى بِاعْتِلَالِ
قِسْتُ مَا كَانَ قَبْلَنَا مِنْ هَوَى النَّاسِ فَمَا قِسْتُ حُبَّهَا بِمِثَالِ
لَمْ أَجِدْ حُبَّهَا يَشَاكُلُهُ الْحُبُّ وَلَا وَجَدْنَا كَوَجْدِ الرِّجَالِ
لَمْ يَزِدْهُ تَقَادُّمُ الْعَهْدِ إِلَّا جَدَّةً عِنْدَنَا وَحَسَنَ احْتِلَالِ
أَيُّهَا الْعَاذِلُونَ كَيْفُ عَتَابِي بَعْدَ مَا شَابَ مَفَرَّتِي وَقَدْ أَلَى
كَيْفَ عَذَلِي عَلَى الَّتِي هِيَ مِنِّي بِمَكَانِ الْيَمِينِ أَخْتِ الشِّمَالِ

هذا أنموذج حلو الجرس عذب الرنين في أذن السامعين يضاف على شعر الوضاح
في هذا اللون من القريض أبهى حال البهجة الروحية التي يلتذ لها الوجدان ويهتز
لها القلب طرباً لما احتوته من انعام شجية ومعان جزلة رقيقة .

وإذا طرق الوضاح سبيل الرثاء أتقن الصياغة في حزن صادق يحفه الورع
الصادر عن فؤاد عامر بالإيمان الذي لا يتفق وحياته التي تضم أكثر من ناحية من
نواحي اللهو والحلاعة - فيقول في رثاء أبيه :

أَرَاكَ طَائِرٌ بَعْدَ الْخُفُوقِ
بِفَاجِعَةٍ مُشْنَعَةٍ الطَّرُوقِ
كَأَنِّي إِذْ عَلْتُ بِهَا هُدُوءًا
هَوَّتْ بِي عَاِصِفٌ مِنْ رَأْسِ نَيْقِ
أَعْلُ بِزُقْرَةٍ مِنْ بَعْدِ أُخْرَى
لَهَا فِي الْقَلْبِ حَرٌّ كَالْحَرِيقِ

وَتَرْدُفُ عِبْرَةٍ تَهْتَانُ أُخْرَى
 كَفَائِضِ غَرْبِ نَضَّاحِ فَتَيَقٍ
 كَأَنِّي إِذَا أَكْفَكِفُ دَمْعَ عَيْنِي
 وَأُنْهَامَا أَقُولُ لَهَا هَرِيْقٍ
 سَأَصْبِرُ لِلْقَضَاءِ فَكْلٌ حَتَّى
 سَيَلْتَقَى سَكْرَةُ الْمَوْتِ الْمَذْذُوقِ
 فَمَا الدُّنْيَا بِقَائِمَةٍ فِيهَا
 مِنَ الْأَحْيَاءِ ذُو عَيْنٍ رَمُوقِ
 وَالْأَحْيَاءِ أَيْامٌ تَقْضَى
 يَلُفُّ خَتَامُهَا سَوْقًا بِسَوْقِ
 فَأَغْنَاهُمْ كَأَعْدَمِيْمٍ إِذَا مَا
 تَقَضَّتْ مُدَّةُ الْعَيْشِ الرَّقِيقِ
 . . .
 وَدُنْيَاكَ الَّتِي أُمْسِيَتْ فِيهَا
 مُزَايِلَةُ الشَّقِيقِ عَنِ الشَّقِيقِ

وإذا عمد شاعرنا إلى المدح مهد له بالغزل اللطيف على غرار مايفعل جميع شعراء عصره - فيناجى حبيبته ويصف جمالها وحسنها ثم يعرج على الخيل فيسرد عدوها الشديد ومن ثم يتطرق إلى الممدوح لينخصه بالثناء والكرم وما إلى ذلك من الخصال السكرية - وفي القصيدة التالية مايدل على براعته في الديباجة الغزلية والذوق الفنى السليم فى تنميقها :

صبا قلبي ومالَ إليك ميلا
 وأرقنى خيالك يا أثيلا

مهفهفة تلمُّ بنا قُبـلـى
 دَقِيقَ محاسنٍ وتُكِنُّ غِيلا
 دَعِينا مَأْمَتِ بَنَاتِ نَعشٍ
 من الطيفِ الذى يثابُ لِيلا
 وَلَمَكِينٌ إِنِّ أَرَدْتَ فَصَبَّحِينَا
 إِذَا أَمَّتْ رُكَّابُنَا سُهَيْلَا
 فَكِرْنِكَ لَوْ رَأَيْتِ الْخَيْلَ تَعْدُو
 سِرَاعاً يَتَّخِذُونَ النِّقْعَ ذَيْلَا
 إِذَا لَرَأَيْتِ فَوْقَ الْخَيْلِ أَسْدَا
 تُفِيدُ مَخَانِمَا وَتُفِيْتُ نَيْلَا
 . . .
 إِذَا سَارَ الْوَلِيدُ بِنَا وَمِيرُنَا
 إِلَى خَيْلٍ نَلْفُ يَهْنُ خَيْلَا
 وَنَدُخُلُ بِالسُّرُورِ دِيَارَ قَوْمٍ
 وَنَعْقُبُ آخِرِينَ أَذَى وَوَيْلَا

وشاعرنا قد يسف كغيره من الشعراء على اختلاف طبقاتهم وعصورهم فنجد
 بين قصائده الشعر الخليع والمتكلف الذى يحاول فيه نوعا من القصص القصير —
 ومن النوع الأول قوله

أَبَى الْقَلْبُ الْيَمَانِى الَّذِى تُحْمَدُ أَخْصَلَاةُ
 وَيَرْفُضُ لَهُ الْلَّحْنَ فَمَا تُفْتَقُ أَرْتَاةُ
 غَزَالٌ أَدْعَجُ الْعَيْنِ رَبَّيْبُ خَدَّاجُ سَاقُةُ
 رَمَانِ قَسَبَى قَلْبِي وَأَرْمِيهِ فَأَشْتَاةُ

وقد غنى إسحق الموصلى هذه الأبيات الخليفة المعتصم - وقد رجع من الصيد -
فطرب له وشرب على هذا اللحن بقية يومه .

ومن النوع الثانى قصيدته التى تشبه إلى حد بعيد أغنية شعبية كانت تغنى فى
الأفراح وليالى السمر التى تقيمها الأسر فى بيوتها وترددها الفتيات والنساء وذلك
فى مستهل القرن العشرين - ولعلها تغنى حتى الآن فى بعض المدن والقرى بالقطر
المصرى - وكان مطلع هذه الأغنية الشعبية المصرية يقول للحبيب المتردد فى زيارة
حبيبته خلسة دون أن يشعر به أهلها - « إن كنت خائف من أمى . أمى على
ستارة » - « وأن كنت خائف من أبويا - أبويا نائم فى الحارة » - وقصيدة
الوضاح فى هذا المعنى :

يَـأَرَوْضُ جِيرَانُكُمْ الْبَاكِرُ
فَالْقَلْبُ لَا لَآءَ وَلَا صَابِرُ
قَالَتْ أَلَا لَا تَلِجَنَّ دَارَنَا
إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرُ
قُلْتُ فَإِنِّي طَالِبٌ غِرَّةً
مِنْهُ وَسَيُنْفِي صَارِمٌ بَاتِرُ
قَالَتْ فَإِنَّ الْقَصْرَ مِنْ دُونِنَا
قُلْتُ فَإِنِّي فَوْقَهُ ظَاهِرُ
قَالَتْ فَإِنَّ الْبَحْرَ مِنْ دُونِنَا
قُلْتُ فَإِنِّي سَابِحٌ مَاهِرُ
قَالَتْ فَحَوْلِي إِخْوَةٌ سَبْعَةٌ
قُلْتُ فَإِنِّي غَالِبٌ قَاهِرُ
قَالَتْ فَلَيْتَ رَايَضٌ بَيْنُنَا
قُلْتُ فَإِنِّي أَسَدٌ عَاقِرُ

قَالَتْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ قَوِّينَا
قُلْتُ فَرَبِّي رَاحِمٌ غَافِرٌ
قَالَتْ لَقَدْ أُعْيِتْنَا حُجَّةً
فَأَتَيْتِ إِذَا مَا جَمَعَ السَّامِرُ
فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسْفُوطِ النَّدَى
لَيْلَةً لَانْهَارٍ وَلَا زَاجِرِ

هذا هو وضّاح اليمن في حياته الخاصة وفي حياته الفنية وفي الحديث المتقدم
ما قد يكون قد وُفِّي هَاتين الناحيتين ما يستحقان من شرح وتفصيل .

٣ — عائشة بنت طلحة

ومدام دي رامبوييه Mme de Rambouillet

ليس من شك في أن أدب الندوات ، أو أدب الصالونات ، كما يدعى في الأدب الحديث قد أسهم بنصيب ملحوظ في تهذيب اللغات الحية وتنقيتها من الشوائب الفنية والارتفاع بما كان يجري في هذه الندوات من مناقشات وأحاديث إلى المستوى الرفيع المنزه عن الإسفاف والنزعات المجنونة مما كان له أطيب الأثر في رقى التفكير الأدبي على مر القرون الماضية .

واقده وجدت فيما وقفت عليه من مؤلفات أن السيدة عائشة بنت طلحة والسيدة « كاترين دي رامبوييه Catherine de Rambouillet » تشبه إحداهما الأخرى في نزعتها الأدبية وافتتانها بالثقافة الراقية التي تركز على الفن الأصيل النابع من الوجدان الزاخر بالأحاسيس النفسية والعواطف القلبية الصادقة . فكان لكل منهما فضل لا ينكر في صيانة عدد كبير من اتجاهات الأدبين العربي والفرنسي من أن يشوب تراثها الثقافي الإسفاف وعوامل الانحلال الضارة .

وقبل أن أتناول بالتحليل والشرح عناصر التشابه في حياة هاتين السيدتين الأدبية وما قامتا به من أعمال في سبيل تنقية الأدب بتوجيه العناية الحاذقة إلى أدباء وشعراء عريقها أجد من الملائم أن يحيط المطلع على هذا البحث علما بنبذة تاريخية مركزة توضح سلوك كل منهما في الحياة التي مارسنها مع تبيان بعض نواحي البيئة التي عاشت في كنفها ثم تأثيرهما في الأدب العربي والفرنسي .

فمما نشأتمت بالنسب إلى أسرة من أكرم الأسر العربية في صدر الإسلام . فأبوها طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ويكنى بأبي محمد نسبة إلى ولده البكر . وهو من أشرف قريش وقد اشتهر بورعه وكان من أوائل القراء ومن الصحابة الذين بشرهم رسول الله عليه الصلاة والسلام

بالجنة ومن السابقين الأولين إلى الإسلام - وإبلى هو وأبو بكر الصديق بتهديدات قريش وسوء معاملتهم لهما - وهاجر مع النبي وكان من أصحاب مشورته ومن أصدق أصدقائه - وكان رسول الله قد أنفذ قبيل وقعة بدر ليرصد حركات القافلة المسكية فعجز عن العودة لدى نشوبها ومن ثم لم يسهم فيها بشأن ذي بال - غير أنه اشترك في الغنيمة مع سائر المهاجرين ثم أبلى في وقعة أحد أحسن البلاء وامتاز فيها بشجاعته ويسالته الفذة إذ حمى بجسمه النبي عند تراجع المسلمين فأصيب بعدة جراح وقطعت أوتار إصبعين من أصابعه فشلتها عن الحركة - وقد أكسبه حسن بلائه هبة في أيام النبي وبعد وفاته وجعل له مكانة رفيعة في قلوب المسلمين .

واستطاع طلحة أن يجمع ثروة طائلة من الفتوح الإسلامية فامتلك الضياع الشاسعة في جزيرة العرب وفي العراق علاوة على الأملاك العينية الأخرى - ويدل تاريخ سيرته على أنه كان من بين المرشحين للخلافة - وعقب مقتل عثمان بن عفان ظن طلحة أن الخلافة أضحت سهلة المنال ولكن علياً بن أبي طالب بويح بها فبادر طلحة إلى الاعتراف به - غير أنه ما لبث أن غادر المدينة إلى مكة حيث انضم هو والزبير إلى السيدة عائشة أم المؤمنين ثم شخص الثلاثة إلى البصرة ووجدوا فيها أنصاراً عقب إعلانهم أنهم يرغبون في الأخذ بشار عثمان من علي بن أبي طالب .

وفي وقعة الجمل المشهورة قتل طلحة وابنه محمد وقتل الزبير - ولم يتشقق آل طلحة بفقد عميدهم إذ آلت إليهم ثروته الضخمة وظلوا محتفظين بجاههم العريض الوارف - وكان منهم كثير من المحدثين إلى جانب السيدة عائشة التي نحن بصدد المتحدث عن سيرتها وأثرها في الأدب العربي .

ويتضح من أقوال الرواة أن طلحة كان مقاتلاً شهياً يتسم بنبل الخلق والكرم وكان يمارس التجارة في جاهليته فجمع من أرباحها مالا وفيراً - ومن ثم استطاع شراء جميع أسهم خيبر من الذين أسهموا في فتحها مع رسول الله ومن ورثتهم - ولما فتح عثمان بن عفان باب بيع وشراء تلك الأسهم باع طلحة كل ما يملك منها لمن

أسهموا في فتح العراق من الحجازيين وذلك في مقابلة شرائه ما يملكون هناك وضم إلى ذلك ما استطاع شراؤه من الأراضي التي يملكها الحجازيون في العراق - وهكذا صار من أصحاب الملكيات العريضة والإقطاعات الشاسعة في القطر العراقي علاوة على أملاكه في الجزيرة العربية وأصبح الناس في الحجاز وفي العراق يتحدثون عن ماله الكثير وجسوده السابغ وبهره بذوى قرباه من تيم وذوى صداقته ومودته من القرشيين والأنصار ويلهبجون بكرمه وإحسانه لمن يحتاجون لمعونته ثم يتحدثون عن زوجاته وما يحظين به من رفاهة ودعة وترف ونعيم مخضر الجوانب فيذكرون هذه الزوجات الثلاث وهن سعدى بنت عوف المرية - وأم أبان بنت عتبة بن زبيحة - وأم كلثوم بنت أبي بكر الصديق شقيقة السيدة عائشة أم المؤمنين ووالدة عائشة بنت طلحة التي بهرت أهل عصرها بجمالها وأبهتها وافتنانها بالشعر والشجراء ومعرفتها الواسعة الأفق بما دبت أقلامهم من قصائد ولاسيما الغزلية منها .

ولما كان الرواة يجمعون على أن عائشة الجميلة الفاتنة قد فقدت والدها طلحة ولما نزل في سن الطفولة الفضة التي لا تعي من أمور الحياة إلا القليل الغامض - ولما كان مقتل طلحة والدها قد حدث في شهر جمادى الآخرة عام ٣٦ هـ (٦٥٦ م) فإن ميلادها يكون في عام ٢٩ أو ٣٠ هـ (٦٤٩ - ٦٥٠ م) بفرض أن عمرها كان ست سنوات أو خمسا يوم أن قتل طلحة في وقعة الجمل المشهومة في تاريخ الأمة العربية .

ويقيني هـ - أن الوقت قد حان للتعرف على شخصية الفاتنة عائشة في ثنايا التاريخ - فأول ما يطالعنا الرواة به من أخبارها يتناول سبب تسميتها في أسطورة طريفة تزعم أن أباهما علم بمولدها لدى عودته من رحلة قضاها في العراق وأخذ يستعرض الأسماء ليختار لها اسما جميلا يلائم بهاءها والوضاح وهي ترقد في مهدها بجانب أمها - ولكن أم كلثوم تقطع عليه تفكيره وتصمم حبل اختياره وتقترح عليه أن يطلق عليها اسم خالتها عائشة أم المؤمنين فوافق طلحة على هذا الاقتراح

وقال : أعلّمتها تصوير بعد نضجها مثل عائشة في رجاحة العقل ونفاذ البصيرة وحدة الذكاء لتمتاز بهذه الصفات الرفيعة على سائر النساء . وهكذا أدرجت عائشة بنت طلحة في سجل الأحياء تحمل اسم خالتها زوجة رسول الله عليه السلام . ولم يخطيء والدها في فراسته بالنسبة إلى المولودة الجميلة فكان أنه كان يطلع على ما قدر لها في عالم الخيب وما منحها الله في أزليته من مواهب لامعة . فصارت عندما كملت أنوثتها وتفتحت أحاسيسها واتسعت آفاق ذكائها أشبه الناس بأم المؤمنين فيما تمناه لها أبوها وهي في المهد.

وقطعت عائشة الفاتنة أعوام طفولتها وسنى المراهقة في كنف أهلها وفي ظل رعايتهم الرحيمة تنعم بالترف والدعة والرخاء بين أنسابها وهي راضية بعيشتها قريرة العين بما يحيط بحياتها من ثراء وجاء ورغد إلى أن فقدت والدتها فحزنت ثم عادت تزاول حياة المرح والبهجة المدللة .

ولم يحدثنا التاريخ المأثور عن مراحل ثقافتها أو نشأتها التعليمية - غير أن ما ذكر عنها في بعض المراجع التاريخية يدل على أنها كانت على قسط وافر من التحقيق فقد وصفها صاحب كتاب الأعلام - خير الدين بن الزركلي - بأنها كانت « أدبية عالمة بأخبار العرب فصيحة اللسان ، وقال عنها المستشرق د. ف. زيتستين Zettersteen ، في دائرة المعارف الإسلامية إنها كانت « من شهيرات نساء الإسلام . وكانت تتصف بكل الصفات التي كان يعدها أغلب العرب من الصفات البارزة عند المرأة العربية وعلاوة على جمالها الرائع وانتسابها إلى أسرة عريقة في المجد والحسب كانت على خلق نبيل فخورة بنفسها وبنسبها مما كان يحبه العرب في نساءهم . وبكل هذه الصفات لا يستغرب أن تكون هذه السيدة الجميلة إحدى شهيرات نساء العرب في زمانها . »

وذكرها المرحوم الأستاذ عبد الله عفيفي في الجزء الثالث من كتابه « المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها » فقال : كانت عائشة بنت طلحة من السيدات الناقداً إذ كانت « حكم الشعر والندي يُقدّر حكمه » حتى تقدير ولا يغفل رأيه ولا تبدو

مزلتة . وكانوا ينفذون على دارها من كل صوب وحذب وكلهم قد عقد يده على خير ما قال وليس بينهم إلا من كان حديثه طوال طريقه عما عسى للسيدة أن تقول وتحكم به لأنه سيكون بين المتأدبين وبُغاة الشعر يقينا لاشك فيه .

وكانت تجتمع بالمغنين والشعراء والرواة والأدباء وذوى الرأى والسنداء فتحدث كلاً بما عنى به وخلق له حتى لاتدع له مجالاً يقول فيه ،

ويروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه « الأغاني » أنه كان بينها وبين زوجها الثالث عمر بن عبيد الله بن معمر مساجلة وكلام في شتى نواحي المعرفة فسهرت ليلة ثم قالت : إن عمر بن أبي ربيعة لجاهل بليلى هذه حيث يقول :

ووال كفاها كل شيء يهْمُهَا فليس لشيء آخر الليل تسهر

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة أفق معرفتها وغزارة علمها مما مكنها من المساجلة والمناقشة إلى ساعة متأخرة من الليل دون أن تمل أو يمل زوجها من حديثها الشهى المفيد .

ولما تأيمت بعد زواجها من عمر بن عبيد الله كانت تقيم سنة بمكة وسنة بالمدينة وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها هناك فتنزه فيه وتجلس بالعشيات فيتناضل بين يديها الرماة والشعراء - فربها النيرى الشاعر فأقسمت عليه أن يقول شعرا في ابنة عمه زينب التي أحبها فأنشدها قوله :

تضوع مسكاً بطن نعان إذ مشت

به زينب في نسوة خفرات

تهادين ما بين الحصب من منى

وأقبلن لاشعثاً ولا غبرات

يخبئن أطراف البنان من التقى

ويقتلن بالأحاظ مقتدرات

إلى أن قال :

فكِدْتُ اشْتِياقاً نحوهما وَصَبَّابَةً
تَقَطَّعَتْ نَفْسِي إِثْرَهُمَا حَسَرَات
فَرَأَجَعْتُ نَفْسِي والحفيظة بعدما
بللتُ رداءَ العصبِ بالعَبرَاتِ

فقلت والله ما قلت إلا جميلاً ولا ذكرت إلا كريماً وطيباً ولا وصفت إلا ديناً وتقى - وأمرت له بعطاء جزيل - وهذا يدل على حسن تقديرها للشعر الغنى العذب البعيد عن الإسفاف أو المجون وتوخى الشعراء القول العف في حضرتها .

وقد وفدت على هشام بن عبد الملك إبان خلافته تطلب حقاً . وبادرته بهذه الجملة التي تنطق بالعبرة وتعمق المعنى على قصر ألفاظها . « حَبَسَتْ السَّمَاءُ الْمَطَرَ وَمَنَعَ السُّلْطَانُ الْحَقَّ » . فقال فإني أبُلُّ رَحِمَكَ وأَعْرِفُ حَقَّكَ : ثم بعث إلى مشايخ بني أمية : إن عائشة عندي فاسمروا عندي الليلة فحضروا . فلما تذكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه . وما طلع نجم ولا غار إلا سمته : فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره - وأما النجوم فمن أين لك . قالت . أخذتها عن خالتي عائشة .

وهذا برهان آخر على سعة علمها وعميق ثقافتها ونضوج فكرها وقوة حافظتها وغزارة اطلاعها .

ويقول حماد الراوية في وصفها : إنه لم يكن لها شبه في زمانها حسناً ودمائتهً وجمالاً وهيبَةً ومتانةً وعفةً . .

ولم يقصر الرواة في إطراء جمالها وبهجة منظرها وتفاصيل كيانها الجسماني - فقالوا على لسان عزّة الميلاء وقد كانت من أهل المدينة عذبة الصوت مشرقة الوجه حمة النشاط تنقل بين بيوت الأشراف فتشجى أهلها بغنائها الجميل ووجهها الحلو

وسمى الخلاب - وكانت نسوة هذه البيوت وفتياتها ورجالها يأنسون إليها
ويطربون لأغانيها ويجدون المتعة في الجلوس إليها بما كانت تتحفهم به من الأغاني
والأحاديث الرقيقة الشيقة في خفة روح وطلاقة لسان .

فعزّة هذه يرجوها مصعب بن الزبير بن العوام أن تذهب إلى دار عائشة
لترأها متجردة من ثيابها لتعود فتصفها إليه وقد عزم على الزواج منها بعد أن مات
زوجها الأول عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - فذهبت عزّة الميلاء إلى
- عائشة واحتالت عليها فتجردت من ثيابها ثم رجعت إلى مصعب قائلة : هي بمدودة
المتنين - أي جنبتي الظهر - عظيمة العجزة مملئة الترائب - أي موضع القلادة - نقيه الثغر
وصفحة الوجه - فرعاء الشعر - لفتاء الفخذين مملئة الصدر - خميصه البطن - أي
ضامرتها - ذات عكن - أي لها طيات في البطن - ضخمة السرة - مسرولة الساق -
يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها - وفيها عيبان هما عظم القدم والأذن .

وهذا الوصف الشيق يطابق نزوع الرجال في صدر الإسلام إلى الضخامة في
المرأة وكبر حجمها السكاني - فالجمال عندهم لاء الأقدمين كان يتمثل في امتلاء أجسام
النساء بالاحم والشحم - ونجد ذلك دألا في وصف كثير من السيدات والفتيات
التي تغنى الشعراء بهن في أحسن ما نظموا من قصائد غزلية - واستمر معيار الجمال
النسائي على هذا الوصف عبر القرون اللاحقة - وما زال كذلك في كثير من البيئات
الحالية التي لا تجد في رشاقة الأجسام وسميرية القامة ما يسر الناظرين .

أما جمال وجه عائشة فقد أيدته أكثر من رواية - فصاحب الأغاني يقول
لأنها نازعت زوجها يوما إلى أبي هريرة الصحابي فوقع خمارها عن وجهها فقال
أبو هريرة : سبحان الله ! ما أحسن ما غداك أهلك ! لكانما خرجت من الجنة
والله ما رأيت شيئا أحسن منك إلا معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله -
فقالت : واللّه لا نأ أحسن من النار في الليلة القريّة في عين المقرور .

ويذكر صاحب الأغاني عن رواية آخرين أنها كانت برزة لا تستر وجهها من
أحد فعاتبها زوجها مصعب في ذلك فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم

جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم - فما كنت لأسترد - ووالله ما فى
وصمة يقدّر أن يذكرنى بها أحد .

وكان مصعب يباهى بجمالها ويحب أن يسمع إطراءه على الألسن . وقد ذهب
فى ذلك إلى أبعد الحدود - فقد اصطحب المحدث الشهير الشعبي إلى دار موسى بن
طلحة شقيق عائشة وأجلسه فى قاعة الاستقبال ثم رفع السجف عنه وهو يجلس
بجانب زوجته عائشة - ويقبول الشعبي فى هذا المنظر البهيح أنه لم ير زوجا قط
أجمل منها - وفى المساء لقي مصعب الشعبي فى المسجد فقال له : أتدرى لم أدخلناك
لترى مارأيت قال لا . قال : لتحدث بما رأيت .

وإن دل هذا الخبر على شيء فإنما يدل على عجب مصعب بجمال زوجته ورغبته
فى أن يتحدث الركبان بهذا الجمال البارع .

وما أظن الحارث بن خالد الشاعر الذى أحب عائشة ولم يحظ بزواجها . ما أظنه
قد غالى فى القول حين نظم فيها الأبيات الآتية عندما رحلت إلى العراق مع زوجها
الأمير مصعب بن الزبير وكانت هذه الأبيات قد سبقتها إلى هناك فبينما الحجازيون
والعراقيون جميعاً :

ظعنَ الأميرُ بأحسنِ الخَلْقِ

وَعَدَا بِلُبِّكَ مَطْلَعَ الشَّرْقِ

فى البيتِ ذى الحسبِ الرفيعِ وفى

أهلِ التَّقَى والسُّرِّ والصُّدُقِ

قرشية عَبَقُ العَبِيرِ بها

عَبَقُ الدِّهَانِ بجانبِ الحُقِّ

بيضاءِ مِنْ تَيْمٍ كَلِفَتْ بها

هذا الجنونُ وليسَ بالعشقِ

وَتَنُوءُ تَثْقِلُهَا عَجِيزَتُهُ —
 تَهْضُ الضَّعِيفَ يَنُوءُ بِالْوَسْقِ
 مَا صَبَّحَتْ أَحَدًا بِرُؤْيَتِهِ —
 إِلَّا غَدَا بِكُوَاكِبِ الطَّلَقِ

وفي هذه الآيات ما يوضح جمال عجاها وعظم جسدها وعدوبة حديثها وبشر
 وجهها عند الصباح - وهي ملامح لم تغضب عائشة لسماعها تردد على السنة الناس
 عند وصولها إلى العراق ويتغنى بها المغنون - فقد قالت معقبة عليها: والله ما ذكر
 الحارث إلا جميلاً - ذكر أني إذا صَبَّحْتُ زوجاً بوجهي غدا بكواكب الطلق -
 وأنى غدت مع أمير تزوجني إلى الشرق - وأننى كالطيب في عيبه .

والحارث بن خالد هو أحد شعراء قريش المعدودين - كان يذهب مذهب
 عمر بن أبي ربيعة في الغزل ولا يتجاوزهُ إلى المديح أو الهجاء - وكان يهوى عائشة
 ويشبب بها - وقد ولَّاه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مكة وكان ذا قدر
 وخطر وحسن منظر في قريش - فحجَّت عائشة عام ولايته وانتحزت فرصة الليل
 فأقبلت تطوف وبينما هي تسعى حول البيت الحرام أخذ المؤذنون يقيمون الصلاة
 وأخذ الناس يستعدون لأداء الفريضة - وإذا إحدى جوارى عائشة تقبل على
 الحارث - وقد وقف يوم المصلين - وتسرَّ له أن سيدتها لم تتم الطواف وأنها
 ترجوه أن يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها - فلم يكن من الحارث إلا أن أمر
 المؤمنين بالكف عن إقامة الصلاة وأسرع إلى الجلوس حتى علم بأنها أتمت السعي
 حول البيت - وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه فعزله الخليفة عبد الملك
 وكتب إليه يؤنبه على هذه الفعلة المنكرة فقال : مأهون والله غضبه إذا رضيت
 عائشة - والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الفجر لأخرت الصلاة طوال الليل - وفي
 ذلك يقول الحارث بن خالد :

لم أرحب بأن سنطت ، ولكن
 مرحباً إن رَضِيتَ عَنَّا وَسَهَّلَا

جَعَلَ اللهُ كُلَّ أَشْيَ فِدَاءٍ
لَكَ ، بَلْ خَسَدَهَا لِرَجَاكِ نَعْمَلَا
وَجْهُكَ الْبَدْرُ ، لَوْ سَأَلْتَهُ بِهِ الْمَرْ
نَ ، مِنْ الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ اسْتَهْلَا
إِنَّ عِنْدَ الطَّوَافِ حِينَ أَتَتْهُ
لِجَالَاً فَعَمَّا وَخَلَقَا رِفْلَاً
وَالْجَمَالَ الْفَعْمُ هُوَ الْجَمَالُ الْبَاهِرُ الرَّائِعُ وَالرِفْلُ هُوَ الْفِيَاضُ الْوَاسِعُ .

وفي ثنايا المصنفات التي تعرضت لسيرتها عدد من العبارات التي تدل على أنها
كانت متوقدة الذكاء سريعة البديهة - فقد لقيها عمر بن أبي ربيعة بمكة على بغلة فألقى
عليها البيت التالي :

يَارِبَةَ الْبَغْلَةِ الشَّهْبَاءُ هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَنْشُرِي مَمِيئًا لَا تَرْهَقِي حَرَجًا
فَبَادَرْتَهُ بِقَوْلِهَا فِي اسْتِخْفَافِ ظَاهِرٍ : « لَا وَرَبِّ السَّكْعَةِ مَا عَنَيْتُنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ
قَطْ » - ثُمَّ صَاحَتْ فِي بَغْلَتِهَا « عَدَسٌ » ، وَسَارَتْ دُونَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَيْهِ .
وَقَدْ أَكَلَ عَمْرٍو قَصِيدَتَهُ فِي هَذَا الْحَادِثِ فَصَارَتْ كَالآتِي :

يَارِبَةَ الْبَغْلَةِ الشَّهْبَاءُ هَلْ لَكَ فِي
أَنْ تُنْشُرِي مَمِيئًا لَا تُرْهِقِي حَرَجًا
قَالَتْ بِدَائِكَ مَتَّ أَوْ عِشْ نَعْمًا لِحُ
فَإِنْ تُعْقِدُنَا فَقَدْ عَنَيْتُنَا حَجَجًا
حَتَّى لَوْ اسْتَطِيعُ مِمَّا قَدْ فَعَلْتَ بِنَا
أَكَلْتُ لِحْمَكَ مِنْ غِيظٍ وَمَا نَضَجَجَا
فَقُلْتُ لَا وَالَّذِي حَجَّ الْحَجِيجُ لَهُ
مَامَجَّ حُبُّكَ مِنْ قَلْبِي وَلَا نَهَجَجَا

ولا أرى القلب من شيء يُسرّبه

مُدّ بَنانَ منزلِكُم مِنّا ولا تَلَجّا

صنّت يَنائِلها عنه فقد تركت

في غير ذنبٍ أبا الخطّابِ مُخْتَلَجّا

وحكايتها مع زوجها الثالث عمر بن عبيد الله بن معمر تدل على هذا الذكاء السريع الخاطر - فقد تزوجت عمر هذا ومعه زوجته الأولى (رملة) بنت عبد الله ابن خلف التي كانت جبهة الوجه (أى غليظته فى سماجة) عظيمة الأنف - وفى ذات يوم أخذ عمر يصف لعائشة محاربة الخوارج وقتله أبى فديك زعيمهم ويقول أنه فعل كذا وكذا من الأعمال المجيدة فى الحرب ويذكر شجاعته وإقدامه فى إسهاب وكبرياء - فقالت عائشة : أنا أعلم أنك من أشجع الناس - وأعرف لك يوما هو أعظم من اليوم الذى ذكرته - قال : وما هو ؟ قالت يوم اجتليت رملة وأقدمت على وجهها وأنفها !! - فغضب عمر لهذه الإهانة وأغلظ لها القول وعاملها فى قسوة لم تعهدا من قبل .

ويجمع الرواة على أن هذه الفاتنة التى بهرت الشعراء وحتى الفقهاء بجملها وبهاء طلعتها وظرف حديثها كانت على شيء غير قليل من شراسة الأخلاق مثلها فى ذلك مثل نساء بنى تيم اللاتى اشتهرن بأنهن من أشرس نساء العرب فى ذلك الزمان ومن أكثرهن حظا عند أزواجهن - واقعد كانت أختها أم إسحق بنت طلحة عند الحسين بن على فكان يقول : والله لربما حملت أم إسحق ووضعته وهى مصارمة لى لاتسكمنى .

وقبل أن نتعقب عائشة فى مراحل صباها وشبابها ونتعرف على قصص زواجها المتكرر يحسن التعرف على الحقبة الزمنية التى عاشتها هذه السيدة لنستخلص منها طريقة سلوكها فى الحياة تحت تأثير عوامل البيئة التى اكتنفها طوال السنوات التى قطعتها فى قيد العالم الدنيوى وتفرغها للأدب والآداب .

فالتاريخ يحدثنا عن تلك الحقبة فيصفها في الحجاز بفترة لهُو وعبث وتُرف ويرجع أسباب كل ذلك إلى أن الحجاز كان يضم في ذلك الحين أُرستقراطية العرب وهم العنصر الفاتح - وقد نال هؤلاء الأُرستقراطيون المترفون أحسن الجسوارى وأرفعهن نسبا وأكثرهم تأدبا - ومنهن من نشأن في بيوت الأُمراء والملوك وتأدبن بآداب الحضارة فنقلن ذلك إلى الحجاز وصبغته بالصبغة العربية - ومن ثمَّ كان لهن أكبر الفضل في تأسيس مدارس الغناء في شبه الجزيرة العربية .

وذلك التغير الحضارى طبعى فى الأمم التى تنتقل من البداوة إلى الحضارة ولاسيما إذا كان ذلك الانتقال فجأة بسبب الفتوح التى تعود على الفاتحين بالانغماس الكثيرة والسبايا الهائلة العدد - وكانت السبايا فى صدر الإسلام كثيرات وكان عدد كبير منهن روميات وفارسيات - فكان الفاتحون يبيعون بعضهن ويستخدمون معظمهن فى الشئون المنزلية ويستبقون الحسنات منهن للتسرى - فتحركت إثر ذلك القلوب واستيقظت القرائح للمواضيع الغزلية وأخذ الشعراء يشبهون بالنساء الجميلات .

وكان الخلفاء الراشدون الأربعة - أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ - يعدون ذاك خروجاً على حرمة الأدب فجعلوا التشييب بالنساء ذنباً يستوجب القصاص - وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر يشبب بامرأة إلا جلده .

فلما تبوأ الأمويون عرش الخلافة وحصروها فيهم بل فى بيت من بيوتهم ونقلوا عاصمة ملكهم من المدينة إلى دمشق وكثر الاختلاط بالأعاجم وأخذ العرب بأسباب الحضارة وذهبت هيبة العفة من نفوسهم وانتهت شدة الخلفاء الراشدين فى المحافظة عليها هان عليهم التشييب فأكثرُوا منه ولاسيما فى المدينة لأن أهلها من أسبق المسلمين إلى اللهو بسبب وجود أشرف القرشيين وأبناء الصحابة بينهم - وقد أغدق معاوية عليهم العطايا والرواتب ليشغلهم باللهو والتُرف والعبث عن التطلُع للبلد - فكانوا ينفقون الأموال الطائلة على مجالس الشراب والغناء ويمسحون المغنين أجزل المنح ويهبون أهل اللهو والشعراء الغزليين والماجنين العطايا الثمينة

ومن ثم شاعت مجالات اللهو والمرح والغناء البريء والمأجن بالمدينة - فكانت أسبق المدن الإسلامية في هذه المجالات وانتشر القصف بين أهلها وتمادى الشعراء الغزليون في التشبيب بأحبائهم وبالحرائر من السيدات في غير حرج أو تحفظ .

وقد سن جميل بن معمر سنة التشبيب بالمرأة مع ذكر اسمها وسار على نهجه كثير من الشعراء وتمادوا في ذلك لدرجة أنهم لم يتورعوا عن التشبيب بكريمات السيدات ولو كنَّ من بيوت الأمراء والخلفاء - وكان أجراً للشعراء في هذا اللون من القريض شعراء قريش لما لهم من عصبية تحميهم من بطش هؤلاء الأمراء والخلفاء للتشبيب بنسائهم - ويدلنا تاريخ الأدب العربي على أن أول من تجرأ على التشبيب من شعراء قريش كان ابن عتيق أحد أحفاد أبي بكر الصديق ويقول الرواة إنه كان طاهر النفس يتشبيب عن غير ريبة فلا يجرح شعور النساء ولا يخذل شرف رجالهن - ثم تبعه في هذا المضمار عمر بن أبي ربيعة وتلميذه العرجي وغيرهما من الشعراء الغزليين ثم تجرأ الشعراء من غير القرشيين على الاقتداء بهم حتى شاع التشبيب وانتشر في أرجاء العالم العربي القديم .

وذهب شعراء التشبيب إلى أبعد الحدود فيما كانوا ينظمون من شعر حتى أخذ بعضهم يشبيب بالمرأة ليفضح زوجها أو ابنها أو أحد أفراد أسرته فينال من شرفهم وسمعتهم بغية الحصول على المال أو بعامل الضغينة السافلة والانتقام الحقير .

واقعد ضيق خلفاء بني أمية الخناق على من عداهم من بطون قريش وحجروا عليهم التفكير في الشؤون السياسية وأمور الدولة العسامة - وكان أهل الشام من أقوى المؤيدين للأمويين وأهل العراق من أشد المعارضين لسياستهم - فانصرف شباب الحجاز بما لديهم من المسال والجاه عن الإمارة والسياسة والخلافة إلى اللهو والمرح فكان الظرف وكان الغناء وكان الشراب وكان المجون وأنتج كل ذلك أثراً عميقاً في الأدب العربي الذي عاصر فجر الإسلام وضحاها .

وكان بسر المرأة العربية الحجازية في ذلك العصر المأجن أن يشبيب بها شاعر معروف مشهور - دون أن يكون لها أي ميل للتزوج منه - وإنما لتسر وتنتشي لما

في تشييده من إطراء لجمالها وأوصاف بديعة لحسن وجهها ومفاتن جسمها - ويستوى في هذه الرغبة عند النساء الأميرات منهن ومتواضعة الحال .

وقد أدى شيوع المجنون والخلاعة في العهد الأموي إلى زيادة عدد الشعراء الغزليين فارتفع إلى واحد وعشرين بعد أن كان ستة فقط في العصر الجاهلي ووصل عدد الشعراء السكيرين (أى شعراء الخمارة) إلى ستة وكان عددهم لا يزيد على اثنين في العصر الجاهلي .

والبراهين على صدق ما تقدم نستخلصها من نصوص تاريخية نجدها منفصلة في المصنفات التي تناولت الحركة الاجتماعية في العصر الأموي - ولا سيما إبان العشرات الأولى من قيام حكمه وتكوين دولته - ونجدها أكثر تفصيلا في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - ومن الخير أن يلمّ المطلع على هذا البحث بموجز لبعض الأحداث المنتهكة التي وقعت في تلك الحقبة من صدر الإسلام في مكة وفي المدينة ليتبين مدى العبث والمجون والاستهتار بالقيم الاجتماعية في العصر الذي عاشت فيه عائشة بنت طلحة والجو الذي كان يلفها في غلالته ويتلص الأثر الطيب الذي كان لهذه السيدة في العمل جهد طاقتها على تنقية الأدب العربي من شوائب المجون التي كانت تستولى على كيانه في ذلك الحين فعمانت جوهره الأصيل من التدهور إلى هاوية الإسفاف الوضع .

ولنبداً في هذا السبيل بتتبع حركات شيخ الغزليين في العصر الأموي الأول ألا وهو عمر بن أبي ربيعة - لنرى بالبصيرة الواعية ومن خلال ما كتب عن مجرته ما كان يأتيه من مفساد وما كان ينظم فيها من أشعار .

فهو يقول في عصيانه والاسترسال في شهواته الماجنة مخاطباً إحدى عشيقاته الكثيرات :

وَأَنْصُ الْمَطِيَّ يَتَّبَعُنِ بِالرَّكَ بِ سِرَاعٍ تَوَاعِمِ الْأَظْعَانِ
فَنَصِيدُ الْغَرِيرِ مِنْ بَقَرِ الْوَحْ شِ وَلَهُمْ بَلَدَةُ الْفَتَيَانِ

فِي زَمَانٍ لَوْ كُنْتُ فِيهِ ضَجِيعِي غَيْرَ شَكٍّ عَرَفْتُ لِي عَصِيَانِ
وَتَقَلَّبْتُ فِي الْفَرَاشِ وَلَا تَدُ رَيْنَ إِلَّا الظُّنُونَ أَيْنَ مَكَانِي

ويقول في ليلة حمراء قضائها في الصحراء مع عشيقته أخرى قضى منها ليلته :

وَنَاهِدَةُ الشَّدِيدِينَ قُلْتُ لَهَا أَتَكِي
عَلَى الرَّمْلِ مِنْ جَنَائِنَةٍ لَمْ تُؤَسِّدِ
فَقَالَتْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ
وَلِإِنْ كُنْتُ قَدْ كَلَّفْتُ مَالًا أَعْوَدِ
فَلَمَّا دَنَا الْإِصْبَاحُ قَالَتْ فَضَحَّتِي
فَقِيمٌ غَيْرَ مَطْرُودٍ وَإِنْ شِئْتُ فَازِدِدِ

ولم يتجنَّ التاريخ في وصف هذا المجنون العمرى فهو يثبت أن عبدا لله بن عباس المهداني سأل عمر إذا كان قد فعل كل ما قال فيه الشعر فأجاب بنعم واستغفر الله .

وبلغ من تطرف ابن أبي ربيعة في الاستهتار واستمتاعه باللذات أنه لم يتورع عن أن ينظم الشعر التشبيبي في دُعْمٍ - التي كثيرا ما ذكرها في قصائده - عندما تأتي إلى المسجد الحرام بمكة فتأخذ شيئا من الخلق (أى الطيب الجيد) عندما رآته وتمسح به ثوبه ثم تمضي ضاحكة فيقول في ذلك :

أَدْخَلَ اللَّهُ رَبُّ مُوسَى وَعِيسَى
جَنَّةَ الْخُلْدِ مَنْ مَلَأَنِي خَلُوقًا
مَسَحَّتُهُ مِنْ كَفِّهَا فِي قَيْصَى
حِينَ طَافَتْ بِالْبَيْتِ مَسْحَارَ فَيْقَا
غَضَبَتْ أَنْ نَظَرْتُ نَحْوَ نِسَاءِ
لَيْسَ يَعْرِفَنِي سَلَكَنَ طَرِيقَا

وأرى بينها وبين نساء
كنتُ أهْدِي بهنَّ بَوْنًا سَحِيحًا

وتبرز هذه الأبيات صورةً فاضحة من مجون شاعرنا حتى في بيت الله
المقدس كما تدل على أنه يباهى بعشق نساء أخريات له وإن كان جاهلًا لا يضارع
في بهائه جمال « نعيم القرشية » حبيته المفضلة - وتدل من ناحية أخرى على
استهانة النساء بالقيم الأخلاقية والخروج على نوااميس الحشمة المرعية في
ذلك العصر .

وذاث يوم كانت عائشة بنت طلحة تطوف بالبيت الحرام وكان عمر يفعل
مثالها - وعندما رآها وبهره جمالها بهت من فرط حسنها - إذ لم يكن قد رآها قبل ذلك -
وعلمت عائشة أنه لمحها وأنها قد وقعت في نفسه فبعثت إليه بجارية أن اتق الله
ولا تقل هجرا فإن المقام لا بد فيه مما رأيت . فقال للجارية أخبريها أن عمر لا يقول
إلا خيرا - ومع ذلك فقد شرب بها وذكر اسمها صراحة في هذه الأبيات :

لعائشة ابنة التيمى عِنْدِي
جَمِيٌّ فِي الْقَلْبِ لَا يُرْعَى حَمَاهَا
يُذَكِّرُنِي ابْنَةَ التَّيْمِيِّ ظَبْيِي
يَرُودُ بِرَوْضَةٍ سَهْلٍ رُبَاهَا
فَقُلْتُ لَهُ وَكَادَ يُرَاعُ قَلْبِي
فَلَمْ أَرَ قَطُّ كَالْيَوْمِ اشْتِبَاهَا
سِوَى خَمَشٍ بِسَاقِكَ مُسْتَبِينِ
وَأَنَّ شَوَاكَ لَمْ يُشْبِهْ شَوَاهَا
وَأَنَّكَ عَاطِلٌ عَارٍ وَلَيْدَتٌ
بِعَارِيَةٍ وَلَا عُطْلٌ يَدَاهَا

وَأَنزَلَ غَيْرُ أَفْرَعٍ وَهَى تَدْلَى
 عَلَى الْمُتَمَنِّينَ أَسْحَمَ قَدْرُ كَسَاهَا
 أَظْلُ إِذَا أَكَلْتُمَهَا كَأَنِّي
 أَكَلْتُمُ حَيَّةً غَلَبَتْ رُقَاهَا
 تَبَيَّتْ إِلَى بَعْدِ النَّوْمِ تَسْرَى
 وَقَدْ أَمْسَيْتُ لَا أَخْشَى سِرَاهَا

وقد تلقف هذه الآيات المخبون وعملوا فيها الحنا وأخذوا يترنمون بها في مجالس الألس والطرب - ومن غنى فيها مَعْبِدُ الملحن المشهور في ذلك الحين .

ثم قال فيها قصائد أخرى كثيرة بلغ خبرها فتیان بنی تيم فقال لهم فتي منهم :
 يا بني تيم بن مرة - والله ليقذفن بنو مخزوم بناتنا بالعظام وتنفلون افشى
 ولد أبي بكر وولد طلحة بن عبد الله إلى عمر بن أبي ربيعة فأعلموه بذلك
 وأخبروه بما بلانهم - فقال لهم : والله لا أذكرها في شعري أبدا - ثم قال بعد
 ذلك الشعر الغزلي فيها - وكفى عن اسمها في قصيدته التي أولها :

يَا أُمَّ طَلْحَةَ إِنَّ الْبَيِّنَ قَدْ أَفْدَا
 قَلَّ الشَّوَامُ لَنْ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا
 أَمْسَى الْعِرَاقِيُّ لَا يَدْرِي إِذَا بَرَزَتْ
 مَنْ كَذَا تَطَوَّفَ بِالْأَرْكَانِ أَوْ سَجَدَا

وقد ذكرها في هذه القصيدة باسم ابنها طلحة من زوجها عبد الله بن عبد الرحمن
 ابن أبي بكر دون أن يذكر اسمها صراحة بعد أن أقسم لذويها أنه لن يفعل ذلك .

ولم يكف عمر بن أبي ربيعة عن التشبيب بعائشة أيام الحج فيطوف حولها
 ويتعرض لها وهي تبكره أن يرى وجهها حتى وافقها وهي ترمى الجمار سافرة

فنظر إليها فقالت : أما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يافاسق فقال فيها القصيدة التالية :

إِنِّي وَأَوَّلَ مَا كَلِفْتُ بِحُبِّهَا
عَجَبٌ وَهَلْ فِي الْحُبِّ مِنْ مُتَعَجَّبٍ
نَعَتَ الْإِنْسَامُ فَقُلْتُ لَسْتُ بِمُبْصِرٍ
شَبَّهَهَا لَهَا أَبَدًا وَلَا بِمُقَرَّبٍ
فَكَشَنَ حِينًا ثُمَّ قُلْنَ تَوَجَّهَتْ
لِلْحَجِّ - مُوَعِدُهُمَا لِقَاءَ الْأَخْشَبِ
أَقْبَلْتُ أَنْظُرُ مَا زَعَمَنَ وَقُلْنَ لِي
وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ
فَلَمَّ قَيْتُهَا تَمْشِي تَهَادَى مَوْهِنًا
تَرْمِي الْجِمَارَ عَشِيَّةً فِي مَوَكِبِ
غَرَامٍ يُعْشِي النَّاظِرِينَ بَيَاضُهَا
حُورَاءَ فِي غُلُوتِهَا عَيْشٍ مُعْجِبِ
إِنَّ الَّتِي مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَائِهَا
جَلِيبَتُ الْحَيَّةِ لَيْسَتْهَا لَمْ تُجَلِّبِ

وقد تلقفها الغريض المنى ووضع فيها الحنا وطاف يغنيه في مجالس الوجاه
والأمراء بمكة والمدينة ويقص على سامعيه حكاية عمر ولقائه لعائشة وهي ترمي
الجمار - وصنع فيه معبد شيخ المنين لحنا طرب له الناس في سهراتهم المرحاة .

وهذه القصيدة توضح في جلاء ما كانت عليه هذه السيدة العربية من جمال باهر
ومكانة عظيمة وأبهة فخمة في عيشة راضية تحفها النعماء والترف بما أوحى إلى ابن
أبي ربيعة بهذه الأبيات التي تصفها في دقة تصلح أن تصورها ريشه الفنان ثم توضح
في إطار جميل - وتدل القصيدة أيضا على أن الشعراء الغزليين كانوا ينتقرون

الشعر العذب الحلو الجرس النائي عن الإسفاف والمجون ليغنى في مجالسها
ومنتدياتها الأدبية التي كانت با كورة أدب الصالونات في مستهل العصر الإسلامي

وكانت هذه الحقبة من تاريخ العرب الاجتماعي - أي في صدر الإسلام - مليئة
بالوان من الخلاعة وقلة الحرص على التقاليد الورعة التي سننها الدين الحنيف -
فالسيرة التي كتبت عن تلك الحقبة تخبرنا أن فتيات مكة والمدينة كن يتهاككن على
الفتيان - وكانت كل واحدة منهن تتخذ لها صديقاً تظهر له الحب وتفضله على
غيره وتسرى لقضاء أويقات شاعرية معه يناجيه وتناجيه وتجد في حديثه الغرامى
متعة ولذة - وكانت عائشة بنت طلحة تفعل مثلن بعد أن انتهت مدة حزنها على
والدتها - أم كلثوم وقد توفيت وماتزال عائشة في ميعة الصبي - فكانت تجلس إلى
الفتيان وتتحدث إليهم وتأنس لهم - ولعل قلبها قد مال إلى أحدهم ولم يسعدها
الحظ بالزواج منه وعلى رأسهم الحارث بن خالد .

وما كان عمر بن أبي ربيعة إلاّ أحد هؤلاء الرجال الذين نعموا بصداقة
فتيات مكة والمدينة واستمتعوا بحديثهن والجلوس إليهن لقضاء ساعات هو
ومرح على غرار تلك الساعة التي يطلبها جميل بن معمر من حبيبته بشينة إذ
يقول لها :

وساعة منك ألهوها وإن قصرت

أشهى إلى من الدنيئاً وما فيها

ويحدثنا ابن أبي ربيعة في زهر أنه التي في شبابه الغض بفتاتين فقالت له
إحداهما : ادن منى يا أبا الخطاب أسر إليك شيئاً - فلما دنا منها دنت الأخرى
وجعلت تعضه فها شعر بعض هذه من لذة سرار الأخرى !! وما كان ليلته من
سرارها إلاّ إذا كان خليعاً فاجراً - وقد قس عمر هذه الحكاية الماجنة على
الوليد بن عبد الملك عندما حرك رداه عن كتفه ليصلحه فرأى الوليد على منكبه
أثر العضة - واستغرق الوليد في الضحك - ولما سئل عمر عما أضحك أمير المؤمنين
قال : مازلنا في حديث الزنا حتى رجعنا من رحلتنا سوياً .

ويقول الرواة إن نسوة من المدينة اجتمعن فذكرن عمر وشعره وظرفه وبجاسه وحديثه الشهى فتشوقن إليه وتمنينه - فقالت إحداهن أنا لكنّ به - فبعثت إليه رسولا أن يؤا في الصوّرين ليلة سمّتها فوافاهن على رواحله فجلّسهن حتى طلع الفجر وحان انصرافهن فقال لهن . والله إنني لمحتاج إلى زيارة قبر النبي في مسجده ولكني لأنخط بزيارتكنّ غيرها ثم انصرف راجعا إلى مكة .

وما من شك في أن هذه الأمسيات الجراء وغيرها من المغامرات الغرامية الصاخبة قد حدث بابن أبي ربيعة إلى قوله المأثور في مطلع قصيدته الشهيرة :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعُشِّقْ وَلَمْ تَنْدِرِ مَا الْهَوَى

فَكُنْ حَجَرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلَسًا

ويبلغ الفجور بعمر أن يذهب إلى (الثريا) محبوبته المفضلة ومعه أحد أصدقائه فتخرج وتري هذا الصاحب وتبادر إلى ضرب عمر بأصابع يدها اليمنى وبها خواتم فاسودت ثنيتاه - أي السنين الأماميين - وكانت النساء في ذلك العصر يضعن الخواتم في أصابع أيديهن العشرة .

أما استهتار النساء بالقيم الاجتماعية ونزوعهن الجامح إلى العبث واللغو غير البريء في ذلك الوقت فيوضحه ما جاء بكتاب الأغاني من أن « الثريا » ذهبت إلى بيت عمر وكان أخوه راقداً مكانه فارتمت « الثريا » عليه قبله فاستيقظ أخوه من نومه وأخذ يلعنهما ويلعن أخاه الفاسق .

ومن دلائل تجاهل الناس لتعاليم الدين الإسلامي في ذلك الحين ولما يمضي على ظهوره غير سنوات قلائل - أن سكان الجزيرة العربية كانوا لا يجدون في هذه الفترة حرجا ولا عيباً في أن يخالط الفتى الفتاة ليلا فيتحدث إليها على انفراد أو يتحدث الفتيان إلى الفتيات على هذه الصورة ولا يرون في كل ذلك منكراً .

وتماذى الشعراء في التشبيب بالحرائر وسيدات أشراف قريش لدرجة أن الشاعر الأحوص لم يتورع عن التشبيب بالسيدة سكينه بنت الحسين ويكنى لها

باسم مستعار هو «عقيلة» على الرغم من أن جدها هو رسول الله - ويقال إن هذا الأحوص نفسه كان متها في عرضه لشهرته بالشذوذ الجنسي وأنه كان يراود خبازي الوليد بن عبد الملك عن أنفسهم .

وفي هذا العصر المليء بالاستهتار والجسوح في التمتع بالشهوات كان للمخنشين شأن كبير إذ كانوا من السكثرة بحيث صاروا وباءاً اجتماعياً كان لابد من وضع حد لتفاقمه واستفحال شره المستطير البالغ الضرر والخطورة .

ومن الغريب أن معظم المغنين والمدينين في ذلك الوقت كانوا من هذا الصنف الوضيع من الرجال - ويقال إن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك أمر وَاِليَّهُ على مكة أن يخصيهم ففعل - وذلك بعد أن بلغ أمرهم مبلغاً هائلاً إذ أفسدوا أخلاق معظم نساء مكة بما كانوا يأتون من دعارة خليعة ماجنة .

ومن أمثلة فحش هؤلاء المخنشين وطغيانهم في الفجور في غير مبالاة أن الدلال (المغنى المخنث) كان يصلى خلف الإمام بمكة - فقرأ الإمام « وَمَالِي لَا أُعْبِدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » - فقال الدلال - لأدرى والله - فضحك أكثر الناس وقطعوا الصلاة - فدعاه الوالى وسأله عن مزاحه هذا - فقال : ظننت أنك قد تشككت في ربك فَشَبَّتُكَ - فضحك الوالى وَحَدَّثَ رَهَ العودة إلى ذلك - وكان هذا الوالى هو الذى أمَّ الناس فى الصلاة - ولم يقم الحد على هذا العاثر بفريضة الصلاة فى المسجد واكتفى بتحذيره وهذا أضعف الإيمان .

وهذا الدلال الوقح يتماذى فى استهزائه بالقيم الدينية وبفرائض الدين الإسلامى وماله من حرمة وتقديس - فيخرج من سبيله الخلقى صوتاً قبيحاً وهو يسجد فيسمعه المصلون وهو يقول فى سخريه سمجة - سُبْحَانَكَ يَا رَبِّ - سُبْحَانَكَ أَعْلَى وَأَسْفَلَى ، فيضحك المصلون عوضاً عن أن ينكروا به أشد التنكيل لفدلته الشنعاء .

وكان المخنثون فى ذلك العصر الإيسلامى الأول كثيرين فى مكة والمدينة بمهنة خاصة ومنهم الغريض وطويس وابن عائشة والدلال الذى تقدم ذكره

وغيرهم - وكانت النساء لا يأنفن من مجالستهم وسماع المغنين منهم وقضاء
الأمسيات الصاخبة معهم ولا سيما المتهتكات منهن - من ذلك أن الدلال كان يلزم
أم سعيد وبنت ليلى بن الحكم بن أبي العاصي - وكاتتا من أجن النساء - فتركبان
فرسين وتستبقان عليهما حتى تبدو خلخيلهما - فقال معاوية لمروان بن الحكم :
أكفى بنت أخيك - فحفر لها بئرا وغطاها بحصير - ولما مرت عليها وقعت بها
فكانت لها قبراً - وهرب الدلال بعد ذلك من المدينة إلى مكة خشية العقاب .
وهذا يدل على تهتك النساء حتى المتعديات منهن إلى أعرق الأسر الحربية .

ويحدثنا صاحب الأغاني عن الغريض المغنى المخنث وقد أطرب بغنائه جماعة
من الرجال والنساء في ليلة ساهرة استمرت حتى الفجر وهذا يدل على أن حفلات
الغنم الساهرة كانت تضم الرجال والنساء في مجتمعات كلها المتعة واللذة وكان
للشعراء الصدارة فيها يستمعون إلى قصائدهم تلحن وتغنى ويطرب لها النساء
والفتيات في جو كاه المرح البريء وغير البريء وقد جاء الرجال إلى هذه الحفلات
في يوم السباسب وفي أيديهم باقات الأزهار والرياحين يقدمونها إلى النساء
والفتيات على غرار عاداتهم في الجاهلية وعلى رءوس ساداتهم العمام الصفرة .

وكان للمغنين شأن عظيم في ذلك العصر الذي عاشته عائشة بنت طلحة .

والواقع هو أن تلك الحقبة من تاريخ صدر الإسلام كانت حافلة بالمتناقضات
وقد وصفها الأستاذ الكبير أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) قائلاً : إنه
بجانب الحياة الجميلة الوقورة التي تصفها لنا كتب طبقات المحدثين والفقهاء
والمفتين كانت تسود الحجاز حياة أخرى هي حياة فرح ومرح وطرب وشراب
تصفها لنا كتب الأدب وخاصة كتاب الأغاني . . . فقد كان بالحجاز زهد وورع
وتقوى وحديث وفقه وكان بالحجاز شراب وتشيب بالنساء - حتى في موسم
الحج - وهو ولعب كثير - وكما انتجت الحياة الأولى علماً كثيراً انتجت الحياة
الثانية فناً بديعاً من غناء وتنادر وأدب - ومن العجيب أن يفوق هذا الفن في
الحجاز مثيله في العراق والشام - وعلى ما يظهر لنا - فقد امتلأت مكة والمدينة
وضواحيها بالمغنين والمغنيات حتى يروى لنا أبو الفرج أن المغنين كانوا يخرجون

إلى الحج قوافل - واشتهر في عصر واحد أربعة من كبار المغنين : ابن سريج -
والغريض - ومعبد وحنين .

ويقول الأستاذ أحمد أمين في موضع آخر من كتاب (فجر الإسلام) :
« وكان للفرس أثر كبير في الغناء عند العرب في صدر الإسلام . وفوق هذا فإن
العرب نقلوا عن الفرس صورة مجالس الغناء والاجتماع لسماعه فكانت -
عندنا أنها مجالس للغناء - مجالس للأدب يُصَفَّى لها الشعر ويرقق حتى
يتفق والذوق الموسيقي - أضف إلى هذا ما كانت تستتبعه هذه المجالس من
محاضرات أدبية وقصص جميلة وفكاهات رائعة وتنادر ممتع وتسايق بين الشعراء
والأدباء للظهور فيها ، ونيل الحظوة ، وناهيك بما كان لهذه المنتديات من فضل
على الأدب ، ومباراة في تهذيبه وتجديده .

هذا هو مجمل وصف الزمن الذي عاشته السيدة عائشة بنت طلحة فاستمتعت
بمرحه وعبثه في صباها وشبابها وأسهمت في تهذيب حركته الأدبية بنصيب مرموق
في نضوجها وكهولتها بما أقامته من ندوات ثقافية نافعة كان لها أثر عميق في صون
الأدب العربي الرفيع من عوامل الانحلال والضعف وكان للسيدة نفيسة بنت الحسين -
ضرة عائشة بنت طلحة ومنافستها في الناحية الثقافية والاجتماعية - فضل جدير
بالتقدير والثناء في هذا الشأن .

وكما كان للشعراء - ولاسيما الغزليين منهم - شأن عظيم في تطوير الحركة
الأدبية في العصر الذي نتحدث عنه - كان للمغنين شأن عظيم مثلهم فقد كانوا
الواسطة المباشرة في ذبوع قصائد هؤلاء الشعراء بوضعها في ألحان وإلقائها
بمصاحبة مزاهرهم على الناس رجالا ونساء فسهل عليهم حفظها وتذوق معانيها .
وهكذا تناقلتها الألسن جيلا بعد جيل حتى دوّن أبو الفرج الأصفهاني معظمها في
كتابه الأغاني عندما أراد تسجيل المائة صوت المختارة - وبما يوسف له أشد
الأسف أن (النوتة) الموسيقية لم تكن قد عرفت وقت أن ألف الأصفهاني
أغانيه وإلا كنا استطعنا معرفة إيقاعات هذه الألحان على حقيقتها كتراث
موسيقي عربي .

ومن الشواهد على ما كان يتمتع به المغنون من التقدير والمكانة المرموقة ما يرويه صاحب الأغاني من أن : عمر أبي ربيعة وابن أبي عتيق والأحوص عزموا على زيارة (جميلة) المغنية - فسافروا من مكة إلى المدينة فغنتهم وطربوا حتى شقوا الثياب - وقد حجت جميلة فتبعها إلى مكة كثير من أشرف المدينة . فلما أتت مكة فابلها أشرافها ونساؤها وفتياتها - وعند عودتها سافر معها كثير من أشرف مكة ومعهم ابن أبي ربيعة والحارث بن خالد والعرجي وطائفة من المغنين - فلما استقرت بالمدينة أقامت حفلات غناء ثلاثة أيام وغنى في هذه الحفلات بعد أن غنت هي : ابن سريج - وابن مسجح - ومعبد - وابن محرز الذي كان أول من نقل غناء الفرس إلى أشعار العرب - والغريص - وابن عائشة - ونافع - وبديح - ومالك بن السمع - وطويس - والدلال - وبرد الفواد - ونومة الضحى - وفند - ورحمة - وهبة الله - وعزة الميلاء - وحبابة - وسلامة القس - وخليفة - وعقيلة - والشماس .

وفي هذه الحفلات الثلاث التي امتد صخبها وتبودلت كؤوسها على الشفاه وألقيت فيها القصائد الرصينة والماجنة كانت (جميلة) تلبس برنوسا وألبست جميع المغنين والمغنيات برانس مثلبا ثم قامت ترقص وهي تعزف على عودها فقام المغنون والشعراء يشاركونها الرقصات على أنغام مزاهرهم .

وسلامة التي أحبها القس - وهو ذلك التقى الورع - سلامة هذه يصطحبها ابن عتيق الشاعر إلى عثمان بن حيّان المرئى عندما جاء والياً على المدينة وأراد أن يطهرها من المغنين والمفسدين وأهل الزنا والفسق - ثم زال ابن عتيق بعثمان حتى أذن لسلامة أن تغنى فغنت وطلبت منه العفو عن أهل المجون فعفى عنهم إكراماً لسلامة وغناء سلامة ! ! ويقال إن الإمام مالك بن أنس أجاد الغناء وغنى فيه الأصوات ولولا نصيحة والدته بأن يترك الخناء إلى الفقه لكان مالك من المغنين وليس إماماً من أئمة الفقه الإسلامي الأربعة .

ويقص الرواة حكاية تدل على كبر مقام المغنين حتى لدى الخلفاء - فقد طلب الوليد بن يزيد الخليفة الأموي أن يرسل إليه معبد المغنى بالبريد - ومعبد هو

شيخ المغنين فى ذلك العصر - وكان يمارس التجارة إلى جانب التلحين والغناء - فلما حضر من المدينة أمر الوليد بأن تملأ بركة بالخمر وكان كلما أتم معبد غناء لحن تجرد الوليد من ثيابه وألقى بنفسه فى البركة لينهل منها - ثم يمنح معبدا عطاءً جزيلًا ويعيده إلى المدينة مكرما فى موكب فخيم .

وفى هذه الأمثلة ما يكفى للدلالة على أن دؤلاء المغنين كان لهم مكانة مرموقة فى عصر عائشة بنت طلحة لا يفوقها إلا مكانة شعراء الغزل .

ولنتطرق الآن إلى تناول حياة السيدة عائشة الخاصة بالشرح وانبداً بحياتها الزوجية وما اكتنف هذه الحياة من أحداث أليمة أبعدتها عن الاستقرار العائلى الذى تزدده كل امرأة ليحيطها بهالة من الرعاية والحب والحنان كزوجة وأم .

فعلى الرغم من جمالها الباهر وفتنتها الغامرة وعليها الغزير وذكاؤها المتوقد لم تكن هذه الغادة الفاتنة موفقة كل التوفيق فى حياتها الزوجية - فقد تزوجت ثلاث مرات وفقدت أزواجها الثلاثة دون أن تذوق حلاوة الاستقرار الأسرى فى عيشة رغدة طويلة الأمد - وقصة زواجها المتكرر دونتها كتب تاريخ الأدب وفصلها صاحب الأغاني فى إسهاب .

وأول أزواجها وأبو عذرها هو ابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ولم تكن تحبه ولم يكن فى أحلامها الذى تطالب الحب والحنان فى كنفه - فكانت تلقاه متجهمه وتعرض عن التحدث إليه وترد عليه التحية فى فتور ظاهر - وكان يتحمل منها هذا الصدود فى صبر وأناة ويفاتحها بحبه الصادق لها فلا تخرج عن الصمت ولا تلفظ بالرفض أو القبول . واستمر الحال على هذا الجفاء الصامت بعض الوقت إلى أن قالت لها خالتها عائشة أم المؤمنين : إن ابن خالك عبد الله قد خطبك إلى - وإني قد وافقت على هذه الخطبة ، ولم يبق إلا أن تهينى لها نفسك وتأخذى فى أسبابها .

واستقبلت عائشة حياتها الزوجية مع عبد الله كارهة ولم تلد من أحد أزواجها سواه - ولدت له عمران وبه كانت تكنى - وعبد الرحمن - وأبا بكر - ونفيسة

وقد تزوجها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك - وطلحة وكان من أجواد قريش - ولكل من هؤلاء عقب .

وقد صارمت عائشة هذا الزوج الرحيم الذي كان زينة قريش وعز البطحاء وكان يلقَّب بفتى تيم لما كان له من بشاشة وسماحة وجه وجاه عريض ونسب يصله برسول الله عن طريق المصاهرة - فعائشة أم المؤمنين عمته وأول الخلفاء الراشدين أبو بكر جده - صارمته زوجته عائشة فكانت تجمد السعادة في بعده عنها فتتصرف إلى لدايتها مرحلة تسمع منهن حديث فتيان البادية الذين كرسوا حياتهم للغزل العفيف البريء وحديث فتيان مكة والمدينة الذين يحيون للعبث الماجن والشعر الغزلي المكشوف .

وتخرج إلى الحج معللة للنفس بأن تلتقي بهذين النوعين من الشبان وكانت قد علمت وهي في المدينة - بأمر عمر بن أبي ربيعة وبثروته الطائلة وتشجيعه بالنساء ورغبت في لقائه لتحدث إليه وتمرضه على قول الشعر فيها - فكانت تتمثل في حجتها هذه بقول الشاعر العرجي :

مِنَ اللَّائِي لَمْ يَحْجُجْنِ يَبْغَيْنِ حَسْبَةَ

وَأَسْكُنُ لَيْتَقُتُلُنَ الْغَرِيرَ الْمُغْتَفِلَا

وأقبلت دلي مكة في موكبها الرائع الفخم يسبقها عبير المسك وتحيط بها الجوارى إحاطة الهالة بالقمر وإلقاها ابن أبي ربيعة ويهردها حسنها فيقول فيها الأبيات التي أولها :

إِنِّي وَأَوَّلَ مَا كَفْتُ بِحَبِّهِ

عَجَبٌ ، وَهَلْ فِي الْحَبِّ مِنْ مُتَعَجَّبٍ

وقد دوَّنتُ هذه الأبيات فيما تقدم من هذا البحث - وقد رآها ابن أبي ربيعة وهي ترمى الجمار .

وعادت عائشة إلى المدينة راضية عن رحلتها ومصرّة على مغاضبة زوجها ومصارمته فكانت تسيء معاملته وتنفر منه في عنف وجروح حتى فكر في طلاقها والخلّاص منها على الرغم من حبه الغامر لها - واستمرت على قسوتها وألحّت فيها فاضطر إلى القسم بأنه لن يقربها ولن يمسه بعد اليوم فتغضب وتذهب إلى بيت خالتها أم المؤمنين فتبقى عندها أربعة أشهر .

وذهب إلى عمته للبت في أمر هذه الزوجة النافرة فتسأله أم المؤمنين إذا كان يرغب حقاً في طلاقها فيبتسم في مرارة وينشد :

يَقُولُونَ طَلَّيْتَهَا لِأَصْبَحَ ثَاوِيًا
دُقِيْمًا عَلَى الْهَمِّ - أَحْلَامُ نَائِمٍ
وَلَا فِرَاقِي أَهْلَ بَيْتِ أَحِبِّهِمْ
لَهُمْ زُلْفَةٌ عِنْدِي لِأَحْدَى الْعِظَامِ

وفي هذين البيتين دلالة واضحة على حب هذا الزوج التعس لزوجه الجميلة النافرة الشرسة الأخلاق نحو ظلمها والتي تروى في الحرية والحياة الطليقة المفكرة كل المتعة والهناء .

وعادت عائشة إلى بيت الزوجية ليستأنف الزوجان حياتهما الشاقة العسيرة المليئة بالمصادمات والمصارمات إذ لم تغير من سيرتها فتظل قاسية على زوجها نافرة منه زاهدة فيه - ولقد قالت أم المؤمنين في بنت أختها وهي تكفكف دموعها عقب موت عبد الله بن عبد الرحمن : مارأيت كعائشة بنت طلحة غلظة قلب وجنماء طبع - مات زوجها عبد الله وهي عنده ثم ادعت عينها ولا فتحت فاهها عليه - وكانت أم المؤمنين تلومها على ذلك وتعهده ذنباً من ذنوبها .

ومرت أيام الحزن على الزوج الراحل - وسمع مصعب بن الزبير ابن العوام بجمالها وفتنتها وكان أميراً على العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير - وكان مصعب وسيماً أنيقاً لا تنقصه الشجاعة والإقدام وكان قد تزوج السيدة سكينة

بنت الحسين بعد موت زوجته فاطمة بنت عبد الله بن السائب أم ولديه عيسى وعكاشة. ويصف الرواة السيدة سُكينة بأنها كانت جميلة الوجه فصيحة اللسان حلوة الحديث تحب المرح والدعابة البريئة في طهر وخفر. وكانت برزة تجالس الرجال وتبادل معهم شتى الأحاديث وكان شعراء الغزل والمغنون يختلفون إلى مجالسها ويسمرون عندها جانباً من الليل وكانت من أجل عليها وثافتها ومجالسها الأدبية حديث الناس في الحجاز والعراق والشام. وكان زوجها مصعب يحمده لذة في سماع إعجاب الشعراء والمغنين بجمالها ونبلها وثافتها ولكن أصدقاءه رسموا في تخيلته صورة مغربية أخرى هي صورة الفاتنة عائشة بنت طلحة وماهى عليه من جمال رائع وبهاء باهر ودلوه على عزّة الميلاء المغنية لتكون رسوله لدى عائشة. فذهبت إليها وعادت تصفها لمصعب على النحو الذى تقدم ذكره في هذا البحث وقالت عن العيين فيها وهما كبر الأذنين والقديين إن أحدهما يواريه الخمار وأما الآخر فيواريه الخف.

وماهى إلا بضعة أيام حتى تزوج مصعب من عائشة وأمرها ألف ألف درهم وارتحل بها إلى العراق. وهناك استقبل العراقيون الزوجين في حفاوة بالغة كثير فيها الطعام والشراب وأطعم في أثنائها الفقراء والمحتاجون.

ورأى عبد الله بن الزبير أن أخاه مصعب قد أسرف في البذخ من أجل هذا الزواج فعزله عن ولاية العراق ولكن مصعب ظفر برضاء أخيه بعد أن ذهب إلى مكة واسترضاه.

وكان من الطبيعي أن تجتاح الغيرة قلب السيدة سُكينة من ضميرتها عائشة ولكن الصبر والزمن كانا كفيلاين بأن يُخمداه لعل هذه الغيرة في فؤادهما فترجع إلى حياتهما الوادعة الأولى.

ويصف لنا أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الآغاني» كيف جاء مصعب بن الزبير بأم منظور الماشطة لتجلو له عائشة ليلة الزفاف كما جلت بثينة ففعلت. وكانت أن جلت بنت طلحة فألبستها قلادة بلح ومخنقة واسطتها تفاحة وضميرت

شعرها وجعلت في فرقها شيئاً من الخلق (وهو الطيب الجيد) !!! فانظر كيف كانت زينة النساء يوم العرس أساسها البلح والتفاح ومن يدرى ماهى الاصناف الأخرى من الفياكة التي كن يتجملن بها ليلة الزفاف !!!

وعادت عائشة إلى الحجاز حاجّة في موكبها الفخم وجواربها العديسات فجاءتها الثريّا محبوبة ابن أبي ربيعة المفضلة وأخواتها ونساء من أهل مكة القرشيات وغيرهن - وكان الغريض المغنى فيمن جاء - فأمرت للنسوة بكسوة وألطف فكافت تخرج كل منهن ومعهما جاريتها محملة - فقال الغريض أين نصيبي ثم غنى في شعر جميل بن معمر :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فَالْفَوَادُ عَمِيْدُ

وَشَطَطْتُ نَوَاهَا فَالْمَسْزَارُ بَعِيْدُ

فأدخلته وطلبت منه أن يغنيها مافي نفسها فأنشدها قول كثير في عزّة :

وَمَا زِلْتُ مِنْ لَيْلَى لَدُنْ طَرٍّ شَارِبِي

إلى اليوم أخفي حُبَّهَا وَأَدَايَجِي

وَأَحْمِلُ فِي لَيْلَى لِقَوْمٍ ضَغِيْنَةٍ

وَتُحْمَلُ فِي لَيْلَى عَلَى الضَّغْنَانِ

فقال ماعدوت مافي نفسي وأجزلت عظامه .

وقال الشعبي المحدث إن سبب طلبها هذين البيتين هو حب مصعب العنيف لها وإسرافه في إسعادها وتنفيذ رغباتها ونزواتها بما أغضب عليه أخوه عبدالله وأهل العراق ولسكنه لم يأبه بالعاذلين واستمر على إرضائها والتلذذ من إطراء الناس لجملها وفتنتها وذكاها وثقافتها .

وانتهى عائشة من أداء المناسك فيرسل إليها الحارث بن خالد الغريض المغنى ليستأذنها في أن تراه ولسكنها تخرج عائدة إلى العراق دون أن تأذن له - فطلبت إلى الغريض أن يغنيها وهي في المدينة فأنشدها شعر الجارث في رفضها مقابلته :

زَعَمُوا بِأَنَّ الْبَيْنَ بَعْدَ غَدٍ
فَالْقَلْبُ يَمَّا أَحْدَثُوا يَجِفُ
وَالْعَيْنُ مِنْدُ أَجْدَ بَيْنَهُمْ
مِثْلُ الْجُمَانِ دُمُوعُهَا تَمَكِّفُ
وَمَقَالُهَا وَدُمُوعُهَا سَحْمُ
أَقْلِيلُ حَنِينِكَ حِينَ تَنْصَرِفُ
تَشْكُو وَتَشْكُو مَا أَشْتَ بِنَا
كُلُّ بَوْشَكِ الْبَيْنِ مُعْتَرِفُ

ثم طلبت من الغريض أن يغنيها في شعر غير شعر الحارث بن خالد بمناسبة
رحيلها عن مكة بعد الحج فغناها الأبيات التالية لعمر بن أبي ربيعة وقد قالها فيها
تليحاً دون ذكر اسمها بعد أن غضب فتيان قبيلة تيم ولاموه على ذلك فوعد بالآلة
يذكر اسمها في شعره :

أَجْمَعْتُ خُلَّتِي مَعَ الْفَجْرِ بَيْنَنَا
جَلَّلَ اللَّهُ ذَاكَ الْوَجْهَ زَيْنًا
أَجْمَعْتُ بَيْنَهَا وَلَمْ تَكُ مِنْهَا
لَذَّةَ الْعَيْشِ وَالشَّبَابِ قَضَيْنَا
فَتَوَلَّيْتُ حُمُولَهَا وَاسْتَقَلَّتْ
لَمْ تَمَلْ طَائِلًا وَلَمْ تَقْضِ دَيْنًا
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ لَمَّا
أُرْسِلَتْ تَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَيْنَا
أَنْعَمُ اللَّهُ بِالرَّسُولِ الَّذِي أُرِ
سِلَ وَالْمُرْسِلِ الرِّسَالَةَ عَيْنَنَا

فأعجبت عائشة بهذا التلطف من عمر بن أبي ربيعة وبهذه البساطة في التشبيب بها دون ذكر اسمها .

وجاءها في المدينة قادمٌ من مكة فقالت له : ما فعل الأعرابي بعد أن رفضنا لقاءه . فلم يفهم الرجل ما أرادت . ولما عاد إلى مكة سأله الحارث بن خالد فقص عليه الخبر فأرسله مرة ثانية ينشد لها :

مَنْ كَانَ يَسْأَلُ عَنَّا أَيْنَ مَنَزَلُنَا
فَالْأَقْحَوَانَةُ مِنَّا مَنَزَلٌ قَيْنُ
إِذْ نَلْبَسُ الْعَيْشَ صَفَرًا مَا يَكْدُرُهُ
طَعْنُ الْوُشَاةِ وَلَا يَنْبُو بِنَا الزَّمَنُ
لَيْتَ الْهَوَى لَمْ يَقْرَبْنِي إِلَيْكَ ، وَلَمْ
أَعْرِفْكَ إِذْ كَانَ حَظِي مِنْكُمْ الْحَزَنُ

وكما عضت الغيرة قلب سُكينة بنت الحسين من ضررتها عائشة أخذت هذه الغيرة تنفذ إلى قلب عائشة من سُكينة التي سكن ريح الغضب في فؤادها الكسير واستسلمت إلى واقع أمرها وعادت إلى سيرتها الأولى تهتم بالشعراء والمغنين وتجتمع بهم في ندواتها الأدبية على عاداتها فترويهم وتأخذ منهم وتنافس في كل ذلك ضررتها الفاتنة عائشة دون أن تصل إلى أيتها وماتضم مجالسها الأدبية ومنتدياتها الحافلة من بدخ وعظمة .

وتدفع الغيرة عائشة إلى مغاضبة زوجها مصعب لمجرد ذكره سُكينة أو كلما ذهب إليها ليعطيها حقها في الزوجية . وتمسدت عائشة في مغاضبتها فركنت إلى حجرة نومها ومكثت فيها لا تبرحها وأقسمت ألا تكلمه . فضاق بهذا الخصام ذرعا ولجأ إلى صديقه الحميم الشاعر ابن قيس الرقيات ليُصلح بينه وبينها فأقبل عليها ولم يكده يجلس إليها حتى أنشدتها قوله :

إنَّ الخَلِيطَ قَدْ أَرْمَعُوا نَزَكِي
فَوَقَّعْتُ فِي عَرَصَاتِهِمْ أُنْسِي
جَنِّيَّةً بَرَزَتْ لِنَقْتَلِي
مَطْلِيَّةً الْأَصْدَاغِ بِإِلْسِكِ
عَجَباً لِمِثْلِكَ لَا يَكُونُ لَهُ
خَرْجُ الْعِرَاقِ وَمِنْبَرُ الْمَلِكِ

فَضَحِكْتَ وَرَضِيتِ وَعَادَتْ إِلَى مَخَاطِبَةِ زَوْجِهَا بَعْدَ أَنْ أَحْلَاهَا الشَّعْبِي فَقِيصَهُ أَهْلُ
الْعِرَاقِ مِنْ يَمِينِهَا - وَتَدُلُّ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى عَظَمَتِهَا بَيْنَ أَهْلِ زَمَانِهَا وَأَهْلِهَا وَمَكَاتِهَا
الرَّفِيعَةِ حَتَّى أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ يَعْجَبُ كَيْفَ لَا تَكُونُ مَلَكَهٌ مُتَوَجَّةً بِالْفِعْلِ وَهِيَ عَلَى
مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ ثَرَوَةٍ طَائِلَةٍ وَسِيَادَةٍ وَسُلْطَانٍ .

وَبَلَغَ مِنْ صُلْفِهَا وَتَعَنَّجِهَا الْمُتَكَبِّرَةِ وَتَرْفِهَا غَيْرِ الْمَحْدُودِ أَنْ دَخَلَ عَلَيْهَا مُصْعَبُ
وَهِيَ نَائِمَةٌ فَاقْبَضَهَا بِأَلْيِ فِي حَجَرِهَا بِشَانِي لُؤْلُؤَاتٍ قِيَمَتِهَا عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ
فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ : نَوْمَتِي كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ هَذَا اللَّؤْلُؤِ - وَهَذَا هُوَ مُنْتَهَى
الصَّافِ وَالْكِبْرِيَاءِ .

وَيَدُلُّنَا تَارِيخُ سِيرَتِهَا عَلَى أَنَّ زَوْجَهَا مُصْعَبُ كَانَ لَا يَنَالُ مِنْهَا وَطَرًا إِلَّا بِتَلَاخٍ
يَنَالُهَا مِنْهُ وَأَنَّهُ كَانَ يَضْطَرُّ إِلَى ضَرْبِهَا أحياناً وَلِذَاكَ احْتَالَ كَاتِبُهُ ابْنُ أَبِي قُرَّةٍ وَذَهَبَ
إِلَيْهَا مَعَ أُسُودَيْنِ وَأَمْرَهُمَا بِحْفَرٍ بَثْرَ قَائِلًا لَهَا إِنَّهُ أَتَى لِدَفْنِهَا حِينَمَا بِأَمْرِ زَوْجِهَا -
فَأَخَذَتْ تَبْكِي وَتَتَوَسَّلُ إِلَى الْكَاتِبِ وَتَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ إِصْرَارِ الْأَمِيرِ هَلِي قَتْلَهَا فَقَالَ
لَهُ يَخْشَى أَنَّهَا لَا تَحْبِبُهُ - فَعَدَلَتْ عَنْ مَجَافَاةِ مُصْعَبٍ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ - وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَخْلَاقِهَا
النَّافِرَةِ وَكِبْرِيَاءِهَا الْمُتِمَادِيَةِ الْحُدُودِ .

وَمَرَّتْ أَرْبَعَةُ أَعْوَامٍ عَلَى هَذَا الزَّوْجِ الْمُتَقَلِّبِ بَيْنِ الرِّضَى وَالْهَجْرَانِ وَالْمَصَارِمَةِ
وَالْإِسْتِرْضَاءِ وَالْغَيْرَةِ وَالْقَنَاعَةِ بِالْوَاقِعِ - فَكَانَتْ عَائِشَةُ تَطْيِيبُ خَاطِرِ مُصْعَبٍ حِينَمَا
وَتَغَاضِبُهُ أحياناً وَيَرْضَى مِنْهَا بِالْقَلِيلِ إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ الْقَوْلَ فَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ بِشَرٍّ
لأنَّهُ كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ إِعْجَاباً بِهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ خَلْقِهَا الْمَيَالِ إِلَى الشَّرَاسَةِ وَالسَّكِيدِ -

من ذلك أنها كانت مجافية له فلما عاد من إحدى حروبه ضد الأمويين نصحت إليها خادمتها أن تخرج إليه لتسترضيه - فخرجت وهنأته بالعودة وجعلت تمسح التراب عن وجهه فقال لها : إني أشفق عليك من رائحة الحديد - فقالت : هو والله عندي أطيب من ريح المسك الأذفر - وهذه اللفنة الحلوة كانت من أسعد الأويقات غير الكثيرة التي تمتع بها هذا الزوج من محبوبة قلبه ومالكه نفسه وسيدة وجدانه.

وبدأ الدهر يقلب ظهر المجن لمصعب فخذله معظم أصحابه في القتال ضد الأمويين في مقابلة ماتلقوه منهم من الهدايا والمال - وقد رخص هو مهادنة أعدائه ولم يقبل منهم الأمان وولاية العراق طوال حياته وعطاءً من المال يقدر بـ عدة آلاف من الدنانير - وفضل مواصلة الحرب ضدهم فخرج إلى المعركة حيث تفرق عنه مناصروه وبني في الميدان هو وسبعة من أصحابه منهم ولداه من زوجته الأولى فاطمة بنت عبد الله بن السائب : عيسى وعكاشة . وقد أشار عليها باعتزال المعركة فأبى وتقدم عيسى فقتل وفرَّ عكاشة ناجياً بحياته وظل مصعب يقاتل حتى أثنى بالجراح فخر به عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقتل عليه وحمل رأسه إلى عبد الملك بن مروان الذي قال عن مصعب إنه كان من أشجع الناس .

وهكذا أسدل الستار على الفصل الثاني من قصة حياة عائشة بنت طلحة الزوجية وقد أشرفت على سن السكولة - وقد تمتعت هذه السيدة الجميلة بأحسن ما تصبو إليه المرأة من العز والسودد طوال وجودها عند مصعب بن الزبير فكان من دلائل أہبتها الفسائقة أن حجت السيدة عائكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان زوجة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي قتل مصعب في خلافته - فجهدت نفسها أن يكون موكبها إلى الحج ذا أبهة فخمة - ولكن حينما كانت بين المدينة ومكة إذ بموكب آخر قد جاء وضغطها وفرق جماعتها - فسألت فقيل لها إن الموكب لخازنة عائشة بنت طلحة - ثم جاء موكب آخر فسألت فقيل لها هذه ماشطة عائشة وبعد مواكب عدة أقبل موكب عائشة تحفه ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهواذج - فقالت عائكة مبهورة : ما عند الله خير وأبقى .

فهل بعد هذه الفخامة والترف المحفوف بالإسراف شيء ترجوه امرأة حباها
الله بالجمال والمال والعز الوارف المقيم ؟

وجاء الزوج الثالث ليلاعب دهره في قصة بنت طلحة الزوجية - فقد كان هذا
الزوج الثالث والأخير من قبيلتها تيم وهو عمر بن عبد الله بن معمر - وكان عظيم
القدر رفيع المنزلة يعتز بنفسه ويحافظ على كبريائه - وكان فارح القامة مهيب الطلعة
تبدو عليه آثار النعمة واضحة - وكان مقداما وفارسا بأسلا يهوى الحروب
ويخوض غمارها غير هيب ولا وجل - وقد انتصر في كثير من المعارك وهو أحد
قواد مصعب بن الزبير الذي كلفه بقتال الخوارج الأزارقة فهزمهم شرهزيمة وانتصر
عليهم انتصاراً ساحقاً - وقد ولّاه مصعب على بلاد الفرس فدبر شئونها في حزم
وحسن تصرف .

ولما قتل مصعب بن الزبير لم ير عمر بن معمر بداً من الانضمام إلى بني أمية
وأقبل على الخليفة عبد الملك بن مروان فأخلص له الطاعة ودان له بالولاء .

وكان عمر بن معمر ممن فتنوا بجمال عائشة وكان يود أن تكون له زوجة ولذلك حزن
أشد الحزن حين زفت إلى ابن خالتها عبد الله بن عبد الرحمن ولما سمع أخفى حزنه
وكنم غرامه في قرارة نفسه .

وقد تزوج بعد ذلك من رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية وكانت ذات
جسم رائع الحسن ووجه جهم وأنف كبير .

ويذهب عمر في رحلة إلى العراق ويسمع في الكوفة أن عائشة قد خطبت لبشر بن
مروان وهو من ألد أعداء زوجها مصعب ومن الذين عملوا على قتله - فأنسرع إلى
عائشة وقد أشرف على الشيخوخة فرحبت به مشرقة الوجه باسمه الشجر - وكان
هذا اللقاء سبباً في فسخ خطبتها من بشر بن مروان وقبولها الزواج من عمر .

وكان هذا الزواج من الترف والبذخ بحيث ظل حديث الناس في الحجاز
والعراق والشام - وقد وصفته جارية عائشة في دقة وتفصيل يستحقان التدوين -

فهي تقول : و تزوج عمر بن عبد الله من عائشة بنت طلحة وبنى بها بالحيرة ومهّدت له يوم عرسه فرشاً لم ير مثلاً ، سبع أذرع في عرض أربع - وحمل إليها ألف ألف درهم مهراً ، وخمسة آلاف درهم هدية - وقال لي : لك على ألف دينار إن دخلتُ بها الليلة - وأمر بالمال فحمل وأُلتج في الدار وغطّي بالثياب - وخرجت عائشة فقالت لي : أهذا فرش أم ثياب - قلت : انظري إليه - فنظرت فإذا مال - فابتسمت - فقلت لها : أجزأ من حمل هذا أن يبيت عرباً - قالت : لا والله - ولكن لا يجوز دخوله إلا بعد أن أتزين له وأستعد - قلت : فيم ذا ؟ فوجهك والله أحسن من كل زينة - وما تمدّين يدك إلى طيب أو ثوب أو مال إلا وهو عندك - وقد عزمتم عليك أن تأذني له - قالت : افعلي - وكان دخوله بها في الليلة نفسها وحكايته المأجنة مفصلة في كتاب الأغاني وليس من الملائم ذكرها في هذا البحث .

وحزنت رملة على اتخاذ زوجها ضرة لها واشتعلت نار الغيرة في قلبها كما اشتعلت في قلب سوكينة بنت الحسين حين تزوجت عائشة من مصعب - ويحلو لعائشة المشاكسة أن تعرض برملة وأن تسخر من جهامة وجهها وكبر أنفها ويغضب عمر بن معمر لزوجته الأولى ويغلظ لعائشة القول على هذه الإهانة فتبكي وتنصرف عنه منكرة عليه هذه القسوة في معاملتها - والعجيب في هذه المرأة الفاتنة أنها لم تحد عن البحث عن الأسباب التي تغضب أزواجها وقد تعدت الأربعين من عمرها حينما أقدمت على الزواج للمرة الثالثة .

والواقع هو أن المؤرخين لم يتجنوا عليها حين وصفوها بأنها كانت أكثر الناس مغايظة لأزواجها لتثير فيهم الغيرة عليها - فتد قالت لعمر بن عبد الله بن معمر يوماً وقد أمرها أن تنفض التراب عن وجهه : مارأيت الغبار على وجه أحد قط كان أحسن منه على وجه مصعب !! فكاد عمر يموت غيظاً - وقالوا فيها أيضاً : إنها كانت تكلم من يحى لحديثها في رقيق الثياب فإذا أقبل أحد أزواجها ضمت منظرها وقطبت .

ولا يعرف من نساء القرن الأول الهجري امرأة عربية أضنتها علة الغزل

وإستأثرت بقلبها ووجدانها كعائشة بنت طلحة - فقد كانت لا ترى أنها جميلة وذات فتنة دافقة وإغراء جامع إلا عندما يشبب بها شعراء الغزل ولاسيما المشهورين منهم - وكثيرا ما تقول للدائبا : ما أجدر هذا الجمال بأن يثير الأحاسيس فى أفئدة هؤلاء الشعراء أمثال ابن أبى ربيعة فيخطبوا على من صور خيالهم ما يصف هذا الجمال على حقيقته فى روعته وبهائه - وكانت لا تنفك عن قضاء النهار بين المغنين ينشدونها الأشعار الغزلية الملحنة فإذا أقبل الليل كانت تجلس إلى صديقاتها ولا حديث لها ولا حديث لهن إلا ما قيل حديثا من الشعر الغزلى العذب الجرس وما اتصل من سائر الشعراء الغزليين .

وكانت الأيام التى قضتها عائشة الحسنة عند زوجها عمر بن عبد الله حلوذة لذينة على ما خالطها من مصارمة فى بعض أوقاتها - فقد كانت تحب مصعب بن الزبير ويحبها ولسكنه لم يستول على قلبها كما استولى عليه عمر بن عبد الله - فقد كانت فى كنف مصعب معشوقة مدللة ولسكنها كانت فى كنف عمر عاشقة ولطمة ترى فى شخصه قوة تسيطر عليها وتحررها كما تريد فأنفقت أيامها معه خاضعة لسلطانته مطيعة للأوامر التى يصدرها إليها .

ومات عمر فاستبد بها الحزن وجزعت لفقده أشد الجزع وناحت عليه وهى قائمة ولم تنح على واحد من زوجيها الآخرين على هذه الكيفية وكان من عادات العرب فى ذلك الحين أن المرأة إذا ناحت قائمة علم أنها لن تزوج بعد ذلك - وكانت وفاة عمر خلال عام ٨٢هـ (٧٠١م)

ولم يكن عمر بن عبد الله زوجها فحسب وإنما كان عندهما الزوج والحبيب والأخ الذى يحتاج إلى مودته والأب الذى يحتاج إلى حنانه وعطفه - وقد سئلت عن سبب نواحها عليه قائمة فقالت : إنه كان سيد بنى تيم وكان أكرم أزواجى على وأمسهم رحيماً بى وأردت ألا أتزوج بعده .

وقد طلب يدها غير واحد من أشرف قريش فردتهم جميعا - وأبى الحارث بن خالد أن يخطبها لئلا يقال إنه كان يحبها لريبة أو يقول رجال من قريش إن

تشبيهه بها كان لشيء من الباطل - وكان عمرها إذ ذاك حوالى خمسين عاما وما تزال على جمالها وقتنتها الطافحة بالأنوثة الخلابة وبهاها الوضاح.

ومرت الأيام ونحمد حزنها وهدأ جزعها وفرغت للغزل والغناء وعقد الندوات الأدبية في دارها بمكة حيث كانت تقيم عاما وفي دارها بالمدينة حيث كانت تقيم عاما وعلى الأخص في قصرها بالطائف حيث كانت تقضى أعذب أمسيات الصيف في مجالات الأدب والشعر والغناء في جو شاعري جميل وسط منطقة تحيط بقصرها القائم فوق الربوة وقدار تفتت في أرجائها همامات النخيل وانتشرت في أنحائها الحدائق الغناء وبساتين الكروم .

فكان منتداهما (صالونها) أشبه بخلية النحل التي ترشف رحيق الأزهار ثم تودعها الخلية شهيدا مصفى لتذوقه شياطين الشعر العربي ثم تهديه للراغبين سكرة بسكرة .

ولقد استمر المنتدى العائلي يؤدي أجل خدمة للأدب العربي في صدر الإسلام زهاء ثلاثين عاما بعد أن أدى له خدمات متقطعة خلال السنوات الثلاثين السابقة عندما كانت السيدة عائشة بنت طلحة تقطع مراحل صباها وشبابها وكهولتها وهي تشقى أو تنعم بالحياة الزوجية - فكانت في تلك المراحل الثلاث لاتنفك عن عقد الاجتماعات المنفرقة للشعراء ولاسيما شعراء الغزل كلما حجّت أو أقامت بعض الوقت في مكة أو زارت المدينة ومكثت بها ردها من الزمن أو استقرت في العراق في كنف زوجها مصعب بن الزبير وعمر بن عبد الله بن معمر .

وفي كل فترات حياتها الثقافية وطوال الأعوام الستين التي استغرقتها تلك الفترات لم تقصر عائشة في بذل رعايتها الحادية على أهل الشعر والأدب والغناء ولم تبخل عليهم بالعطاء السخي ليسمعوها ما جادت به قرائهم من أدب وشعر قالوه فيها أو في غيرها من النساء ومن غناء لحنوه أنغاما شجتها وطربت لها على إيقاع مزاهر المغنين البارزين في ذلك العصر الأموي الذي أغدق على الحجازيين النعم ليفرغوا لمرحهم وعيشهم ويبتعدوا عن شئون السياسة وإدارة الحكم .

فشيخ الغزليين عمر بن أبي ربيعة الذي لا يتورع عن أن يقصّ في شعره
حكاية الفساة ناهدة الثديين التي أمرها بأن تنطرح على رمل الصحراء وأن تقول
له بعد قضاء ليلة ماجنة معها - قم غير مطرود وإن شئت فازدد - وعمر الذي
يقول :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِيدُ
وَشَفَّتْ أَنْفُسَنَا بِمَا نَجِدُ
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً
إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ
زَعَمُوهَا سَأَلْتُ جَارَتَهَا
وَتَعَرَّتْ ذَاتَ يَوْمٍ تَبْتَرِدُ
أَكَا يَنْعَتُسْنِي تُبْصِرَتِي
عَمَرَ كُنَّ اللَّهُ أَمْ لَا يَقْتَصِدُ

ثم يجعل هذه الفتاة المتهتكة ترد على سؤاله :

قُلْتُ : مَنْ أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ : أَنَا مَنْ

شَفَّهُ الْوَجْدُ ، وَأَبْلَاهُ الْكَمَدُ

ويجعلها تضحك وتحدد له ميعاداً ليلتقي بها وهي ساخنة فيقول :

كُلَّمَا قُلْتُ : مَتَى مِيعَادُنَا

ضَحَكْتَ هِنْدُ ، وَقَالَتْ : بَعْدَ غَدُ

عمر بن أبي ربيعة هذا لا يقول في حضرة عائشة وفي إحدى ندواتها إلاّ مثل
الآيات الآتية التي تفيض عفة ونبلا في مقصدها وعذوبة في جلالها وحكمتها المتينة
وتم عن غزل نقي ليس فيه شائبة من المجون أو الإسفاف :

بِرَبِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ
 فَشَاقَكَ أَمْ لَقِيتَ لَهَا خَدِينًا
 فَقُلْتُ شَكَا إِلَى أَخٍ مُحِبٍّ
 كَبَعَضِ زَمَانِنَا إِذْ تَعْلَمِينَا
 فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بِهِنَّ
 فَذَكَرَ بَعْضَ مَا كُنَّا نَسِينَا
 وَذَوُ الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى
 مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَ
 وَكَمْ مِنْ خُلَّةٍ أَعْرَضَتْ عَنْهَا
 لِخَيْرِ قَلْبٍ وَكُنْتُ بِهَا ضَمِينًا
 أَرَدْتُ بِعَادَتِهَا فَصَدَدْتُ عَنْهَا
 وَلَوْ جُنَّ الْفُؤَادُ بِهَا جُنُونًا

فأين هذا القول العف البرى في الغزل النقي الراقى من قوله حين لقي السيدة ليلي
 بنت الحارث بن عمرو البكرية وهي تسير على بغلة وكان قد شرب بها فيوقفها
 ليسمعها أبياتا فتقول هات فينشدها هذين البيتين من البحر الوافر نفسه ومن
 القافية نفسها في الأبيات السابقة :

أَلَا يَالَيْلُ إِنَّ شِفَاءَ نَفْسِي
 نَوَالِكُ إِنَّ بَخْلِيَّتِ فَتَنَوَّلِينَا
 وَقَدْ حَضَرَ الرَّحِيلُ وَحَانَ مِنَّا
 فِرَاقُكَ فَانْظُرِي مَا تَأْمُرِينَا

فتأمره السيدة ليلي بطاعة الله وترك ما هو فيه من فجور وتواصل سيرها
 معرضة عنه .

ويصطحب الغريض المغنى الحارث بن خالد وعمر بن أبي ربيعة إلى منتدى عائشة بالطائف ويغنى لها الغريض هذه الأبيات الغزلية الحلوة الجرس الشيقة المعاني :

أَمْسَى بِأَسْمَاءَ هَذَا الْقَلْبُ مَعْمُودًا
إِذَا أَقْوَامُ صَحَا يَعْتَادُهُ عِيْدًا
كَأَنَّ أَحْوَرَ مِنْ غُزْلَانِ ذِي نَقَرٍ
أَهْدَى لَهَا شَبَعَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْجِيدَا
قَامَتْ تَرَامَى وَقَدْ جَدَّ الرَّحِيلُ بِنَا
لِتَشْكَا الْفُرْحَ مِنْ قَلْبٍ قَدْ اصْطِيدَا
كَأَنِّي يَوْمَ أَمْسَى لَا تُكَلِّمُنِي
ذُو بُخِيَّةٍ يَلْتَمِخُ مَا لَيْسَ مَوْجُودَا

ولم يقل عمر بن أبي ربيعة في هذه السيدة إلا الغزل الراقى الذي لا يخذش شعورها الرفيع أو يسىء إلى سمعتها العالية المقام بين أهل زمانها فهو يقول في سفرها مرة إلى المدينة بعد أن قضت عامها بمكة :

مَنْ إِقْلَبَ أَمْسَى رَهْنًا مُعْنَى
مُسْتَكِينًا قَدْ شَفَّهَ مَا أَجَنَّا
إِثْرَ شَخْصٍ نَفْسِي قَدَّتْ ذَاكَ شَخْصًا
تَازَحَ الدَّارِ بِالْمَدِينَةِ عَنَّا
لَيْتَ حَظِّي كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا
وَكَثِيرٌ مِنْهَا الْقَلِيلُ الْمُهَنَّسَا

وقد غنى في هذه الأبيات إبراهيم الموصلي وابنه إسحق .

وقضت عائشة حجبها ذات عام ورحلت إلى المدينة مع الفجر حتى لا يتعرض لها
ابن أبي ربيعة فأرسل إليها الآيات الآتية التي تلقفها المغنون ووضعوا لها ألحانا
وترنموا بها في مجالسها الأدبية :

إِنَّ مَنْ تَهْوَى مَعَ الْفَجْرِ ظَعْنُ
لِلْهَوَى وَالْقَلْبُ مَتْبَاعُ الْوَطَنِ
بَانَتْ الشَّمْسُ وَكَانَتْ كَلَمًا
ذَكَرْتُ لِلْقَلْبِ عَاوِدَهُ الدَّرَنُ
يَا أَبَا الْحَرثِ قَلْبِي طَائِرُ
فَأَتَمُّ أَمْرٍ رَشِيدٍ مُؤْتَمِنُ
نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَيْهَا نَظْرَةً
تَرَكَتُ قَلْبِي إِلَيْهَا مُمَرَّتَيْنِ
لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُمَا
غَيْرَ أَنْ أَقْتَلَ نَفْسِي أَوْ أَجُنُ

فقال عائشة حين سمعتها والله إنه يغالى فيما قصد ولا مكنة لم يقل إلا طيبا ولم
ينكر إلا نسيبا رقيقا - وهذا يدل على تقديرها الصائب لألوان الشعر ولا سيما
الشعر الغزلى الرفيع .

وبقيت قصائد بن أبي ربيعة يضوع عبيقها في جو منتدى عائشة لا يشوبها
من مجونه وتهتك شائبة إلى أن وافته المنية عام ٩٣ هـ (٧١١ م) - وبقيت قصائده
الوصفية العذبة تردد في مجالس عائشة إلى أن وافاها الأجل المحتوم عام ١١٠ هـ
(٧٢٨ م) وقد أشرفت على الثمانين من عمرها بالتقويم الهجرى ونحو ٧٨ عاما
بالتقويم الميلادى وذلك بفرض أنها ولدت عام ٢٠ هـ (٦٥٠ م) .

وقد وصف حماد الراوية منتداها ومجتمعاتها الفخمة فقال إن منتداها كان سلسلة
من حلقات البحث ورواية الأشعار والحكم على مستواها وتقييم مقدار نضوجها

ومناقشة مغزاهما ومعانيها - وكانت مجتمعاتها النسائية غاية في الابهة والترفة والكرم فقد دعت يوما نسوة من قريش فلما جئنها أجلسن في مجلس قد نضد فيه الريحان والفاكهة والطيب والمجمر وخلعت على كل منهن خلعة تامة من الوشي والخمر ونحوهما ودعت عزة الميلاء وخلعت عليها بالمثل وجعلتها تغنى لهن - وفي هذا الوصف الدقيق الباهر ما يؤكد أن عائشة بنت طلحة قد أسهمت بالفعل في نضوج الأدب العربي في فجر الإسلام .

وأما الحارث بن خالد بن العاص بن هشام فقد هام بها منذ صباه وقال فيها الكثير من قصائده الغزلية - فكان ينظم الأبيات التي تتم عن حبه العميق الصادق لها ويدفعها إلى المغنين لتغنى في مجالسها كلها ودت سماعها .

فقد قال فيها الأبيات المدونة بعد ودفعها إلى المغنى ابن محرز فصنع فيها لحنا غناه في ندوة من ندواتها الزاهرة - وهو يقول في هذه الأبيات :

فَوَدِدْتُ إِذْ شَحَطُوا وَشَطَّتْ دَارَهُمْ
وَعَدَّتْهُمْ عَنَّا عَوَادِ تَشْغَلُ
أَنَا نَطَاعُ وَإِنْ تُنْقَلْ أَرْضُنَا
أَوْ أَنْ أَرْضَهُمْ إِلَيْنَا تُنْقَلُ
لِتُرَدَّ مِنْ كَتَبِ إِلَيْكَ رَسَائِلِي
بِجَوَابِهَا وَيَعُودَ ذَاكَ الْمُرْسَلُ

وعندما حجت ذات عام أرسل إليها يستعطفها قائلاً : يا ابنة عمي ألمي بنا أوعدينا مجلساً نراك فيه فقالت : في غد أفعل ذلك ثم رحلت عن مكة من ليلتها فقال الحارث في ذلك الأبيات التالية :

مَا ضَرَّكُمْ لَوْ قُلْتُمْ سَدَدًا إِنَّ الْمَطَايَا عَاجِلٌ غَدَهَا
وَلَهَا عَلَيْنَا نَعْمَةٌ سَلَفَتْ لَسْنَا عَلَى الْآيَامِ نَجْعِدُهَا

لَوْ تَمَّتْ أَسْبَابُ نِعْمَتَيْهَا تَمَّتْ بِذَلِكَ عِنْدَنَا يَدُهَا

فذهب معبد - وابن محرز - والغريص المفضون إلى متداهها بقصرها الفخم في الطائف وغنى كل منهم هذه الأبيات في لحن صنعه فطرب لها الحاضرون وقالت عائشة باسمه إنه والله ما يقول إلاّ الطيب الرصين - وكان حكمها على أشعار الحارث بن خالد يثلج صدره ويكبر قدرها في عينه وينمى حبها في قلبه المأمود - فيغشى مجالسها ليسرى عن نفسه ويزود عينيه من سحرها وعذوبة حديثها وقوة علمها واتساع أفق ثقافتها .

وكان الشاعر النمرى من المترددين على ندواتها ولا سيما تلك التي كانت تعقدتها في قصرها بالطائف وقد أقسمت عليه أن ينشدها قوله في حبيبته زينب بنت يوسف فأنشدها قصيدته التي أولها :

نَزَلَنُ نَفَخَ ثُمَّ رُحْنُ عَشِيَّةٍ
يَلْبِغِيَنَّ لِلرَّحْمَنِ مُعْتَمِرَاتِ
يُخَبِّئَنَّ أَطْرَافَ الْأَكْفِ مِنَ التَّقَى
وَيَخْرُجَنَّ شَطْرَ اللَّيْلِ مُعْتَجِرَاتِ
وَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ النُّمَيْرِ أَعْرَضَتْ
وَكُنَّ مِنْ أَنْ يَلْقَيْنَهُ حِذِرَاتِ
تَضُوعُ مَسْكَ بَطْنِ نَعْمَانَ إِذْ مَشَتْ
بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةِ خَفِيرَاتِ

ثم يكمل بالأبيات التي ذكرتها في الصحائف الأولى من هذا البحث فتقول عائشة إنه لم يقل إلاّ جميلاً ولم يذكر إلاّ كرماً وطيباً ولم يصف إلاّ ديناً وتقى - وهذا يوضح ما كان يقال في منتدى هذه السيدة الفاضلة من الشعر البعيد عن كل ما يشوبه من عوامل الضعف أو الركاكة أو الخلاعة المأجنة - وهكذا سلبت ندوات عائشة

بنت طلحة من الانحدار بالشعر العربي والغناء العربي في صدر الإسلام إلى عوامل الانحلال الهدامة فخلد في تاريخ أدب العرب على ثقائه وصفائه بفضل صاحبة أول (صالون أدبي) في الإسلام عائشة بنت طلحة التي خلاد التاريخ اسمها لما بذلته من جهود مشمرة موفقة في هذا السبيل .

وكان كبار شعراء عصرها يحجون إلى بيتها في مكة والمدينة وإلى قصرها بالطائف فينشدون أحسن ما قالوا من قصائد فتطرى الجيد منها وتنقد الضعيف الغث أو الرقيق وتطرب للمغنين كلها غنوا في الأشعار القوية العذبة الجرس المتينة الماني والتركيب - وكان يختلف إلى منتداهها الأدبي - إلى جانب عمر بن أبي ربيعة - والحارث بن خالد - والنمير - والأحوص - وابن قيس الرقيات - جرير - والفرزدق وكثير - ونصيب - وجميل بن معمر - وغيرهم من الشعراء يتطارحون الشعر ويسمرون في أمسيات بهيجة أدبية .

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين تناهسا في ذلك أشد المنافسة - وكان من نتائج هذه المنافسة المفيدة أن ارتقى الأدب العربي وهذبت حواشيه وصفيته وعانيه وألغظه في كنف هاتين السيدتين ونحت رعايتهما الحادثة الرفيعة .

ويحسن هنا أن يلمّ المطلع على هذا البحث بنبذة مركزة عن تاريخ حياد السيدة سكينة - فهي بنت الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم - وأم الحسين هي فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام وأما خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي .

وقد تزوج الحسين ، الرباب ، بنت امرئ القيس بن عدى السكينة وهي أم سكينة وكانت شاعرة مجيدة وهي التي أطلقت على ابنتها اسم سكينة واسمها الحقيقي آمنة أو أميمة .

ويصف الرواة السيدة سكينة بأنها كانت جميلة فصيفة الأمان عذبة الحديث عفيفة سليمة برزة من النساء تجالس الأجلة من قريش وكانت عالمة أدبية يجتمع إليها الشعراء فتسمع كلامهم وتفاضل بينهم وتناقشهم وكانت ظريفة مزاحة

خفيفة الروح تحب المرح والدعابة - وكانت أحسن الناس شعراً تصنف جنتها تصفيفاً بديعاً حتى عرف ذلك - وكانت تلك اللمة تسمى السكينة .

وقالت يوماً لعائشة بنت طلحة ضرَّتْها : أنا أجمل منك - وقالت عائشة : بل أنا : فاختصمنا إلى عمر بن أبي ربيعة . فقال لأقضيْنَّ بينكما - أما سُكينة فأملح - وأما أنت يا عائشة فأجل منها - فقالت سُكينة قضيت والله لي .

وكانت سُكينة من أقوى الناقدين للشعراء تنظر في نقدها إلى نبل الغرض وشرف اللفظ وجلال المعنى وذن ثم كانت حكماً بين الشعراء لا يرد لها حكم على غرار ضرَّتْها عائشة - وكانوا يقدون على دارها من كل صوب وحذب .

وقد اجتمع عندها ذات يوم : جرير - والفرزق - وكثيرٌ - وجميل بن معمر - ونصيب - فنقدت لكل شعرد - وآخذت عليه مأخذ - وكذلك كان بصرها بمذاهب الغناء وضروب الإيقاع كبصرها بأعطاف الشعر وقطاف الأدب .

ويصفها المستشرق (ماسيه H. Massé) في دائرة المعارف الإسلامية : بأنها كانت إحدى سيدات عصرها المشهورات وأنها كانت شديدة التألق ذات هيبة ووقار لم يكن يحول بينها وبين المزاح والتبسط في الحديث - أما جمال شعرها فكان أمراً معروفاً - وكانت لها طريقة خاصة في تصفيفه - وقد حرم عمر بن العزيز فيما بعد الأخذ بهذه الطريقة خاصة في تصفيفه - وكانت سُكينة فخورة بجمالها ونسبها وقد بدا منها ما يدل على شجاعتها - فقد تجللت واستسلمت لجراحة أجريت لها في عينيها - وكانت فطنة حصيفة تهوى الشعر والغناء وأمضت عمرها في رحاب المدين المقدسة وتوفيت بالمدينة في يوم الثلاثاء الخامس من شهر ربيع الأول عام ١١٧ هـ (٧ من أبريل عام ٧٣٥ م) - ولا يعرف تاريخ مولدها بالضبط ولكنها كانت فتاة صغيرة عندما قتل أبوها الحسين في كربلاء .

وتختلف المصنفات التاريخية في ترتيب زيجاتها المتعاقبة - ويبدل الترتيب

الأقدم لهذه الزيجات الذي يتفق عليه ابن قتيبة وابن سعد وأخذ به ابن خلكان على أن أول أزواجها كان مصعب بن الزبير بن العوام - وقد أمهرها مهرأ كبيراً وانجبت من هذا الزواج ابنتها (سكينة) - والظاهر أن زواجها الثاني كان من عبدالله بن عثمان بن أخي مصعب بن الزبير وقد ولدت له عثمان ولم يكن هذا الزواج موفقاً في جميع أيامه - ثم تزوجت بعد ذلك من زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان وكان بخيلاً : أتم المشاحنة معها وبعد طلاقها منه تزوجها الأصمعي بن عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عمر بن عبد العزيز ولم يدخل بها - ويقول ابن قتيبة إنها تزوجت فيما بعد من عمرو بن الحارث بن حزام - ويذكر صاحب الأغاني أن أول أزواجها هو ابن عمها عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو قول يصح إنكاره .

ولقد كان منتدى السيدة سكينة (صالونها) ينافس فيما يضم من أدباء وشعراء ومغنين منتدى ضرتها السيدة عائشة بنت طلحة - فند روى أنه اجتمع عندهما الشعراء والمغنون وطلبوا أن تستقدم المغني (حنين) من العراق فلما حضر وانضم إلى المغنين : ابن سريج والغريص - ومعبد ذهبوا إلى منزل سكينة بمكة فأذنت للناس إذنا عاما فغصت الدار بهم وازدحم خلق كثير على السطح فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الهدم .

ويروى المؤرخون قصصاً تدل على حصادها الدقيقة في نقد الشعر نقداً يوضح تعمقها في الحكم على الغث منه وإطراء الجيد الرصين . فتد أنشدت قول الحارث بن خالد :

فَفَرَّ غَنٍّ مِنْ سَبْعٍ وَقَدْ جِهَدَتْ

أَحْشَاؤُهُنَّ مَوَائِلَ الْحُمُرِ

فقلت : أحسن عندكم ما قال؟ قال الحاضرون لديها من الشعراء والمغنين نعم !

فقلت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت الأبل سبعا لجهدت أحشاؤها

وأشدها أحد الرواة في ندوة حافلة بدارها قول عروة بن أذينة في رثاء أخيه بكر :

سرى همى وهم المسرى يسرى
وَنَارَ النَّجْمِ إِلَّا قَيْدَ فِتْرٍ
أَرَأَيْتَ فِي الْمَجْرَةِ كُلِّ نَجْمٍ
تَعَرَّضَ فِي الْمَجْرَةِ كَيْفَ يَجْرِي
يَحْزَنُ مَا أَزَالَ لَدَى مَدِيَمَا
كَأَنَّ النَّائِبَ أَسْعَرَ حَرَّ جَمْرٍ
عَلَى بَكْرٍ أَخَى وَلَى حَمِيدَا
وَأَى الْعَيْشِ يَحْسُنُ بَعْدَ بَكْرٍ

فنبات 'سكينة' ومن هو بكر ؟ أليس الدَّحْدَاحُ (أى الفصير الغليظ)
الأسيدَ التصير الذى كان يمر بنا صباحا ومساء ؟ قالوا نعم - قالت : كل
العيش والله يصلح ويحسن بعد بكر حتى الخبز والزيت - وفى هذا النقد اللاذع
الممزج بالنكتة الباسمة برهان آخر على رجاحة عقلها وسلامة الذوق الشعرى
فى وجدانها .

ولم تسام السيدة 'سكينة' من تشيب عمر بن أبى ربيعة - فقد وافاها بالمدينة
وتحدث لها حتى انفجر ثم قال فيها :

قَالَتْ 'سَكِينَةُ' وَالدَّمْعُ ذَوَارِفُ
مِنْهَا عَلَى الْخَدَّيْنِ وَالْجَلْبَابِ
لَيْتَ الْمُغِيرَى الَّذِى لَمْ أَجْزِهِ
فِيمَا أَطَالَ تَصِيدِى وَطِلَابِى

كَانَتْ تَرُدُّ لَنَا الْمُنَى أَيَا مُنَا
 إِذْ لَا نُلَامُ عَلَى هَوَى وَتَصَابِي
 خَبَّرْتُ مَا قَالَتْ فَبِتُ كَأَنَّمَا
 رُمِيَ الْحَشَا بِنَوَافِدِ الْإِنشَابِ
 أُسْكِنُ مَا مَاءُ الْفِرَاتِ وَطِيبُهُ
 مِنْ عَلَى ظَمَائٍ وَفَتْدٍ شَرَابِ
 بِالذِّمْنِكَ وَإِنْ نَأَيْتِ وَقَلَّمَا
 تَرَعَى النِّسَاءُ أَمَانَةَ الْغِيَابِ

فإنال عندما بلغتها هذه القصيدة كذب والله وما أكثر كذب الشعراء - فام
 أبك ولم أبل الحدين والجلباب من أجل هذا الفاسق .

ويتول بعض الرواة إن الأحوص الشاعر كان مغرما بها وقد شبب بها
 تحت اسم عتيلة فأنال :

يَا لِلرِّجَالِ لَوْ جَدَّكَ الْمُتَجَدِّدِ
 وَلِمَا تُؤَمِّلُ مِنْ عِثْلَةٍ فِي غَدِ
 تَرْجُو مَوَاعِدَ بَعَثِ آدَمَ دُونَهَا
 كَانَتْ خَبَالًا لِلْفُؤَادِ الْمُتَضَدِّ
 هَلْ تَذْكُرِينَ عِثْلُ أَوْ أَنْسَاكِه
 بَعْدِي تَقْلُبُ ذَا الزَّمَانِ الْمُفْسِدِ
 يَوْمِي وَيَوْمِكَ بِالْعَتِيقِ إِذِ الْهَوَى
 مِنَّا جَمِيعُ الشَّمْلِ لَمْ يَتَّبَعْدِ
 لِي لَيْلَتَانِ فَلَيْلَةٌ مَعْسُولَةٌ

ألقى الحبيب بها بنجيم الأسعد

وَمَرِيحَةٍ هَمَّتْ عَلَيَّ كَأَنِّي
تَحْتِي الصَّبَاحُ مُعَلَّقٌ بِالْفَرْقَدِ

وما أن سمعت بهذه الأبيات حتى بادرت سامعيها بقولها : غفر الله
للأحوص فهو لا يعي ما يقول - وأردفت مرادة الآية الترانيم الشريفة: الشعراء
يتبعهم الخارون - ألم ترأنهم في كلِّ وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون؟ «
ومن كل ما تقدم يتضح أنه كان للسيدة سَكينة بنت الحسين نصيب مرموق في
تنقية الأدب العربي والشعر الغزلي على الأخص من شوائب الإسفاف والمجون
وأنها أسهمت في هذا المجال المفيد بما بذلت من جهود ثمرة خلال الندوات
الكثيرة التي عادت في منازلها بمكة والمدينة والعراق منافسة بذلك ضرتها
عائشة بنت طلحة منافسة عادت على اللغة العربية بالفائدة الجزيلة إذ كان منتداهما
(صالونها) ثاني (صالون) أدبي في تاريخ أدب الصالونات التي عاصرت الأجيال
الإسلامية .

وأعتقد أنني قد وفيت موضوع ندوات هاتين السيدتين حقه من البحث
والاستقصاء وبيّنتُ بها فيه الكفاية أثر هذه الندوات في كيان الأدب العربي
في صدر الإسلام وأثر عائشة بنت طلحة وضررتها ومنافستها سَكينة بنت الحسين
في هذا الكيان - وأظن أنه قد حان الوقت لإبراز المقارنة بين (صالون) السيدة
عائشة بنت طلحة (وصالون) السيدة (كثرين دي رامبوييه Catherine de
Rambouillet

فقد ولدت هذه السيدة الفرنسية بباريس عام ١٥٨٨م (٩٩٧ هـ) وتوفيت
في مستط رأسها عام ١٦٦٥ م (١٠٧٦ م) بالغة من العمر ٧٨ عاما .

ولم تكن مرفقة في حياتها الزوجية مثابا في ذلك مثل عائشة بنت طلحة من
حيث الاستقرار والحنان المستمر — ولم تكن ممن تغريهن المظاهر الخادعة
المتكلفة إذ كانت من النساء المحافظات على التقاليد الفاضلة فملت حياة البلاط

المالكي في عهد هنري الرابع وما تستلزمه هذه الحياة من قيود اجتماعية وماتضيعة من أوقات لا يستفيد الفكر الراجح خلالها بما يطمح إليه من رقى ثقافى واتساع فى المدارك والملم بما يرتفع بالنفس إلى درجة تقرب من الكمال الروحانى - وقد اقترن اسمها بتاريخ أدب اللغة الفرنسية طوال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى .

ففى عام ١٦١٨ م (١٠٣٨ هـ) أعدت قصرها النخم الذى خلده التاريخ على مر القرون - حاملا اسمها كالشعلة المنيرة - ليكون محط أنظار الكتاب والشعراء والعلماء واستمر مركزا لاجتماعاتهم الثقافية المثمرة مدة طويلة .

وخدور حجره التى أعدت لاستقبال المترددين عليها من مشاهير قادة الفكر فى جماعات صغيرة كانت تغمر نفوس تلك الجماعات المتجانسة المشارب بفيض من البهجة والارتياح لما ضمت من رياش جميل التنسيق وما حوت من ألوان زاهية ورسوم بديعة .

وفى ذلك الجو الفنى الجميل الرائع كانت النرائج الجبارة تعمل جاهدة على تنقية اللغة الفرنسية من جميع الشوائب والارتفاع بألفاظها وجمالها إلى أسنى درجات التعبير بعيدة عن الفث المبتذل بما يتبادله الناس فى أحاديثهم دون تحفظ أو حيطة لما قد يחדش الذوق السليم ويؤذى السمع . وفى ذلك الجو الفنى الرائع كان يُلقى قبل النشر والإذاعة خير ما أخرج الأدب الفرنسى من نثر وشعر - فيصقل جماله النقد النزيه ثم يتناوله القراء وقد اجتاز كل عائق يحول دون اقترابه من أعلى مراتب الإجادة والإتقان .

وعلى الرغم من أن التزمت والاندفاع فى التزامه إلى الحد غير المألوف قد أثار نقد بعض كبار المفكرين فى ذلك العصر للمترددين والمترددات على قصر (مدام دى رامبويه) لدرجة دفعت بالشاعر الكبير (موليير) إلى الخط من قدرهم فى مسرحيته المرححة الساخرة « المتجذلفات المثيرات للضحك » فان ذلك

التمصر وأهله ومن خالطهم من المفكرين قد خصهم تاريخ الأدب العالمى بحكمه العادل وذلك فى الجمل المدونة بعد التى يتجلى فى ثناياها الإنصاف والتقدير فتعال :
« إن الاجتماعات الأدبية التى كانت تعتمد فى قصر مدام دى رامبويه قد أدت للأدب أجل الخدمات وأنبأها منصدا - وأن أثره سيبتى عنصرا من عناصر المجد الفرنسى على مر الأيام ».

والواقع هو أن خدور قصر « دى رامبويه بباريس » قد كانت فصولا لأكاديمية أو على الأصح لجامعة عالية للأدب الفرنسى الراقى . وأن فضلها كان عظيما فى تخريج الكثير من الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين ساروا على نهج زعماء الفكر فى تلك الحتمبة من تاريخ الإنسانية أمثال : كورنيي Corneille - وبوسيه Bossuet - ولاروشفوكو La Rochefoucauld - ومدام دى لافاييت M^{me} de LaFayette ومدام دى سڤيني M^{me} de Sevigné وغيرهم .

وما من شك فى أن أدب « الصالونات » قد أخذ بيد الثقافة الفرنسية إلى المستوى التى كانت تتطلع إليه بعد تكوينها بما نهلت من الثقافتين اليونانية واللاتينية .

وقد كان لقصر « مدام دى رامبويه » أثر عميق فى اللغة الفرنسية وفى الأدب الفرنسى - فآثره فى اللغة أدى إلى :

١ - تنقية اللغة الفرنسية وتخليصها من بعض التعبيرات النابية أو السخيفة .

٢ - تزويدها بكثير من الألفاظ والتعبيرات الجديدة .

٣ - الارتفاع بها إلى المستوى الراقى إلى أبعد مدى مع وضع فاصل بين لغة العوام ولغة المثقفين .

وأثره في الأدب الفرنسي أدى الى :

١ - أن الكتاب والشعراء والمفكرين اكتسبوا - بفضل اختلاطهم بعناصر البيئة الراقية - عوناً وتشجيعاً قيمين .

٢ - أن الأدب اتخذ طابعاً من التعميق الشيق احتفظ به طوال ذلك القرن من الزمن .

وهكذا كان لمنتدى عائشة بنت طلحة ومنتدى منافستها سكينه بنت الحسين أثر قويم في الأدب العربي وكان لمنتدى السيدة دكترين دي رامبويه ، أثر مماثل في الأدب الفرنسي . وهذا ما أردت أن أثبتته من هذا البحث اعترافاً بفضل هؤلاء السيدات الثلاث على الحركة الفكرية العالمية في صدر الإسلام وفي القرون الوسطى - وقد استجتمت هذا الفضل في العصر الحديث السيدة نازلي فاضل وكان منتداها (صالونها) نادياً أدبياً يختلف إليه الإمام محمد عبده - وسعد زغلول - وإبراهيم اللاناني - وقاسم أمين - كما استجتمت الآنسة متى زيادة وكان ينردد على منتداها (صالونها) : أحمد لطفي السيد - وعبد العزيز البشري - والدكتور على إبراهيم . وأحمد شوقي . وحافظ إبراهيم . وخليل مطران . وإسماعيل صبري . وكان هؤلاء العلماء والأدباء والشعراء يتبادلون في اجتماعاتهم الأسبوعية الأحاديث الأدبية والنوادر الطريفة والنصائذ الرصينة والروايات الشعرية المستملحة .

وكان منتدى الآنسة دى زيادة ، يعتد بمسكنها كل يوم ثلاثاء وأثر هذا الصالون أعمق تأثير في الأدب العربي الحديث - وقد نوه الشاعر خليل مطران بهذا المنتدى الثقافي في رثائه للآنسة مى قتال :

قَدْ تَوَلَّى رِفاقنا وَبَتِينا يَعْلَمُ اللهُ بَعْدَهُمْ ما لَتَمِينا
أَقْفَرَ البيتُ أَيْنَ نَادِيكَ يَا مِىُّ إِلِيهِ الْوفودُ يَخْتَلِفُونَا
صَفْوَةُ المشرقين نَبلاً وَفضلاً فِي ذَرَاكِ الرحيبِ يَعْتَمِرُونَا

فَتُسَّاقُ الْبَحُوثُ فِيهِ ضُرُوبًا وَيُدَارُ الْحَدِيثُ فِيهِ شَجُونًا
وَتُصِيبُ الْقُلُوبُ وَهِيَ غَرَاثُ مِنْ ثِمَارِ الْقَوْلِ مَا يَشْتَهِينَا

وَأُنْشَدَ فِيهِ الشَّاعِرُ الرَّقِيقُ إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي قَصِيدَةً جَاءَ فِيهَا :

دُوحِيَّ عَلَيَّ بَعْضُ دُورِ الْحَيِّ جَائِمَةٌ
كَظَائِمِ الطَّيْرِ إِذْ يَهْفُؤُ عَلَيَّ الْمَاءُ
إِنْ لَمْ أَمْتِغْ بِمَسْءٍ نَاطِرِي غَدًا
أَنْكَرْتُ صَبْحَكَ يَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ

أَثَابَ اللَّهُ صَاحِبَاتِ (الصَّالُونَاتِ) وَجَزَاهُنَّ ثَوَابَ مَا قَدَمْنَ مِنْ خَيْرٍ
لِلْأَدَبِ الْعَالَمِيِّ عَلَى مَرَّ الْأَجْيَالِ.

٤ - الوصف والتصوير في شعر

البارودي - ألفريد دي فيني Alfred de Vigny

كان الشاعر محمود سامي البارودي مرهف الحس يصدر شعره عن وجدان ووعي يدرك في دقة تامة كيف يتطلع إلى الأشياء فيحسن وصفها . ويجيد الإمعان في الروحانيات فيسطر عنها ما يجعل قارئه يشعر بالانفعالات النفسية التي تعتمل في فؤاده نابعة من قرارة إحساسه .

وموهبة الوصف الرائع ودقته لا نجدتها في جميع الكتاب والشعراء لأن شرائطها العقلية والوجدانية لا تتوفر لكل فكر أو تخيلة . فهي تتطلب قوة الحافظة والقدرة على ترتيب المرئيات والحوادث والانفعالات النفسية التي يراها أو يشعر بها الإنسان في الماضي لينفثها منظمه في قالب بديع السياق كلها عرضت أمثالها على بصيرته الواعية أو حان الوقت الملائم لعرضها في المستقبل .

ويذهب بعض علماء النفس إلى أن مبدعى الوصف يكونون في الغالب ممن تتوافر في حياتهم العقلية الشرائط الآنفة الذكر ويميلون في الوقت نفسه إلى التقليد . وقالوا أيضا إن أدق الكتاب في الوصف من كانت دائرة ثقافتهم محدودة لأنهم يعتمدون فيما ينتجون من محصول عقلي على ذكرياتهم الماضية دون التوسع في الخيال الشخصي .

ونحن إذا ألقينا نظرة على تاريخ حياة شاعرنا وجدنا أن ما ذهب إليه هذا البعض من علماء النفس قد استطاع تطبيعه عليه . فحياته المليئة بالأسفار وشعوره المرهف الدقيق وحبه الخلال الكريمة ووطنيته الصادقة وثنافته التي لم تتعد دائرة اتساعها المجال المحدود والتي لم يترامزها إلا في حيز المرئيات .

كل هذه الاعتبارات مجتمعة . تجعلنا نميل إلى القول بأن قوة الحافظة والتدرة على الترتيب والميل إلى التقليد هي من أولى العوامل التي أقامت من البارودي وصفاً مبدع العرض في الصور التي يضعها نصب أعين القراء في قريضة السلس الجزل العبارة .

ولا يتم الوصف الرائع إلا إذا أحاط به إطار ذهني من التصوير الجليل . والواقع هو أن البارودي كان مصوراً بارعاً كأن قلمه ريشة رسام تتنن التعبير عما يراه صاحبها وتمزج الألوان مزجاً يضفي على الصورة حياة تانبض بكل ما يخالج وجدان الرسام من مشاعر وأحاسيس . ويتضح هذا التصوير المتقن لما يتعرض له البارودي بالوصف من تحايل النماذج الشعرية التي تركها . ولعل أبرع تصوير نلمسه في هذه النماذج ذلك الذي يتجلى في قصيدته التي نظمها في حرب جزيرة إقريطش (كريت) وقد نظمها ولماً يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ويقول في طامها :

أخذَ الكثرى بمعاقِدِ الأَجفَانِ
وَهَفَا السَّرَى بِأَعْنَةِ الفِرْسَانِ
والليلُ منشورُ النوائِبِ ضاربُ
فوقَ المتأَلِّعِ والرَبِ بِجِرَانِ
لَا تَسْتَبِينُ العَيْنُ فِي ظِلَائِهِ
إِلَّا اشْتَعَالَ أَسِنَّةَ المِرَانِ
تَسْرِي بِهِ مَا بَيْنَ لَجَّةِ فِتْنَةٍ
تَسْمُو غَوَارِبُهَا عَلَى الطُّوفَانِ
فِي كُلِّ مُرْبَاةٍ وَكُلِّ ثَنِيَّةٍ
تَهْدِئُ سَائِمَةَ وَعَزْفُ قِيَانِ

تَسْتَنُّ عَادِيَةً وَيَصْهَلُ أَجْرَدُ

وَتَصِيحُ أَجْرَاسٌ وَيَهْتَفُ عَانِ

وفي هذه القصيدة التصويرية عرض لحالات شاعرنا النفسية ودقة فائقة في وصف المشاهد التي خبرها في ساحة القتال وحنين صادق إلى وطنه وإبراز خبايا نفسه إزاء الحوادث ونكبات خصومه وبذلك جمعت القصيدة بين التصويرين الحسى والنفسى.

وأجد من الملائم هنا أن يعرف القارئ نبذة عن حياة شاعرنا قبل أن أسترسل في تبيان الوصف والتصوير في شعره .

فهو محمود سامى البارودى . ولد في ٢٧ من شهر رجب عام ١٢٥٥ هـ (٧ من أكتوبر عام ١٨٣٩ م) من أسرة تنتمى إلى إحدى العائلات الشركسية المملوكية ذات الشأن في البلاد . وحملت أمه لقب « البارودى » منذ كان أحد أجداده . وهو مراد يوسف شاويش (أو جاويش) ماتزما خلال الحكم العثمانى لبلدة إيتاي البارود بمديرية البحيرة (محافظة البحيرة حاليا) . فنسب إليها ولقب بالبارودى . وكان والده حسن حسنى البارودى أميراً من أمراء المدفعية ثم عين مديراً لمديرية دنقلة بالسودان وتوفي إثر ذلك تاركا ولده « محمود سامى » فى السابعة من عمره . وفى أوائل عهد سعيد الأول تخرّج محمود من المدرسة الحربية خلال عام ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) . ولما كان الجيش المصرى فى ذلك الحين أشبه بمتحف للأسلحة والآدميين منذ شد وثاقه فى مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ م (١٢٥٦ هـ) فقد وجد البارودى أن هذا الجيش أضيق من أن يجمعاه يؤدى الواجب نحو وطنه . فسافر إلى الأستانة وعمل فى وزارة الخارجية العثمانية ثم عاد إلى مصر عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) مع الخديوى إسماعيل ليتمتع فى المناصب العسكرية والإدارية حتى وصل إلى رتبة فريق فى الجيش ومنصب رئيس الوزراء ومن ثم شارك فى الأعمال السياسية الهامة والحركات الثورية التى شبت

في عصره وفي مقدمتها الثورة العراقية التي نفى إثر اختناقها إلى جزيرة سيلان وظل يعاني ألم النفي والحرمان سبعة عشر عاماً حتى فقد بصره حزناً وأسفاً على زوجته وابنته . وعفى عنه في عهد الحديوي عباس الثاني فعاد إلى مصر عام ١٩٠٠ م (١٢١٨ هـ) . وكانت وفاته في عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) بالغاً من العمر حوالي ٧٦ عاماً .

هذه إلمامة قصيرة بحياة هذا الشاعر الفحل . ولنعد الآن إلى تناول الوصف والتصوير في شعره

فالباحث عن الموضوعات التي تعرض لوصفها وتصويرها في ديوانه يجد أنها قسمان ميزان : الأول يعرض علينا صوراً لأشياء مادية تكاد تتجسم أمامنا لما في وصفه وتصويره لأجزائها من إتيان . والثاني يجعلنا نشاركه في أحاسيسه المتنوعة من حب وحنين وتوجع وحزن لا تكاد نتألم تحت تأثيره لأن البارودي لم تعرف البغضاء الجامحة الطريق إلى قلبه العامر بالصفح عن المسيء والوقوف إزاء لؤم الوغد أو دناءة الوضيع موفف الشمم وعلو النفس فيزدرجها دون الإيقاع بها ويستخف بحقارتها دون السعي إلى إيذائها .

ومن شعره في القسم الأول المتعاق بالاشياء المادية نجده ماثلاً في عدد من قصائده فهو إذا أراد وصف ضيعته التي لجأ إليها ليستريح من عناء الأعمال بعد استقالته من وزارتي الحربية والأوقاف فإنما يصور لنا جنة فيحاء وارقة الأشجار غزيرة المياه علىيلة النسيم طيبة التفحة بها شجيرات التطن مثقلة بلوزها أو زهرها فيقول :

حتى وصلتُ إلى جنابٍ أفيح

زاهي النباتِ بعيد أعماق الشرى

تَسْتَنُّ فيه العينُ بينَ منابتٍ

طلّبتُ منارَ سهاٍ وجنّاتٍ رَوا

مُلْتَفَ أَفْئَانِ الْحَدَائِقِ لَوْ سَرَتْ
 فِيهَا السَّمُومُ لَشَابَهَتْ رِيحَ الصَّبَا
 فَتَرَاهُ نَفْسُ الْعَبِيرِ وَنَبْتُهُ
 سَرَقُ الْحَرِيرِ وَمَأْوَدُ فَائِقِ الضُّحَى
 فَإِذَا شَمِتَ وَجَدْتَ أَطْيَبَ نَفْحَةٍ
 وَإِذَا التَّفَتَ رَأَيْتَ أَحْسَنَ مَا يَرَى
 وَالْقَطُنَ بَيْنَ مُلَوِّزٍ وَمُنَوَّرٍ
 كَالْفَادَةِ اِزْدَانَتْ بِأَنْوَاعِ الْحُلَى
 فَكَأَنَّ عَاقِدَهُ كَرَاتُ زَمَرْدٍ
 وَكَأَنَّ زَاهِرَهُ كَوَاكِبُ فِي الرُّؤَا
 دَبَّتْ بِهِ رُوحُ الْحَيَاةِ فَلَوْ وَهَتْ
 عَنْهُ الْقَيُودُ مِنْ الْجَدَاوِلِ قَدْ مَشَى
 فَأَصُولُهُ الدِّكْنَاءُ تَسْبِجُ فِي الشَّرَى
 وَفُرُوعُهُ الْخَضْرَاءُ تَلْعَبُ فِي الْهَوَى
 لَمْ يَسْرِ فِيهِ الطَّرْفُ مَذْهَبُ فِكْرَةٍ
 مُحَدُودَةٍ إِلَّا تَرَا جَمَعَ بِالْمُنَى
 فَهُوَ بِهَذَا الْوَصْفِ وَالتَّصْوِيرِ الدَّقِيقِ يَجْعَلُكَ تَسِيرُ فِي صَحْبَتِهِ بَيْنَ أَشْجَارِ
 ضَيْعَتِهِ تَسْتَأْشِقُ هَوَاءَهَا وَتَمْتَعُ النَّظَرَ بِبَهِيَجِ تَنْسِيْقِهَا وَتَفْرَحُ بِتَطْنِهَا الْيَانِعِ فَكَأَنَّكَ
 فِي حِلْمِ تَمْرِ أَمَامِ بَصِيرَتِكَ الْوَاعِيَةِ مَنَاطِرُ هَذِهِ الضَّيْعَةِ كَالشَّرِيطِ السَّيْمَانِيِّ الَّذِي
 يَسْتَوَلِي عَلَى إِدْرَاكَكَ حَتَّى يَنْتَهَى .

وَيَغَابُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ شَاعِرَنَا مُتَأَثِّرٌ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ - بِالْأَدْبَانِ الْفَارِسِيِّ وَالْتُرْكِيِّ
 الَّذِينَ اتَّخَذُوا نَظْمَ فِي ثَانِيهَا الشَّعْرَ الْجَيِّدَ - فَالْعِبَارَةُ فِيهَا لُغِيَّةٌ رَائِعَةٌ فِي حُسْنِهَا

منعممة بالكلمات الدالة على الترف - ولقد كان الأدبان الفارسي والتركي للبارودي منهلا من المناهل الأدبية التي اغترف من عذب منابعها فجاء شعره متينا يمتاز بسطوة القول وجزالة اللفظ وبراعة الاستهلال وحلاوة الديباجة ورصانة التقافية مما جعل بعض المؤرخين يقول عنه بحق إنه « لم يجرى بعد العصر العباسي من يبرع البارودي في كل هذه الصفات التي يمتاز بها - ومن يدانيه فيها ».

والبارودي إذا جلس للهو والترويح عن النفس حاك من كل المناظر التي تحيط به نسيجا لتصيدة ممتعة يتحملك بأبياتها لتشاركه لهوه ومرحه وتتذوق معه لذة الخمر على بساط النبات النضير وقت السحر بين سجع الطيور وتغريدها - وكل هذا يجعلك تحس به في عبارات غاية في اللطف فيتمدد قلبك فرحا وينشرح صدرك طربا إذ يقول :

أدير الكأسَ يا نديم وهات
واستمينيهما على جبين الغداة
شاق سمى الخناء في روثق الفجـ
سر وسجع الطيور في العذبات
أى شئ أشهى إلى النفس من كأ
س مدارٍ على بساط نبات
هو يوم "تعطرت" طرفاه
بشمال مسكينة النفحات
باسم الزهر عاطر التشريح هامي ال
قطر واني الصبا عليل المهابة
"مروح" للعيون يمتد فيه
نفس الريح بين ماضٍ وآت

فَامْتِثِلْ دُعْوَةَ الصَّبِيحِ وَبَادِرْ
 فُرْصَةَ الدَّهْرِ قَبْلَ وَشَكِ الْفَوَاتِ
 وَتَدَرَّجْ مَعِيَ إِلَى (رَوْضَةِ الْمَنَى
 يَلِ) ذَاتِ النَّخِيلِ وَالشُّمَرَاتِ
 فَهِيَ مَرْعَى الْهَوَى وَمَغْنَى التَّصَابِي
 وَمَرَّاحُ الْمُنَى وَمَسَرَى الْحَيَاةِ

إلى أن يقول عن زملائه :

يَتَسَاقُونَ بِالْكُؤُوسِ مُدَّاءًا
 هِيَ كَالشَّمْسِ فِي قَمِيصِ إِيَاةِ
 فِي أَبَارِيقِ كَالطُّيُورِ اشْرَأَّتْ
 حَذَرَ النَّتَكِ مِنْ صِيَّاحِ الْبُزَاةِ
 حَانِيَاتٍ عَلَى الْكُؤُوسِ مِنَ الرَّأِ
 قَةِ يُرِضَعْنَ كَالْأُمَهَاتِ

وبما یافت النظر أن التمرىء لهذه القصيدة يخال أنها من خمريات أبي نواس
 إذا كان يجهل اسم ناظمها وإذا حذف منها البيت الذى يدل عل أن البارودى
 يصف مكانا بروضة المنيل بالقاهرة .

والواقع هو أن خمريات البارودى التى تذكرنا بعهد أبي نواس بل بالعهد
 العباسى بأسره ليست بالنادرة- نورد منها على سبيل المثل الأبيات الآتية التى يصف بها
 ليلة دارت فى أثناءها كؤوس الراح المعتقة التى يشبها بعذراء شابت وهى رهن الدن:

وَلَيْلَةُ أَنْسٍ قَصَّرَ الْهَوُ طَوْلَهَا
 بِعَذْرَاءٍ شَابَتْ وَهِيَ دُونَ حِجَابِ

صَدَّ عَنْهَا بِهَا الظَّالِمَاءَ حَتَّى تَبْلُغَتْ
 ضَبَابُهَا مِنْ ضَوْئِهَا بِشِبَابِ
 مُعْتَقَّةٍ كَانَتْ ذَخِيرَةً مَعْشَرٍ
 لَا بَنَائِهِمْ فِي جَوْفِ أَقْتَمِ كَابِ
 أَتَتْ دُونَهَا الْإِيَّامُ حَتَّى تَخْلُصَتْ
 فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا الْيَوْمَ غَيْرُ لُبَابِ
 إِذَا اتَّخَذَتْ فِي الْكَأْسِ خَلَّتْ مُدِيرَهَا
 تَنْخَضِبُ مِنْهَا كَفُّهُ بِخُضَابِ
 كَأَنَّ سَنَا الْكَاسَاتِ وَالنِّدَّ سَاطِعُ
 نَجُومُ تَرَاءَتْ مِنْ خِلَالِ ضَبَابِ
 فَيَا حُسْنَهَا مِنْ لَيْلَةٍ غَيْرِ أَنَّهَا
 تَوَلَّتْ وَلَمْ تَشْعُرْ لَهَا بِذَهَابِ
 وَقَدْ لَاحَ بِالظَّالِمَاءِ فَجْرُ كَأَنَّهُ
 بِيَاضٍ مَشِيبٍ فِي سَوَادِ شَبَابِ

فتأويل من الشعراء من جادت قريحته بمثل هذا الوصف التصويرى لبنت الحان لأن القارئ لهذه الأبيات يكاد يحس بطعم الخمر التي يصنعها البارودي على لسانه - إذا كان ممن يشربون الخمر - ويشعر بكأسها تلبس شفتيه في تلك الليلة المؤنسة - وهذه قدرة على الوصف التعبيري صعد بها رب السيف والقلم إلى ما فوق السميت العادي.

ولن يكون من المغالاة في شيء القول بأن المراثيات التي كان البارودي يتوخى الدقة في وصفها وتصويرها كانت تحدى به إلى انتقاء قافية معينة لينظم عليها بعض قصائده . ومثل ذلك يتجلى في قصيدته التي قالها في وصف ليلة لهو

بجزيرة إقريطش (كريت) في صحبة صديق عزيز عليه .

فصوت النواقيس عند الفجر وصدى هذه الأصوات في الفضاء الساكن هيج
كامن الشوق في قلبه فعز عليه أن يصف ليلة مرجه وعبثه دون أن يكون لرنين
هذه النواقيس الشجن أثر في القصيدة فذكره في الموضع الملائم منها فجاءت آية
من آيات الشعر التعبيري الصادق إذ يقول :

وَيْدَى نَخْوَةٍ نَازَعَتْهُ الْكَأْسُ مَوْهِنًا
عَلَى غُرَّةِ الْأَحْرَاسِ وَاللَّيْلِ دَامِسُ
فَمَا زِلْتُ أَسْتَمِيهِ وَأَشْرَبُ مِثْلَهُ
إِلَى أَنْ هَفَا سَكْرًا وَإِنِّي لَجَالِسُ
فَبِتُ أَقْبَاهِ السُّوءِ إِذْ كَانَ صَاحِبِي
وَأَحْرُسُهُ لِأَنِّي لَدَى الْخَوْفِ حَارِسُ
لَدَى مَوْطِنٍ لَا يَصْحَبُ الْمَرْءَ قَلْبُهُ
تَحْدَارًا وَلَا يَسْرِي إِلَيْهِ الْهَوَا جَسُ
عَدُوٌّ وَلَيْلٌ مَظْلَمٌ وَصَوَاهِلُ
تَجَازِبُ فِي أَرْسَانِهَا وَتَمَارِسُ
فَلَمَّا اسْتَهْلَ النُّورَ وَانْحَسَرَ الدُّجَى
قَلِيلًا وَخَنَّتْ لِلصَّبَاحِ النَّوَاقِيسُ
دَنُوتُ أَفْدِيهِ وَأَغْمِزُ كَفِّهِ
بِرَفْقٍ وَأَدْعُو بِاسْمِهِ وَهُوَ نَاعِسُ
فَجَاوَبَنِي وَالسَّكْرُ فِي لَحْظَاتِهِ
يَسْأَلُ مَاذَا تَبْتَغِي وَهُوَ عَائِسُ

فقلتُ أفقُ هذا هو الصبحُ متبيلٌ
 علينا وهذى في الذهابِ الختادِسُ
 وتناولتُهُ كأساً فمدَّ بنايتهُ
 إليها على كرهٍ بهٍ وهو يس
 فاذا أقبها حتى تهلَّلَ ضاحكا
 وأقبلَ مسروراً بما هو انسُ
 ومن شيمي بَذَلُ الودادِ لأهلهِ
 كذلكِ إني في الودادِ أنا فُسُ

ونلاحظ في سياق هذه النصيدة أن البارودي لجأ فيها الى قليل من الكلمات المتكلفة بحكم التزامه للقافية غير أن هذا الالتزام لم يؤثر على جمال الوصف والتصوير الذي ينبعث من أبيانها فجاءت منمقة التعبير مما يجعلنا نشعر بوجودنا معه في تلك الليلة نشاهد بالبصيرة حركات صديقه حين غلب عليه النعاس وهو ثمل وحين مد يده إلى الكأس متاقلا وحين تناولها وشرب خمرها فتهلل وجهه فرحا واستولى السرور على سريره - ونشاهد في إطار هذا التصوير المتمن الحراس في بلاد الغربة والأعداء على متربة من الصديتين في ليل مظلم والخيل تصل بجوارهما - ثم نشاهد طلوع الفجر وأصوات نواقيس الكنائس تدق للصلاة مما يشعرنا فوراً بأننا في بلاد يدين أهله بالمسيحية - وكل هذا الوصف التصويري الرائع يجعل المصور لا يجد أى غناء في رسم لوحة تضم جميع هذه المشاهد الحية في لوحة توحى ألوانها بكافة ما أراد البارودي عرضه على قارئ أبياته من صور .

وإذا تصدى شاعرنا إلى وصف الطبيعة وتقلبات الفصول وضعك أمام منظر متكامل المشاهد تستطيع ريشة الرسام التعبير عنه في يسر دون الحاجة إلى رؤيته على الطبيعة - فهو إذا وصف الخريف يقول :

تَوَازَنَ الصَّيْفُ وَالشِّتَاءُ
 وَاعْتَدَلَ الصُّبْحُ وَالْمَسَاءُ
 وَاصْطَلَحَتْ بَعْدَ طَوْلٍ عَتَبٍ
 بَيْنَهُمَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ
 فَلَا اصْطِحَارٌ وَلَا اكْتَانٌ
 وَلَا ابْتِرَادٌ وَلَا اصْطِلَاءُ
 تَبْتَهَجُ الْعَيْنُ فِي رِيَاضٍ
 أَنْضَرَهَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ
 لِلطَّيْرِ فِي أَيْكِهِا هَدِيلٌ
 وَلِلصَّبَا بَيْنَهَا مُكَّاءُ
 تَوَارَتْ الشَّمْسُ عَنْ ذُرَاهَا
 وَشَبَّ مِنْ زَهْرِهَا شَتَاءُ
 فَالصَّبْحُ وَالظُّهْرُ وَالْعِشَاءُ
 وَالْوَهْنُ مِنْ لَيْلِهَا سَرَاءُ
 فَلَا ضَبَابٌ وَلَا غَمَامٌ
 وَلَا ظَلَامٌ وَلَا ضِيَاءُ

فالصورة التي يتبينها الإنسان من وراء هذا الفريض واضحة جليلة فيها كل عناصر الحياة التي يتطلبها تغيير الفصول - ولا سيما حلول فصل الخريف - من اعتدال في الجو وتساو في مدة النهار والليل ونضارة في التبت وصداح للطير فوق أفنان الشجر وبين أغصان الخنازل الملتفة - وهذه الآيات تصلح هي الأخرى ومن كل الوجوه أن تكون لوحة زيتية تحلى بها جدران المائدة في كل بيت يحب صاحبه الفن ويتذوق معانيه فيما تنتج ريشة الرسام الماهر .

والبارودى لا يعرف فقط كيف يعطيك صورة صادقة عن الماديات الثابتة بل يعرف فى مهارة كيف يصور لك الماديات المتحركة - أى التى تتمثل أمام حاسة بصره ثم تختفى لتعود فى فترات أخرى متقطعة أو لتبقى عالقة بذهنه إلى أن يحين وقت عرضها فيصوغ شكلها فى عبارات محكمة الصياغة .

فعندما يرأسل بعض أخصائه يتذكر أهل جزيرة سرنديب (سيلان) الذين أجبره النفى ونكد الطالع على معاشرتهم فيقول فى وصفهم :

ولكننى أصبحتُ فى دارٍ غريبةٍ

مقيما لدى قوم على البدِّ عكفٍ
زَعانِفُ هَدَّاجُونَ فى عُرْصَاتِهِمْ

كخيطٍ نَعَامٍ بينَ جَرْدَاءَ صَفْصَفٍ
حفاةٌ عِراءُ غيرَ أخلاقٍ صُدْرَةٌ

تَطِيرُ كَنَسَجِ العُشْكُوتِ المُسَدَّفِ
يَمُجُّونَ من أفواههم رَشَحَ مُضْغَةٍ

كَنَضْحِ دِيمٍ يُنْهَلُ من أنفٍ مُرْعَفٍ
إذا رَطَنُوا بَعْضًا سمعتَ لصوتهم

عَزِيفًا كَجِنٍّ فى المَغَاوِرِ هُتِفِ

فالدقة فى الوصف والتصوير هنا تقترب من الذروة فى الإجابة لأنها تضعنا إزاء هؤلاء القوم فنرى من خلال الوصف ملابسهم الغريبة الحقيبة ونلصق بؤسهم وفقرهم تحت وطأة الاستعمار الإنجليزى الذى كان يستغاهم ويستعبدهم فى ذلك الحين ونسمع غوغاءهم المزعجة ونعرف أنهم يمضغون التبغ أو ما شابهه ويلتقون من أفواههم نفاية ما يمضغون .

وفى البيت الذى يصف به البارودى ملابسهم صورة كاملة لمجموعة من الأفراد

حفاة الأقدام عراة الأجسام إلاً من صدره خفيفة أكل عليها الدهر وشرب -
وفى ذلك دلالة كافية على رغبة شاعرنا الملحة في جعل وصفه وتصويره في غاية
الروعة مع مراعاة الاختصار في الجمل - وهو في هذا الإيجاز المحكم يضارع أحد
فحول الشعراء الفرنسيين في القرن التاسع عشر الميلادي وأحد المعاصرين
للبارودي هو « ألفريد دي فيني Alfred de Vigny » الذي يقول في بيت
واحد ما ترجمته :

أحبُّ صوتَ البوقِ في المساءِ في عميقِ العنابةِ

إذ في ذلك البيت الفرد وصف دقيق كامل التصوير لرنين صوت بوق الصيد
عند مستهل الليل الساكن في غابة نائية يتذوق الشاعر في عمتها أنغام موسيقى
الصيد - والبيت الذي نظمه دي فيني باللغة الفرنسية هو :

J'aime le son du cor, le soir au fond du bois

وقد ولد الشاعر الفرنسي « دي فيني » عام ١٧٩٦ م - ومات بباريس عام
١٨٦٢ م - وانتظم في مستهل حياته العملية ضابطاً في الجيش ثم تزعم حركة
الأدب الرومانتيكي في بلاده وصار بعد ذلك عضواً بالأكاديمية الفرنسية تقديراً
لجهوده الأدبية العظيمة - وكانت أهم صفات شعره المميّزة روعة الوصف
والتصوير على غرار مميزات شعر البارودي - فهو يستوى معه في هاتين الناحيتين
- ويدل على ذلك المثل المتأدّم الذكر مقارناً بالأمثلة التي توضحها النماذج الشعرية
المدوّنة قبل من قصائد البارودي والشاعر « دي فيني » هو مؤلف مسرحية « عطيل »
التي اقتبس موضوعها من الشاعر الإنجليزي « شكسبير » فجاءت المسرحية
بالشعر الفرنسي رائعة السياق متينة الشعرية بديعة تصوير الأحداث على مر
فصولها ومشاهدها مركزة الصياغة وفاقاً للصفة الميزة لآظم أشعارها .

ولإذا تطرق البارودي في الوصف إلى رسم صورة لشخص بذل غاية الجهد في
أن يجعلك تتعرف عليه في سهولة وأن تتوَجّع لحاله من وصفه الصادق البعيد

عن المغالاة أو الزيف - فاسمعه في هذه الآيات التي يرسم لك فيها صورة لنفسه .
وهي من القصيدة التي رثى بها صديقيه الشيخ حسين المرصني وعبد الله باشا فكرى .

كَيْفَ لَا أَرْذُبُ الشَّبَابَ وَقَدْ أَصْدُ
بَحِثْتُ كَهْلًا فِي مَحْنَةٍ وَاغْتَرَابِ
أَخْلَقَ الشَّيْبُ جِدَّتِي وَكَسَانِي
خَلَعَةً مِنْهُ رَثَّةَ الْجِلْبَابِ
وَلَتَوَى شَعْرَ حَاجِبِي عَلَى عَيْ
سِي حَتَّى أَظْلَّ كَالْهُدَّابِ
لَا أَرَى الشَّيْءَ حِينَ يَسْتُنْحِ إِلَّا
كَخِيَالِ كَأَنِّي فِي ضَبَابِ
وَإِذَا مَا دُعِيتُ حِزْتُ كَأَنِّي
أَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ
كَلَّمَا رُمْتُ نَهْضَةً أَفْقَدْتَنِي
وَنَيْمَةً لَا تَقْدِرُهَا أَعْصَابِي
لَمْ تَدْعُ صَوْلَةَ الْحَوَادِثِ مِنِّي
غَيْرَ أَشْلَاءَ هِمَّةٍ فِي ثِيَابِ

فالبارودي في هذا الوصف مائل أمام عيني قارئه وقد وهنت قواه وطال
شعر حاجبيه وضعف بصره وسمعه ولكنه ظلَّ هذا الشهم العالى النفس على
الرغم من أن صروف الدهر القاسية التي جعلت من جزيرة سرنديب سجنًا له
ولم تدع منه إلا بقايا همة رفيعة القدر في أطمار شيخوخة ذهب بفتوتها وعنفوانها
تعاقب السنين ومرير الألم والحسرة .

وليس شعر البارودى فى وصف الماديات وتصويرها كله ألم وحسرة وتوجع .
فقد نظم قلبه الفياض قصائد كثيرة فى مختلف ألوان الشعر العربى فأجاد وأحسن .
ولإليك - على سبيل المثال - هذه الأبيات التى يصف بها حبيبة حز فى نفسه فراقها
لما فى حسننها من بهاء وما فى سجاياها وخلالها من ظرف فيقول :

وياربَّ ليلٍ لَفَنَّا بِرِدَائِهِ
عِنَافاً كما لَفَّ الصَّبَا البَانِ والرندا
ولثمَّ توالى لَئْمٌ لَئْمٌ بِغَرِّهَا
كما شافه البازى على ظمأٍ وَرْدَا
فتاة كأنَّ اللهَ صَوَّرَ لَحْظَهَا
ليَهْتَكَ أَسْرَارَ التَّلَوِّبِ بِهِ عَمْدَا
لها عِشَاتٌ عِنْدَ كُلِّ تَحِيَّةٍ
تَسْوِقُ إِلَيْهَا عن فرائسها الأَسْدَا
إذا انفَلَتَ بالكأْسِ نَخْلَتَ بَنَانُهَا
يُدِيرُ عَلَيْنَا مِنْ جَنَى خَدَّهَاتِا وَرْدَا
فلم أَرِ لَحْظاً كَانَ أَقْتَلَ بِأَكْيَا
وَأَمْضَى الظِّبَى فى الفَتَكِ مَا مَسَّالَ إِفْرَنْدَا
حَرَامٌ عَلَى الْعَيْنَيْنِ إِنْ لَمْ تَسِلْ دَمَا
على يَمِينِهَا وَالْقَلْبِ إِنْ لَمْ يَذُبْ وَقْدَا

فأى وصف وأية صورة يحببان هذه الفتاة إلى الوجدان من وصف وتصوير
البارودى لها فى هذا الإطار البديع ؟ وأية عبارات عذبة يستطيع القلم أن يعبر
بها عن هذه الحسناء أبهى من هذه الأبيات التى تجعلك تتحسس جمال الفتاة بيدى
الخيال كأنك تراها وتدنو منها وتلبسها فى حلم لذيذ !

وليس الوصف المعنوي في شعر البارودي بأقل روعة من الوصف المادي -
فشاعرنا يَتَن كل الاتقان تصوير ما يخالجه من مشاعر وأحاسيس وعواطف في
عبارات عذبة الجرس تفيض بسحر البيان .

فإذا تصدى إلى وصف وتصوير ما يستولى على نفسه من عظمة وما تتطلبه
هذه النفس القويمة الطامحة إلى المعالي دائماً من مجد هو حق لها مكتسب وما يحف
هذا الطالب العادل من عناء وقناعة حميدة وعزة ووفاء قال في قصيدته التي بعث
بها إلى صديقه الشيخ حسين المرصفي وهو في حرب بني الأصفر مع تركيا
عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) :

وبى ظمأ لم يبلغ الماء رِيَّة
وفي النفس أمرٌ ليس يُدرِكهُ الجَمْدُ
أودّ وما أُودُّ امرئٍ نافعا له
وإن كان ذا عتل إذا لم يكن جدُّ
وما بى من فقرٍ لدينا وإنما
طلابُ العلى مجدٌ وإن كان لي مجدُّ
وكم من يدٍ لله عندي ونعمة
يَعُضُّ عليها كَفَّهُ الحاسدُ الوغدُ
أنسا المرء لا يُطغِيهِ عزُّ ثروة
أصاب ولا يلوى بأخلاقه الكدُ
أصدُّ عن الموفورِ يُندرِكهُ الخنى
وأقنَعُ بالميسورِ يَعْتَبُهُ الحمْدُ
ومن كان ذا نفسٍ كنفسي تصدَّعتْ
لعزَّتِهِ الدنيا وذَلَّتْ له الأسدُ

وَمِنْ شَيْمَى حُبِّ الْوَفَاءِ سَجِيَّة

وَمَا خَيْرُ قَلْبٍ لَا يَدُومُ لَهُ عَهْدُ ؟

فهل هذا الوصف النفساني العميق الغور لا يسمو بك أيها التاريء إلى محيط أعلى من المحيط الدنيوى الوضيع فتجد أنك بين صفوة من الرجال الذين يفضلون المناقب على كل جاه مادي ؟ وتجد نفسك إزاء رجل فاضل يسير مرفوع الرأس فتتحطم تحت أقدامه متع الدنيا الدنيئة والمشوبة بالروذيلة الحتميرة ؟ نعم إنك تشعر بكل ذلك من خلال أسطر هذه الأبيات لأن البارودى إذا مدح نفسه وتفاخر برفعتها فإنها يقول الصدق البحت الخالص من كل غرض . وإنما يصف ويصور نفسيته وصفا حقيقيا ليس للغلو فيه نصيب .

ولم يثنه الاغتراب والوحدة وذل المنفى عن هذه العزة القوية في نفسه ولا عن هذا السمو في الأخلاق الذى كان يقوده دائما في طريق الفضيلة - فإذا خلا لنفسه في منفاه دفعته عظمتة الثائرة إلى القول :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْدَفَعْ يَدَ الْجَوْرِ إِنْ سَطَّتْ

عَلَيْهِ فَلَا يَأْسَفُ إِذَا ضَاعَ مَجْدُهُ

وَمَنْ ذَلَّ خَوْفَ الْمَوْتِ كَانَتْ حَيَاتُهُ

أَضْرَ عَلَيْهِ مِنْ حِمَامٍ يُوَدُّهُ

وَأَقْتَلُ دَاءِ رُؤْيَا الْعَيْنِ ظَالِمًا

يُسَى وَيُتَلَّى فِي الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ

عَلَامَ يَعِيشُ الْمَرْءُ فِي الدَّهْرِ خَامِلًا

أَيَفْرَحُ فِي الدُّنْيَا بِيَوْمٍ يَعُدُّهُ ؟

يَرَى الضَّيِّمَ يَغْشَاهُ فَيَلْتَدُّ وَقَعَهُ

كَذَى جَرَبٍ يَلْتَدُّ بِالْحَكِّ جَانِدُهُ

إذا المرءُ لاقى السيلَ نَمَّتْ لَمْ يَعُجْ
إلى وَزَرٍ يحميه أَرْدَاهُ مَدَّةُ
عَفَاءٍ على الدنيا إذا المرءُ لم يعيشْ
بها بَطْلًا يحمي الحقيقة شَدَّةُ

فالحنن على الإقدام والمطالبة بالحقوق في غير هوادة - وملاقاة الموت عند
الضيم والحث على الابتعاد عن التملق ومدح المسيء - كل هذا مائل في الأبيات
المدونة قبل التي تزيد الحكمة الرصينة تأثيرا على النفس - فقولہ :
واقْتُلْ دَاءَ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ ظَالِمًا يُسِيءُ وَيَتَلَبَّسُ فِي الْحَافِلِ حُمْدُهُ
إلى قوله : كذى جرب يلتذ بالحك جلده - يتكون منه مثل من أمثال
الحكمة لا يقل سمو معناه عن حكم العصور الماضية الشائعة .

فإذا أفجعه الموت في عزيز فإنما يصف ويصور لوعته وحزنه العميق في
أبيات تطفح بالأسى فتحمل القارىء على مشاركته في حزنه الصادق وتوجعه -
وأى قلب مهما غلظت قسوته لا يشاطره الألم عندما تنفذ إلى أعماقه هذه الأبيات
التي رثى بها ولده :

كيف طوتك المنونُ يا ولدى
وكيف أودعتك الشرى يدي ؟
واكبيدي ديا علي ، بعدك لسو
كانت تبسل الغليل واكبيدي !
فقدك سلّ العظام منى ور
د الصبر عنى وفى فى عضدي
كم ليلة فيك لا صباح لها
سهرتها باكيًا بلا مدد

دَمْعٌ وَشَهِدُ وَأَيْ نَاطِرَةٌ

تَبْقَى عَلَى الْمَدْمَعِينَ وَالسَّهْدِ

أو أى نفس لا تهتز هلعاً عندما تحس بالآنين الذى تخبر عنه تلك الزفرة المنبعثة من صدر البارودى فى حرارة تكاد تودى بما أبقت أيام الشؤم فى جنانه من ثبات - تلك الزفرة التى نفثها فى منفاه عندما علم بفقد شريكه حياته فى أبيات هى أ نموذج الحزن العميق المتفجر من فؤاد عامر بالشمم وعلو النفس:

أَيْدُ الْمَوْنِ قَدْ حَتَّ أَيْ زِنَادِ

وَأَطْرَبَ أَيْ شُعْلَةً بِفُؤَادِ

أَوْ هَنْتِ عَزَمَى وَهُوَ حَمْلَةٌ فَيَلْقَى

وَحَطَمْتَ عَوْدَى وَهُوَ رُوحٌ طَرَادِ

لَمْ أَدْرِ هَلْ خَطْبُ السَّمِّ يَسَاحَتِ

فَأَنَاحِ أَمْ سَهْمٌ أَصَابَ سَوَادِ

أَفْدَى الْعَيُونَ فَأَسْبَلَتْ بِمَدَامِعِ

تَجَرَّى عَلَى الْخَدَّيْنِ كَالْفِرْصَادِ

مَا كُنْتُ أَحْسِبُنِي أَرَاعُ لِحَادِثِ

حَتَّى مُنِيتُ بِهِ فَأَوْهَنَ آدِ

أَبْلَسْنِي الْحَسَرَاتُ حَتَّى لَمْ يَكُنْ

جَسْمِي يَلُوحُ لِأَعْيُنِ الْعُودِ

اسْتَجَدُّ الزُّفْرَاتِ وَهِيَ لَوَافِحُ

وَأَسْفَهُ الْعَبْرَاتِ وَهِيَ بَوَادِ

لَا لَوْعَتِي تَدَعُ الْفُؤَادَ وَلَا يَدِي

تَقْوَى عَلَى رَدِّ الْحَيْبِ الْعَادِ

يَا دَهْرُ فِيمَ فَجَعْتَنِي بِحَلِيلَةٍ
كَانَتْ 'خَلَاصَةً' عُذَّتَنِي وَعَتَايَ
إِنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ 'ضَنَائِي' لِبَعْدِهَا
أَفَلَا رَحِمْتَ 'مَنْ' الْأَسَى أَوْلَايَ؟

وفي هاتين القصيدتين أنموذجان لأنثات وجدانه كلما مسه المكروه وجارت
عليه صروف الدهر بغدرها ونكباتها المفجعة - أما إذا تركت له هذه النكبات
متنفسا وتذكر مغامراته الحربية أخذ يفخر بثبات عزمته ويحدثك في صدق عن
شئ الشيم التي تتجاذب نفسه وهو يخوض غمار المعارك في غير وجل فتأتي
الأحداث مصدقة لما قاله في هذا الصدد إذ تسجل له في سفر التاريخ العام
صفحة خالدة من صفحات البطولة النادرة - وإليك الشاهد على ذلك في
الآيات التالية :

سَوَايَ يَتَحَنَّنَانِ الْأَغَارِيدِ يَطْرَبُ
وغيرى بالذات يَلْمُهُ ويعجبُ
وَمَا أَنَا مِنْ تَأْسَرُ الْخَمْرِ لُبَّةُ
وَيَمْلِكُ سَمْعِيهِ الْيَرَّاعُ الْمُشَقَّبُ
وَلَكِنْ أُخَوِّمُهُ إِذَا مَا تَرَجَّجَتْ
بِهِ سُوْرَةُ نَحْوِ الْعُلَى رَاحَ يَنْدَابُ
نَفْسِي النُّوْمَ عَنْ عَيْنِيهِ نَفْسُ أَيْيَّةُ
لَهَا بَيْنَ أَطْرَافِ الْأَيْسَنَةِ مَطْلَبُ
بَعِيدُ مَنَاطِ الْهَمِّ فَالْغَرْبُ مَشْرِقُ
إِذَا مَا رَمَسِي عَيْنِيهِ وَالشَّرْقُ مَغْرِبُ

له غَدَوَاتُ يَتَّبِعُ الْوَحْشُ ظِلَّهَا
 وَتَغْشَدُو عَلَى آثَارِهَا الطَّيْرُ تَعْبُ
 هَمَامَةٌ نَفْسٍ أَصْغَرَتْ كُلَّ مَارِبٍ
 فَكَلَفْتُ الْإِيَّامَ مَا لَيْسَ يُوَهَّبُ
 وَمَنْ تَكُنِ الْعَالِيَاءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ
 فَكُلُّ الَّذِي يَأْتِيَادُ فِيهَا مَحْبَبُ
 إِذَا أَنَا لَمْ أُعْطِ الْمَكَارِمَ حَقَّهَا
 فَلَا عِزَّتِي خَالٌ وَلَا ضَمْنِي أَبُ

إلى أن يتناول :

خُلِقْتُ عَيْوُفًا لَا أَرَى لَابْنَ حَرَّةٍ
 لَدَيَّ يَدَا أَغْضَى لَهَا حِينَ يَفْضُضُ
 فَلَسْتُ لِأَمْرِ لَمْ يَحِينَ مُتَوَقِّعًا
 وَلَسْتُ عَلَى شَيْءٍ مَضَى أَتَعْتَبُ

وفي هذه الأبيات وصف وتصوير روحاني بليغ يزينه عدد من الحكم التلمية
 بأن تضرب بها الأمثال - منها قوله « ومن تسكن العلياء همة نفسه » - فكل الذي
 يلقاه فيها محبب - ومنها تعاليه في كبرياء نبيلة : خلقت عيوقا لا أرى لابن
 حرة - لدى يدا أغضى لها حين يفضض - ومنها البيت الأخير الذي يدل على
 تمسكه بالواقعية دون التعلق بالأوهام والتنيات والرضى بها وقع دون الأسف
 على ما فات .

وعندما ينتهي من شرح نفسيته على النحو المدون قبل يعرض عليك صورة
 رائعة للواقعة ويصف لك موقفه منها فيقول :

تَوَبَّحْتُ مِنْ الْهَيْجَاءِ خَضْتُ عُجَابَهُ
 وَلَا عَاصِمٌ إِلَّا الصَّفِيحُ الْمُشْتَطَبُ
 تَظَلُّ بِهِ حَرُّ الْمَنَايَا وَسُودُهَا
 حَوَاسِرَ فِي أَلْوَانِهَا تَتَقَلَّبُ
 تَوَسَّطَتْهُ وَالْخَيْلُ بِالْخَيْلِ تَلْتَقِي
 وَيَبْضُ الظَّبَا فِي الْهَامِ تَبْدُو وَتَغْرِبُ

ولم يستعص على البارودي وصف عاطفة الحب وما يلابسها من الانفعالات
 النفسية المعقدة فراح يشرحها في مناسبات متعددة شرحا ساسا واضحا فجاء
 الشرح ملبا بجميع النواحي التي تتدخل من هذه العاطفة في مظاهر الشعور الثلاثة:
 الوجدان والإدراك والنزوع - فهو إذا اشتكى الهجر ولوعته أخذ يصف ويصور
 ما يتأسس من ألم البعد في أبيات تمت في مبناها إلى علم النفس بصلة وثيقة فيقول:

صَلَةُ الْخِيَالِ عَلَى الْبُعَادِ لَقَاءُ
 لَوْ كَانَ يَمْلِكُ عَيْنِي الْإِغْفَاءُ
 يَا هَاجِرِي مَنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فِي الْهَوَى
 مَهْلًا فَهَجْرُكَ وَالْمَنُونُ سَوَاءُ
 أَغْرَيْتَ لِحَظَكَ بِالْفُؤَادِ فُشْفَةً
 وَمِنْ الْعَيُونِ عَلَى النُّفُوسِ بَلَاءُ
 هِيَ نَظْرَةٌ فَتَامُنُّ عَنِّي بِأَخِيَّتِهَا
 فَالْخَيْرُ مِنْ أَلَمِ الْخِمَارِ شِفَاءُ
 أَنَا مِنْكَ مَطْوِي الْفُؤَادِ عَلَى جَوَى
 لَوْلَا الدَّمُوعُ ذَكَتْ بِهِ الْحَوْبَاءُ

لا أنتَ ترحمني ولا نارُ الهوى
 تنخبو ولا للنفسِ عنك عزاءُ
 فانظرُ إلىَّ تجد خيالةً صوريةً
 لم يبقَ فيها للحياةِ ذمَاءُ
 رَقَّتْ لى الورقاءُ في عَذَبَاتِهَا
 وبكت على بدمعها الأنداءُ
 وتحدثتُ رسلُ النسيمِ بلوحتى
 فلكلُّ غصنٍ زحوماً إصغاءُ
 كآفٌ تناقله الحمائمُ عن الصبَا
 فصَبَّتْ إليه الغيدُ والشعراءُ
 فبقلبٍ كلُّ قفى غرامٌ كامنٌ
 وبمطفٍ كلُّ مايجةٍ خيلاءُ
 فتدعِ التكهنَ يا طيبُ فإنما
 دائى الهوى ولكلُّ نفسٍ داءُ
 ألمُ الصبابةِ لذةٌ تحيا بها
 نفسى ودائى لو علمتَ دَراءُ

ففي مستهل هذه الأبيات يوضح البارودى الصلة النفسية التى تربط البصيرة
 الواعية فى وجدان الإنسان بالخيالة التى تستطيع بعث المرئيات الماعية فتتمثل
 أمام الذى يستوحىها صوراً كاملة حتى ولو أغمض عينيه - ويبين البارودى فى البيت
 الثالث أن ماتراه العيون يؤثر على النفس تأثيراً روحياً فيفرحها إذا كان منمرحاً
 ويحزنها ويؤلمها إذا كان ضاراً حتى ولو مضى على وقوعه وقت غير قصير .
 فيشير فى العتلى الباطن الأسى والشجون كلما إسترجعته المفكرة فى منطاة الحس

العتامة التي يصدر عنها التأثير إلى المجموعة العصبية وسرعان ما تستيقظ بواطنها في أعماق الوجدان النفسي ويظهر انفعالها في كيان الإنسان العاصم . وفي البيت الأخير يشير البارودي موضوع ظاهرة نفسية أخرى هي أن الإنسان يتعود على الألم إذا استمر هذا الألم مدة طويلة وقد ينسى وقعه تماماً إذا ألهمه عنه ظاهرة نفسية أخرى تتغلب عليه . فالمرضى بداء المتناصل مثلاً ينسى ألمه إذا شده الانتباه الذي للعبة الشطرنج التي تلذها ممارستها . وكذلك الصباية إذا غمرت الزمان بنفضها واستمرت قرية تصبح لذة يتذوقها العاشق ويستعويض بلذتها عن وصال من يحب . وهكذا يمرض البارودي عليك ظاهرات من علم النفس الروحاني في سياق أشعاره علاوة على الحكم التي تتخلل هذه الأشعار الوصفية التصويرية الممتعة .

وجاء البارودي في النسيب بالطريف العذب ويظهر ذلك في قوله :

مَا لِقَمَّابِي مِنْ لَوْعَةٍ لَيْسَ يَهْدَأُ
أَوْ لِمَ يَكْفِ أَنَّهُ ذَابَ وَجَدًا ؟
وَرَمَتْنِي بِنَارِهَا الْغِيدُ حَتَّى
تَرَكَتْنِي فِي عَالِمِ الْحُبِّ فَرْدًا
فَضْلُوعِي مِنْ قَسَدِ حَةِ الزَّيْدِ أَوْ رَى
وَذُمُّوعِي مِنْ صَفْحَةِ الْغَيْمِ أَنْدَى

إلى أن يقول :

آه مِنْ لَوْعَةٍ أَطَارَتْ بِقَلْبِي
شُعْلَةٌ شَفَتِ الْجَوَانِحَ وَقَدْ
كَلَّمَا قَلْتُ قَدْ تَهَايَ غَرَامِي
عَادَ مِنْهُ مَا كَانَ أَضْمَى وَأُزْدَى

فهو في هذه الآيات يبدو وله قلب تحرقه الصبابة بنارها ويغالى الحب في تعذيبه - وكلما ظن أن الغرام قد خبا في فؤاده يجده تأجج أكثر من ذي قبل - وإذا كان في هذا الشعر بعض المغالاة اللفظية فإن تماسكه الفني الأصيل يجعل هذه المغالاة ضعيفة الأثر في الموسيقى الغزلية التي تنبعث من سياقه الذي يعبر في دقة متناهية عن وصف حالته النفسية في وضوح جلي .

وأظن أن أبلغ شعراء النسب لم يتفوقوا عليه في شيء إذا قارنا شعرهم في هذا اللون من الشعر بسحر البيان وعذوبة اللفظ والجرس ومتانة المعاني في أبياته التي يتول فيها :

يَا غَزَالًا نَصَبْتُ أَهْدَابُهُ
يَسْتَدِ السَّحَرِ لِفَنَى شَبَّكَ
قَدْ مَلَكَتِ الْقَلْبَ فَاسْتَوْحَى بِهِ
أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى مَنْ مَلَكَ
لَا تُعَذِّبُهُ عَلَى طَاعَتِهِ
بَعْدَ مَا تَيْمَّمْتَهُ فَهُوَ لَكَ
غَلَبَ الْيَأْسُ عَلَى حُسْنِ الْمُنَى
فِيكَ وَاسْتَوَى عَلَى الضَّحِكِ الْبُكَ
فَالِي مَنْ أَشْتَكَى مَا شَفَّنِي
مِنْ غَرَامٍ وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى
سَلَكَتُ نَفْسِي سَبِيلًا فِي الْهَوَى
لَمْ تَدْعُ فِيهِ لَغَيْرِي مَسْلُوكًا

فهذه الآيات تعبر في صدق عن الغزل الراقى وهي قميصة بأن يضع الملتحون لها لحنًا يناسبها لتغنى فتطرب السامعين بمعانيها الرقيقة وموسيتها إذا

أتى اللاحن موافقا لهذه المعاني التي لها رنين في الأذن يطرب السمع والحجا والفؤاد.

هذا هو البارودي الوصاف المصور الذي يزين وصفه وتصويره الصدق فيما يقول عن المراتب المادية التي تعرض لعينيه ويحتمل وصفه وتصويره للأحاسيس التي تخالج نفسه التعبيرات ذات المعاني المنتمة — فهو إذا وصف الحرب فلأنه خاض غمارها وأسهم في انتصارات الجيوش المصرية بنصيب مرموق — وهو إذا فخر فلأنه جدير بالفخر لمعرفته الحقة لندى نفسه — وهو إذا رثى فلأنه فقد الأمانة وتوجع وتألم لفقدهم — وهو إذا تغزل فلأنه أحب فعبر عما يعتمل بتلمبه من هوى وصباية وهيام :

ولم يعد جادة الصواب النقاد التماثلون بأن البارودي كان نجما طارقا جديدا له هالة من الضياء المشرق أرسلها فبددت ظلمات التخلف والجمود التي رانت على الشعر العربي فكادت تخذ أنفاسه — ومن ثم كان البارودي أبا للشعر العربي الحديث لأنه يتمتع بخصائص هذه الأبهة الحادية دون مدافع — فقد كان في عصره جديدا في شعره وشخصيته وصفاته الذاتية والاجتماعية والسياسية والفنية حتى حينما يكون متأثرا بالأقدمين في الفروسية والشهامة والإقدام والكرم والنزعات العربية الأصيلة أو في السير على عمود الشعر والوقوف على الأطلال ومناجاة الرسوم والآثار — وإنك لتلمس ذلك كله حينما تتعرف على تفاصيل حياته وتستقصى جوانب فنه في مختلف ألوان شعره فقد كان في عصره ظاهرة فنية لم تخضع لنوائين التطور — فكانت شاعريته متدفقة في غزارة — وكان إذا تغزل لا يبتذل وإذا أحب فإن حبه ينساب وفي انسياقه العفة — وهو لا يحب فتاة واحدة معينة وإنما يحب في المرأة صفات ترفعها في عينيه وتجلسها في فؤاده — فأحب جماها كما يحبه الفنان الملمم — وتأجج لهيب الحب في قلبه الكبير إبان سنوات النفي بجزيرة سيلان حيث فاضت أشعاره بالحب الكبير : حب ذكرياته وأهله وولده ووطنه وتراب هذا الوطن — ووجه للناس والخير والجمال ومباهج الطبيعة — وقد وصف وصور جميع هذه الأحاسيس الوجدانية أروع وأدق وصف وتصوير.

وقد صدق شاعر النيل - حافظ إبراهيم - في رثاء محمود سامي البارودي إذ قال في قصيدته التي نشرت في ٢٢ من يناير عام ١٩٠٥ م (٥١٣٢٣) :

لَبَّيْكَ يَا مُؤَنِّسَ الْمَوْتِ وَمُؤَحِّشَنَا
يَا فَارِسَ الشَّعْرِ وَالْهَيْجَاءِ وَالْجُودِ
مُلْكُ الْقَايُوبِ - وَأَنْتَ الْمُسْتَقِيلُ بِهِ
أَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ مِنْ مُلْكِ (ابن داود)
لَقَدْ نَزَحْتَ عَنِ الدُّنْيَا كَمَا نَزَحَتْ
عَنْهَا لِيَالِيكَ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ سُودِ
أَغْمَضْتَ عَيْنَيْكَ عَنْهَا وَازْدَرَيْتَ بِهَا
قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَمْ تَحْفَلْ بِمَوْجُودِ
لَبَّيْكَ يَا شَاعِرًا ضَنَّ الزَّمَانُ بِهِ
عَلَى النُّهَى وَالْقَوَافِي وَالْأَنَاشِيدِ
تَجْرَى السَّلَاسَةُ فِي أَثْنَاءِ مَنْطِقِهِ
تَحْتَ الْفَصَاحَةِ جَرَى الْمَاءُ فِي الْعُودِ
فِي كُلِّ بَيْتٍ لَهُ مَاءٌ يَرِفُ بِهِ
يَغَارُ مِنْ ذِكْرِهِ مَاءُ الْعَنَاقِيدِ
لَوْ حَنَطُوكَ بِشِعْرِ أَنْتَ قَائِلُهُ
غَنِيْتَ عَنْ نَفْحَاتِ الْمِسْكِ وَالْعُودِ
حَلَّيْتَهُ بَعْدَ أَنْ هَدَبْتَهُ بِسَنَا
عَقْدٍ بِمَدْحِ رَسُولِ اللَّهِ مَنُضُودِ
كَفَّاكَ زَادًا وَزَيْدًا أَنْ تَسِيرَ إِلَى
يَوْمِ الْحِسَابِ وَذَلِكَ الْعَقْدُ فِي الْجِيدِ

لَبَيْتِكَ يَا خَيْرَ مَنْ هَزَّ الْيَرَاعَ وَمَنْ
 هَزَّ الْجُسَامَ وَمَنْ لَبَّى وَمَنْ نُودَى
 إِنَّ هَذِهِ رُكْنُكَ مَتَكُونًا فَقَدْ رَفَعْتَ
 لَكَ الْفَضِيلَةَ رُكْنًا غَيْرَ مَهْدُودٍ

واختتم هذا البحث بثلاثة أبيات قالها البارودي وهو في ميعة الشباب يسجل
 لهوه وتمتعه بالجمال في مداعبته للجسان - وفي هذه الأبيات الثلاثة صورة كاملة
 تستحق عن جدارة أن تعبر عنها ريشة المصور برسم يوضع في إطار مذهب
 ويحلى به أحد جدران منازل عشاق الأدب والفن التشكيلي البديع فهو يقول :

سَرَتْ عَلَى التَّهَادَى	مِثْلَ الْمَاءِ بِشُبْرَةٍ
فَقُلْتُ هَلْ مِنْ وَصَالٍ	يَكُونُ لِلْحَبِّ أَجْرُهُ ؟
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ	عَلَى الْخَدِيعَةِ بُكْرَةٌ !

هـ - الشاعر إسماعيل صبرى

وتأثره بالشاعرين

الشريف الرضى - ولامرتين Lamartine

ولد إسماعيل صبرى بالقاهرة فى ١٦ فبراير عام ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ) وتلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة المبتديان ودروسه الثانوية فى المدرسة التجريبية وأتم دراسته فى الإدارة والألسن عام ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ) . وكان فى هذه الأثناء قد نبغ فى فنين كان لهما أعمق الأثر فى مجرى حياته وهما : فن الشعر وفن تحسين الخط . وكان نبوغه فى كل منهما نبوغا قويا يتعدى حدود المؤلف .

فنبوغه فى الخط كاد أن يجعل منه مدرسا لهذا الفن كما كان يريد له بعض أولى أمره لولا أن ناظر المعارف فى ذلك الحين على باشا مبارك رأى فى نجابته غير ذلك وقال له : « أنا ضنين بكائك وعلمك أن تنقطع السبيل بهما فيقفنا عند غاية لا تخاق لمثلك - ولأنى أعثدك لما هو أسمى رتبة لك وأجدى على الأمة من حيث الانتفاع بفضلك وكفاءتك » - وظل على باشا مبارك يتعهد برعايته حتى أتم دراسته ثم سافر فى بعثة إلى مدينة « لكس » بفرنسا ونال من كليتها إجازة (الليسانس) فى الحقوق خلال شهر أبريل عام ١٨٧٨ (١٢٩٦ هـ) .

أما عن نبوغه فى الشعر فقد ظهر فى حرص « مجلة الروضة » على نشر قصائده وتقريظ أسلوبه وخياله الشعرى - ولم يكن فى ذلك الحين قد جاوز السادسة عشرة من عمره - وكانت مجلة الروضة تضم ما يدبجه أقلام العلماء وكبار الأساتذة وفحول الشعراء والناخبين من الطلاب - وظل إسماعيل صبرى يبعث بـقصائده وهو فى فرنسا إلى مجلة الروضة للنشر وكانت تصفه بأنه أحد نجباء الإرسالية المصرية فى فرنسا وأنه المتفنن فى فنون الأدب كما كانت تضيف عليه غير ذلك من الألقاب التى تبرز قدره وعبقريته المبكرة .

و يمثل هذا التّريظ التّيم ما كانت صحيفة « الوقائع المصرية » في تلك الأيام تنشر إلى جانب الأخبار الداخلية والخارجية مقالات تتناول شتى الموضوعات وكانت تقدم لقصائده التي تنشرها بقولها : « من أبدع ما ورد من كلام الأفندية التّلامذة » المنتظم ولا جرم في سالك كلام الأساتذة ، ما جادت به قريحة الذكي النّجيب ، الذي تحسن رواية كلامه وتطيب ، إسماعيل أفندي أحد نجباء الفرقة الأولى بمدرسة الآسن ، وهو أقوى داييل على استعداده في المعارف وزيادة اجتهاده ، مع مبالغة معلميه في الثّناء عليه ، - وكان هذا الثّناء بمناسبة القصيدة التي نظمها في ٢ سبتمبر عام ١٨٧٣ م (١٢٩٠ هـ) ونشرت في ذلك التاريخ ويقتول فيها :

أطّلع الكأسَ كوكباً في ازدهاءِ
وأدرّها في هالةِ النّدماءِ
عما طينها صرّفاً ولا تُطْفِئُ النّو
رَ الذي زانَ حُسْنَهَا بالماءِ
مجالس فيه ماجلا صدأ السّم
ح وقرّت به عُيُونُ الرائي
من مُغَنٍّ يَغزُو الهمومَ بأوتار
ر فتَنجوى أَعْنَةُ الأهواءِ
وغزالِ أحلى من الأمنِ يسعى
بكُثُوبِ الغرامِ والصّهْبَاءِ

والواقع هو أن هذه الروح العزلية النّذبة وهذا الجرس الحلو يعبران عن صفاء نفسه ورقة طبعه وخفة ظله وملاحة مجالسته وأناقة مظهره ومخبره -

فقد كان شاعراً قاهري المولد والتعايم مدني النشأة والتكوين فرنسي الدراسة والشقيف .

وظلت الصحف والمجلات في عصره ومن بينها مجلة الروضة والوقائع المصرية وجريدة المؤيد ترحب بنشر قصائده بعد عودته من فرنسا .

كانت القاهرة في تلك الفترة تعج بكثير من الأدباء والشعراء والكتاب والصحفيين والمنتهمين لكل هؤلاء من أصحاب المهن الأخرى من مصريين وعرب - فكانت عاصمة مصر كخليفة النحل حافلة بالحركات الأدبية على الرغم من ظروف الاحتلال الإنجليزي وحكم الاستعمار الناشئ - وكانت الحانات الأدبية والندوات الثقافية تجمع هؤلاء فينبعث في أرجائها الحديث الطلي والذكاة العذبة وتلقى في أثنائها الدروس المفيدة الممتعة - ولم تكن المنازل والقصور هي وحدها التي تجمع هؤلاء الأدباء والشعراء بل كان اجتماعهم ينم في المقاهي مثل « قهوة المضحكخانة الكبرى » في شارع الخليفة بمنطقة السيدة زينب - وهي فرع من « المضحكخانة العالية » التي كانت تعقد بمنزل الحاج حسن الآلاني وكان يختلف إليها عدد كبير من الأدباء والعلماء مثل عبد الله باشا فكري - وأحمد باشا طلعت الكبير - وأحمد باشا راشد - وحسن بك الشمسي - والشيخ أبو النصر المنلوطنى - وأحمد سمير - وأمين باشا فكري ثم كثرت هذه المنتديات وتوعدت فصار الأديب يجد فيها ما يوائم ذوقه الأدبي ويرقى مداركه الثقافية والاجتماعية .

واشتهرت منازل طائفة من الوجهاء بندواتها الأدبية والعلمية مثل ندوة السيد توفيق البكري ومحمود سامي البارودي ومحمد عبده وصالون السيدة نازلي فاضل وصالون الأنسة مى زيادة وكرمة ابن هاء في دار أحمد شوقي ونادى العلم وعيادة الدكتور محبوب ثابت .

وكانت دار إسماعيل صبرى من أهم هذه المنتديات الثقافية التي تضم عشاق الأدب والفن والموسيقى - غير أن صاحب هذه الدار كان يأوى إلى مجالس الأدب

الأخرى فكان يتردد على صالون الأنسة مى زيادة أيام الثلاثاء في مشاورة دائمة لدرجة أنه اضطر إلى السفر مرة في يوم انعقاد الصالون فكتب إلى مى يعتذر:

رُوحى عالى دورٍ بَعْضِ الحى خاتمة
كظامى الطير تواقفا إلى الماء
إن لم أمتنع بمى فإظرى غدا
أنكرت صبحك يايوم الثلاثاء

وما تزال نشأة إسماعيل صبرى الأولى وثقافته في طفولته وسنى نبوغه في مرحلة صباه الغرض مجعولة غير أن الأخبار القليلة عن هذه الفترة تقول إنه قرأ ديوان عمر بن النارض وهو صغير ومن ثم اكتسب المحسنات البديعية التي ظهرت في بواكير قصائده - وإلى جانب تأثره بابن الفارض فإن الشاعر البحترى كان من الشعراء المفضلين عنده وكان مدمنا لقراءته مفضلا له على غيره من الشعراء ولذا نجد في شعره نواح عديدة يستطاع الاستشهاد بها في مجال المقارنة بينه وبين البحترى وإن كنا نجد في قصائده ما يصلح للمقارنة كذلك بينه وبين البهاء زهير من حيث خفة الروح والسهولة وبينه وبين الشريف الرضى من حيث العفّة والسماحة - غير أن كل هذه الشواهد في المقارنة لا تعنى أن شاعرية إسماعيل صبرى قد أخذت منابعها من نظم هؤلاء الشعراء أو من بعض الشعراء الفرنسيين ولا سيما الشاعر (لامرتين) وإنما تعنى أنها قد عززت اتجاهاته النفسية وساعدت على إنماء فطرته الميالة بطبيعتها إلى الشعر الحى الملىء بالعدوبة في السياق وفى المعانى والجرس .

ولنرجع الآن إلى تقصى أطوار حياته العملية بعد عودته من فرنسا - فقد عمل في السلك القضائى بالتماهرة والأكندرية وعواصم الأقاليم حتى وصل إلى وظيفة النائب العام وكانت هذه أول مرة تسند فيها هذه الوظيفة إلى مواطن

مصرى فى عهد المرحلة الأولى من الاحتلال البريطانى لمصر . وكان توليه هذا المنصب فى عام ١٨٩٥ م (١٣١٣ هـ) . وقد اشتهر طوال مدة خدمته فى القضاء بالنزاهة وحب العدل فى جميع مامارس من أعمال فى غير تحيز أو محاباة - واشتهر فى حياته الاجتماعية بالظرف والتواضع فى غير استكانة وحب الحرية - فقد أثر عنه أنه قال : « أحب الحرية فى ثلاث - فى المرأة تحت ظل زوجها - وفى الرجل تحت ظل شريعته - وفى الوطن تحت ظل الله » .

وعين فى أول مارس عام ١٨٩٦ م (١٣١٤ هـ) محافظا للأسكندرية وبقي يشغل هذا المنصب إلى ٥ من نوفمبر عام ١٨٩٩ م (١٣١٧ هـ) . وكانت دار المحافظة فى المكان الواقع عند تقاطع الشارع الذى أطلق عليه اسمه وشارع السيد محمد كريم . وكانت مياه البحر فى الميناء الشرقى تصل إلى جدران هذه الدار قبل تشييد رصيف الميناء الذى استغرق المدة الواقعة بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١٢ م (١٣٢٧ - ١٣٣٠ هـ) إذ لم يكن لجميع المباني الكائنة على يمين المتجه نحو مسجدى البوصيرى ، وأبى العباس وجود - وكنت فى عهد الطفولة أمتع النظر (بجلوة ليلة رؤية شهر رمضان) فكان الناس يقفون على جانبي الطريق بين محكمة قسم الجمرک الشرعية الحالية وبين دار المحافظة . وعندما تثبت الرؤية يتحرك الموكب تتقدمه موسيقى الجيش والمشاعل الموقدة بالخطب وأولاد سيدى عبد السلام الأسمر وسيدى ابن عيسى . ويسير الموكب إلى باب المحافظة فيطل المحافظ على الناس محييا ثم يواصل الموكب سيره إلى قصر رأس التين - وما زلت أتمثل صورة الشاعر إسماعيل صبرى وهو يحيي الموكب وأسمع من الناسثناء على أخلاقه وسجاياه الكريمة وحبه للخير .

وقد أحسنت البلدية إذ أطلقت اسمه الكريم على الشارع الذى يبدأ من الميناء الشرقى (شارع ٢٦ يوليو حاليا) ويتجه نحو ضريح سيدى العدوى متقاطعا مع شارع السيد محمد كريم - وكانت دار المحافظة التى عمل إسماعيل صبرى فيها محافظا عند هذا التقاطع وتمتد فى اتساع رقعتها حتى تقاطع الشارع بشارع قصر

رأس التين بالقرب من مسجد سيدى تميز . ثم يواصل امتداده فيتقاطع مع شارعى الميدان (محمود فهمى النقراشى حاليا) وصفر باشا . وقد أنشئ شارع إسماعيل صبرى فى حوالى عام ١٩٣٠ م (١٣٤٩ هـ) وهدمت فى سبيل استقامته بعض المنازل القديمة .

ولقد حدث لشاعرنا وهو محافظ لمدينة الاسكندرية حادث كاد يودى بحياته - فبينما كان يستقل قطار الرمل عائدا إلى منزله من زيارة الخديوى عباس الثانى اصطدم القطار بقطار آخر فأصيب كثيرون من الركاب وتوفى بعضهم . وقد أغمى على إسماعيل إغماء طويلا وأصيب بارتجاج فى المخ - فكان بعد ذلك كثير النسيان من أثر ذلك كما أصيب برضوض فى كتفه الأيسر - وكان يقول لجاسائه أنه ذاق الموت فى هذا الحادث فوجده لذيذ المذاق وتمنى ألا يعود إلى الحياة بعده .

ووصف صديقه عثمان باشا مرتضى أخلاقه فقال كان له عقل راجح متألق وعزيمة تجنح إلى الخير وتستنكر الشر . وشعور فى منتهى الرقة والظرف وميول شريفة راقية جمعت بين الثبات واللين والرقة والتواضع والكرم فى الأخلاق والنوق السليم . وكان كل مظهر من مظاهر روحه أنموذجا صادقا للكمال الإنسانى يبعث فى النفس السمو إلى أسمى معانى الجمال الخلقى الباهر .

وما من شك فى أن الشاعر إسماعيل صبرى كان أستاذا لشعراء الجيل الحاضر الذائع الصيت . فقد تتلمذ عليه أحمد شوقى وحافظ إبراهيم و خليل مطران ومحمد عبد المطلب وأحمد نسيم . ولم ينكر هؤلاء الشعراء فضله عليهم فتعال شوقى فى رثائه :

أَيَّامَ أَمْرَحُ فِي غُبَارِكَ نَاشِئًا
فَتَهْجِ الْمِهَارَ عَلَى غُبَارِ خَصَائِفِ

أَتَعْلَمُ الْفَيَّاتِ كَيْفَ تُرَامُ فِي
مِضْمَارِ فَضْلٍ أَوْ بِحَالِ قَوَافِ

ويعترف حافظ بهذا الفضل فيقول في مرثيته :

لَقَدْ كُنْتُ أَغْشَاةً فِي دَارِهِ
وَنَادِيهِ فِيهَا زَهَا وَازْدَهَرَ
وَأَعْرِضُ شَعْرِي عَلَى مَسْمَعٍ
لَطِيفٍ يُحِسُّ نُبُوَّ الْوَتَرِ
ويصرح خليل مطران في مرثيته بأنه تتلمذ على إسماعيل صبرى وأنه كان
أستاذه فيقول:

أَيُّ صَاحِبِيَّ لَقَدْ قَضَى
أَسْتَاذِنَا الْبَرُّ الْحَبِيبُ
فَعَرَا قِلَادَتَنَا - وَكَأ
نَتُّ زِينَةَ الدُّنْيَا - شُحُوبُ

وهذه القلادة التي يذكرها خليل مطران هي تلك المجالس الأدبية التي كانت
تضم الأستاذ وتلاميذه في داره وفي غير داره يستمعون إليه في إجلال وإكبار
ويجدون في حديثه الشاعر والأديب الذواقة والحكيم الناقد .

وكل من يتتبع شعر إسماعيل صبرى ويستوعبه يحس على الفور بأنه يمتاز
بفصاحة اللفظ وجزالة ورونق المعاني وجدتها وقوة الخيال ودقته . ولكل هذه
الميزات اعترف له جميع شعراء عصره بالإمامة فكانوا يلقبونه « بأستاذنا »
« وشيخ شعرائنا » لأنه كان مثلاً يحتذى وعلماً به يهتدى - ومن جهة أخرى يمتاز
شعره بثلاث وجدانيات تسيطر على نفسيته هي : الحس أو الشعور - والحكمة -

والحماسة - وقد تجلت الظاهرة الأولى في قصائده الغرامية - وبرزت الثانية في
مانظمه في الموت - وبدأت الثالثة في مانظمه في الوطن - وقد كانت هذه العوامل
الثلاثة المحرك الأساسي لشعوره الفياض فأنطقته بالحكمة الرائعة وأثارت في
صدره الحماسة الشريفة .

أما قصائده في الحب فهي مقطوعات رشيقة تمثل صوراً بهية رائعة من
الشعر الغنائي الراقى - فهو إذا عمد إلى وصف حبيبته يقول :

إِنَّ هَذَا الْحَسَنَ كَالْمَاءِ الَّذِي
فِيهِ لِلْأَنْفِيسِ رِيٌّ وَشِفَاءٌ
لَا تَذُودِي بَعْضُنَا عَنْ وَرِيدِهِ
دُونَ بَعْضٍ وَاعْدُلِي بَيْنَ الظَّمَاءِ
أَنْتِ يَمُّ الْحَسَنِ فِيهِ أَزْدَحَمَتْ
سُفُنُ الْأَمَالِ يُزْجِيهَا الرَّجَاءُ
* * *

أَنْتِ رُوحَانِيَّةٌ لَا تَدْعِي
أَنْ هَذَا الشَّكْلَ مِنْ طِينِ رَمَاءٍ
وَانْزَعِي عَنْ جِسْمِكَ الشَّوْبَ يَبْنِ
لِلْأَمَلِ تَكْوِينَ سُكَّانِ السَّمَاءِ
وَأَرَى الدُّنْيَا جَنَاحِي مَلَكٍ
خَلْفَ تَمْشَالٍ مَصْوَغٍ مِنْ ضِيَاءِ

وقد نشرت هذه القصيدة في سنة ١٩٠١ وترجمت إلى اللغة الفرنسية ضمن
مجموعة مختارة من الشعر العربي .

وكان شاعرنا يجد السرور والاستمتاع الحلو خلال المجالس التي كانت تعقد
في دار الأنسة مي زيادة - ويظن بعض عارفها أنه قال فيها الأبيات الآتية :

يَا رَاحَةَ الْقَابِ يَا شُغْلَ الْفَوَادِ صَلِّ
 مُتَيِّمًا أَنْتِ فِي الْحَايِنِ دُنْيَاهُ
 زِينِ التَّدْيِ وَسِيلِي فِي جَوَائِبِهِ
 لُطْفًا يَغْنُمُ رَعَايَا اللَّطْفِ رِيَّاهُ
 رِيحَانَةً أَنْتِ فِي صَحْرَاءِ مُجْدِبَةٍ
 مِنْ الرِّيحَيْنِ حَيَّانَا بِهَا اللَّهُ
 إِنْ غَابَ سَأَقِي الطِّيلَا أَوْ صَدَّ لَاحِرَجُ
 هَذَا جَمَالِكَ يُغْنِينَا مُحْيَاهُ

وليس أبدع في الشعر الغزلي من هذه الصورة البهية التي يرسمها بشعره في الآيات
 الآتية وكأنها رسمت بريشة رسام بارع إذ يصف حسناء تعرض دائما لذكائه
 وقد عرفها في أيام الشباب فيقول :

تُمِيسِي تَذَكَّرْنَا الشَّبَابَ وَعَهْدَهُ
 حَسَنَاءُ مُتَرَهِّفَةُ التَّوَامِ فَتَذَكَّرُ
 هَيْفَاءُ أَسْكَرَهَا الْجَمَالُ وَبَعَّضُ مَا
 أَوْفَى عَلَى قَدْرِ الْكِفَايَةِ يُسَكِّرُ
 تَشِيبُ الْغُلُوبُ إِلَى الرَّءُوسِ إِذَا بَدَتْ
 وَتُطِلُّ مِنْ حَدَقِ الْعَيُونِ وَتَنْظُرُ
 وَتَبِيتُ تَكْكُنُ بِالْثُجُورِ قَلَانِدُ
 فَإِذَا دَنَّتْ مِنْ نَحْرِهَا تَسْتَغْفِرُ
 وَتَزِيدُ فِي فَمِهَا اللَّالِيءُ قِيمَةً
 حَتَّى يَسُودَ كَبِيرُهُنَّ الْأَصْغَرُ

ومن شعره الغزلى الرقيق تلك الشكوى التى كانت تصدر عن قلب عامر بالحب
النقى والعاطفة الصادقة الإحساس فيناجى هذا القاب زيلومه فى أبيات هى آية
من آيات الشعر العربى :

أَقْصِرْ فُؤَادِي فِي الذِّكْرِ بِنَافِعَةٍ
وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدٍّ مَا كَانَا
سَلَا الْفُؤَادَ الَّذِي شَاطَرْتَهُ زَمْنَا
حَمَلَ الصَّبَابَةَ فَاخْفَقَ وَحْدَكَ الْآنَا
مَا كَانَ ضَرْكَكَ إِذْ عُلِّقَتْ شَمْسُ بُضْحَى
لَوْ أَذْكَرْتَ ضَبَابِيَا الْعِشْقِ أَحْيَانَا
هَلَا أَخَذْتَ لِهَذَا الْيَوْمِ أَهْبَتَهُ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تُصْبِحَ الْأَشْوَاقُ أَشْجَانَا
لَهْفِي عَيْنَيْكَ قَضَيْتَ الْعَمْرَ مَقْتَحِمَا
فِي الْوَصْلِ نَاراً وَفِي الْهَجْرَانِ نِيرَانَا
وَإِذَا تَوَجَّعَ فَإِنَّمَا يَنْفُثُ أَلَمَ الْحُبِّ وَحَرَارَةَ الشَّوْقِ فِي أَبِياتٍ هِيَ مِنْ عَيُونِ
مَا قِيلَ فِي التَّوَجُّعِ وَالشَّوْقِ التَّوَى فَيَقُولُ :
يَا آسَى الْحَيِّ هَلْ فَتَشَّتَ فِي كَبِيدِي
وَهَلْ تَجَيَّيْتُ دَاءً فِي زَوَايَاهَا
أَوَادُ مِنْ حُرْقٍ أَوَدْتَ بِمُعْظَمِهَا
وَلَمْ تَزَلْ تَتَمَشَّى فِي بَقَايَاهَا
يَا شَوْقِي رَفْتَا بِأَضْلَاعٍ عَصَفْتَ بِهَا
فَالْفَلَّابُ يَخْفُقُ دُعْرًا فِي خَنَائَاهَا

وتكاد: الأبيات الآنية تؤكد أنه كان يكنى للأنيسة عطفاً وحناناً
لا يتلان عن الهيام والوله - فاسمعه يقول في هذا الصدد دون أن يفصح عن حبيبة
قلبه ولكنه بربك صورة ترسم هذه الحبيبة الجميلة في قصرها الذي جعلت منه
منتدى الأدب وقد أخذت تنثر درر القول من فيها - فيقول :

يا ظبيّة منْ ظبّا - الأنسِ رائعة
بتّين القصور تعالَى اللهُ بَارِكِ
هل النعيمُ سوى يومٍ أراكِ بهِ
أو ساعةٍ بتِ أقضيها بِنَادِيكِ ؟
وهلْ يَعِدُ عَالِيُ العَمْرِ وَاهِبُهُ
لأن لم يجمّأهُ نَظْمُ الدَّرِّ مِنْ فَيْكِ ؟
لأن قَابَلَتَكَ الصَّبَا فِي مَصْرِ عَاظِرَةٍ
فَأَيُّنِي أَسَا عَنِّي تُسَاجِيكِ
وَأَنهَا حَمَاتُ فِي لَيْلٍ بُرْذَتَهَا
قَلْبًا بَعَثْتُ بِهِ كَيْمَا يَحْيِيكِ

وفي هذه الأبيات نلمس التقارب بينه وبين جميل بن ميمون إذ يقول ابشناد:
وساعةٍ مِنْكَ الْهُوْمَا وَإِنْ قَصُرَتْ
أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

وهذه الصورة البديعة تكاد تكون واحدة لهذه الفتاة التي يعشقها فهو ربيبة
القصور مترفة وهو يشاق إليها كلما ابتعد عنها رعن مجلسها الأنيس وهو لا ينفى
منها سوى أن يكون بهربها وفي حن رضاها وفي كف ناديتها . ومن خلال تصويره
لها نستبين أنها فتاة حضرية بل قاهرية ومن ثمّ نستدل على أن شاعرنا ناعم مترف

حتى في حبه وفي عشقه ولا يريد إلا أن تكون معشوقته منعمة مترفة مثله - وهو يستنشق النسيم في شذاها ويلبس الكأس في لاهها ويبلغ الغاية في رضاها فيناجيا قائلا :

أصبر إليك إذا النسي
مُ سرى يُمثلُ لي شذاك
أو دارت الكاساتُ بالـ
صهباً تخبرُ عن لَمَّاك
وأعدُّ قربك مُشتها
ى - وغايتي القصوى رضاك

أما في الحكمة فإشاعرنا أبيات تخبر عن فلسفته في الحياة وزهده فيها - فعندما يبسط هذه الفلسفة يفعل ذلك في صوفية عميقة الدلالة تنم عن نفس مؤمنة بالله وبقوته وبغفوه ورحمته فينشد في سنة ١٩١٣ بعنوان « إلى الله » :

يا ربُّ ! أين ترى مُقامَ جهنم
للظالمين غداً وللأشرار؟
لم يبق عفوؤك في السموات العلى
والأرض شبرا خالياً للنار
يا ربُّ ! أهلنى إفضلك واكفينى
شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لى أرى
غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسنى محنة
علمى بأنك عالم الأسرار
أخلاق برحمتك التى تسع الزرى
ألا تضيق بأعظم الأوزار

وكان قد قال في سنة ١٩١١ بعنوان «الأمل في الله» :

أنا يا إلهي عند بابك واقف
لا أبتغي عنه الزمانَ عدولا
ما جئتُ أطلب أجر ما قدمت
حاشا لجودك أن يكون قليلا
عظمتُ آمالي وصغرتُ الواسي
من ذلها إن لم تك المأمولا
إني ليمجني وقوفي سائلا
إن كنت أنت السيد المسئولا

وفي عبارات هذه الأبيات مناجاة صوفية خالصة لخالق السموات والأرض
يستطيع أي إنسان أن يناجي به ربه أيا كان دينه .

ومن فلسفته الزاهدة حكمته في الموت الذي يرى فيه خلاصا من عذاب الدنيا
ومن ثم فهو لا يخشاه وينصح بني الإنسان بالألّا يستولى الخوف على أفئدتهم
من استقباله :

إن سئمت الحياة فأرجع إلى الأثر
ض تسم آمنا من الأوصاب
إلك أم أجنى عليك من الأ
م التي خلقتك للاتباب
لا تخف فالبسات ليس بباح
منك إلا ما تشتهي من عذاب
وحياة المرء اغتراب فإن ما
ت فقد عاد سائلا للتراب

وفي هذه الآيات الحزينة ترسم العاطفة بتلك الابدسامة المرة التي تبدو على
محياء فتسم عن زفرة مكبوتة وقفت عند شفثيه ودمعة جمدت في عينيه - ويتول
من فلسفته في الموت :

متأبرٌ من ماتوا مواطنٌ راحة فلاتكُ إثرَ الهالكين جزوعا
وإنْ تبكٍ مَيِّتًا ضمَّه القبر فادخره لميَّتٍ على قيد الحياة دموعا

وإذا خاطب دواته أشاد بخدام العلم والمرشدين الصالحين وندد بالظلم والظالمين
فيخاطبها بهذه الآيات :

يا دَوَاةُ اجْعَلِي مِدَادَكَ وَرْدًا
لوفود الأقلام حينًا فتحينًا
وليسكن كالزمان حالًا وحالًا
تارة آسنًا وأخرى مَعِينًا
أكرمِي العلمَ وامْنَحِي خَادِمِيهِ
ماءك الغالي النَّفِيسَ الثَّمِينَا
وابذلي الصافي المُطَهَّرَ مِنْهُ
لِهُدَاةِ السَّرَائِرِ المُرْشِدِينَا
ولذا الظُّلُمُ والظُّلَامُ استعانَا
يَوْمَ نَحْسِ بِأَجْهِلِ الْجَاهِلِينَا
واستمدَا من الشرورِ مِدَادَا
فاجعليه من قِسْمَةِ الظَّالِمِينَا
واقذني النُّقْطَةَ الَّتِي بَاتَ فِيهَا
غَضَبُ الْقَاهِرِ الْمُدِلِّ بِكِينَا

ليراع امرىء إذا خطَّ سطرًا

تنبذ الحقَّ وأرتضى المينَ دينا

ويعود شاعرنا إلى تلك السويداء التي تستولى على وجدانه فتجعله يرى الدنيا
بمنظار قاتم ويرى في ساعاتها المتتالية ساسلة من العذاب والشقاء ويرى في الموت
الخلاص الوحيد من ظلمها وقسوتها فيشكو منها بهذه الآيات:

كم ساعة آلمني مسها

وأزعجتني يدُها القاسية

فتشتُ فيها جاحداً لم أجد

هنيئةً واحدةً صافية

وكم سقتني المرءُ أختُها

فرحتُ أشكوها إلى النالية

فاسامتني هذه عنوة

لساعة أخرى توبى ما يبه

ويحك يا مسكين هل تشكى

جارحة اليففير إلى ضاربه؟

حاذر من الساعات ويْل لمن

يأمن تلك الفيئة الطاغية؟

هذا هو العيش فزّل للذي

تجرّته الساعة والثانية

يا شاكى الساعات أسمع عسى

تنجيك منها الساعة القاضية

وما من شك في أن هذه السويداء التي تجيش في فؤاد إسماعيل صبرى ترجع إلى ما قاساه من ألم المرض ولاسيما بعد حادث القطار الذى تقدم ذكره والذى نتج عنه إصابته بارتجاج فى المخ ورضوض فى الجسم. ولقد عبّر أبلغ التعبير عن آلامه المبرحة فى هذين البيتين وقد قالهما قبل أن يودع الحياة بقليل ويرحب فيهما بالموت ليفرج كربته ويقضى على عذابه :

يا مَوْتُ هَاتِنَا فَخُذْ ما أَبَقْتُ الْإِيَّامُ مَنْى
بَيْنِي وَبَيْنَكَ خُطْوَةٌ إِنَّ تَخَطُّهَا فَرَجَتْ عَنِّي

وعلاوة على ما كان إسماعيل صبرى يتصف به من خلق كريم وذوق فى الأدب والشعر رفيع وأنس ودعابة وصفاء نفس وأناقة فى الملبس ورقة فى الحاشية فقد كان شاعرنا وطنيا مخلصا يعتز بوطنيته فى صدق وحرارة. واشتهر عنه أنه لم يزر لإنجليزيا واحدا على الرغم مما كان للإنجليز من سيطرة وسلطة فى عهده. وقد استماله اللورد كرومر لزيارته فلم يفعل. وحينما قيل له إن زيارة هذا اللورد قد ترفعه إلى رئاسة الوزارة أجاب قائلا : وماذا تفيدنى رئاسة الوزارة غير اغتصاب ضميرى وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه !!

وحينما كان محافظا للأسكندرية أرادت الحكومة منع الزعيم مصطفى كامل من إلقاء خطبة فى الشعب الأسكندري بزعم الخوف على الأمن العام وانتهاك القانون فرد على الحكومة رسما د بأنه المسئول عن الأمن والنظام فى محافظته وأنه يتحمل كل ما يترتب على إلقاء الخطبة من تبعات . وقد لنى الزعيم مصطفى كامل من الجمهور الأسكندري ما يستحق من احتفاء وتكريم فى رعاية المحافظ الشاعر الوطنى الغيور .

وتظهر وطنية إسماعيل صبرى وضاحية فى الأبيات التى نظمها فى وصف أهرام مصر وهى تنفيض بالحماسة الوطنية المتأججة . فاستمع له وهو ينشد :

لا القومُ قَوِي ولا الأَعوانُ أَعوانِي
إِذا وَتَنِي يَوْمَ تَحْصِيلِ الْعُتْلانِ وَإِنِ
وَلَسْتُ - إِنْ لَمْ تُتَوِّدْنِي فَرَاغَتَهُ
مِنْكُمْ - بِفِرْعَوْنَ عَالِي الْعَرْشِ وَالشَّانِ
وَلَسْتُ جَبَّارَ ذَا الْوَادِي إِذَا تَسَلَّيْتُ
جِبَالَهُ تِلْكَ مِنْ غَارَاتِ أَعْوَانِي
لَا تَقْرَبُوا النِّيلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا
فَأَوْهَ الْعَذَابُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسْلَانِ
رَدُّوا الْمَجْرَةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ
أَوْ فَاطْلُبُوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظَمْآنِ
وَابْنُوا كَمَا بَدَتْ الْأَجْيَالُ قَبْلَكُمْ
لَا تَتْرَكُوا بَعْدَكُمْ فخرًا لِلْإِنْسَانِ
أَمْرَتَكُمْ فَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ
لَا يَتَنِ مُسْتَمِعًا عَنْ طَاعَةِ ثَانٍ
فَالْمَلِكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ
جَنْبًا لَجَنبٍ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانِ
لَا تَتْرَكُوا مُسْتَحِيلًا فِي اسْتِحَالَتِهِ
حَتَّى يُمِيطَ لَكُمْ عَنْ وَجْهِ الْمَكَانِ

وكل هذه النماذج من شعره تدل على أنه صار شاعرا بأدق معاني الكلمة .
فقد كان لا يحتفل لقرض الشعر إلا إذا جاشت في نفسه العاطفة القوية وسمح
لذهنه الخاطر البديع فيختار له الألفاظ الجميلة ينضدُّها صيغا رائعة مصقولة ثم
يخرجها وكأنها من صائغ الحلى لا من نظم شاعر .

وكان صادق الوجدان يحتفل للموسيقى الشعرية ويهتز لها - فإذا قرأت شعره شعرت بالحاجة إلى الاستماع إلى الغناء - ولقد تغنى حذاقُ المغنين في شعره فزادوا بحسن الكلام إطرابا على إطراب.

والذى يقرأ ديوانه كله يحس في قوة أن الإيقاع الغنائى هو النغمة الجميلة العذبة التى يعزفها على قيثارة فنه التى ترقص الناس لأن أنغامها تسكب فى آذانهم وأفئدتهم سهلة الطرب سائغة اللفظ الرشيق .

ويعزو بعض مؤرخى سيرته هذه الموسيقى التى تشع فى شعره إلى تأثره بأدب الصالونات حينما كان يتلقى العلم بفرنسا - غير أن هذا التأثير فى عقيدتى لم يكن قويا إذ أنه خالط الصالونات المصرية فى معظم أوقات حياته الأدبية فتردد على صالون ولى الدين يكن والسيدة نازلى فاضل والآسنه مى - وكانت داره صالونا أدبيا يحفل بالأدباء والشعراء والكتاب .

ويعد شعر إسماعيل صبرى الغنائى (أو الزجل الراقى) من البوادر الأولى للدرسة الحديثة فى هذا اللون من التريض ومن ثم كان شاعرنا رائدها الأول كما كان رائد الشعر الغنائى الفصيح - وإليك تلخيص الموسيقى اللحنية العذبة الجرس فى هذه الأبيات :

لأَرْحَمَ يَا سَيِّدَ الْمَلَا حِ
مُغْنَمُ ضَنَاءُ الْبِعَادِ
دَمْعُهُ عَلَى الْخَدِّ سَاحِ
مِنْ حَرِّ نَارِ الْفَوَادِ
يَا لَلَّيْ ابْتَلَيْتْ بِالْهَوَى
وَصَنَرْتُ مُغْنَمَ أُسَيْرِ

خَلَّتْ صُطْبَارَكَ دَوَا
حَتَّى يَهْوَنَ الْعَسِيرُ
الْحُبُّ حَالَهُ عَجَبُ
يَلْبِذُ فِيهِ الْعَذَابُ
ذِكْرُ الْحَبِيبِ فِيهِ طَرَبُ
وَدَمْعُ عَيْنِهِ شَرَابُ

ولقد سمعت هذه الأبيات تغنى من أحد المطربين التمدى المشهورين وتخوننى
الذاكرة فى تذكر اسمه واسم صاحبه - غير أن معانيها السامية البديعة السياق تعانى
أتمنى أن يعدل مؤلفو الأغاني فى الوقت الراهن عن تفتيت ما ينظمون من أزجال
وأن يعودوا إلى مثل الزجل المدون قبل الذى تستسيغه الأذان ويطرب له
السامعون مع الابتعاد عن القصائد المليئة بالحزن والتوجع القائم بالجمال بالسواد.

وسمعت فى عهد الشباب المرحوم محمد عثمان يغنى من تاجينه المتطورة الغنائية
الآتية - وجاء فى ديوان شاعرنا أنه كان يستمع فى ليلة طرب إلى المالحن محمد عثمان
وهو يغنى متطورة لم ترقه ألباظها لما تضمنه من بعض التعبيرات السخيفة - فطلب
بعض الجاساء من إسماعيل صبرى نظم متطورة يستغنى بها عن المنطورة التى
تغنى - فاشترط أن تغنى متطورة فى الليلة نفسها وقبل محمد عثمان فنظم بتاجينها
على الفور وأجاد غناءها - وفيما يلى أبياتها العذاب:

أَدَّكَ أَمِيرُ الْأَعْصَانُ	مِنْ غَيْرِ مَكَابِرُ
وَوَرْدُ خَسْدِكَ سُلْطَانُ	عَلَى الْأَزَاهِيرُ
وَالْحُبُّ كُلُّهُ أَشْجَانُ	يَا أَلْبُ حَاذِرُ
وَالصَّنْدُ وَيَا الْهَجْرَانُ	جِعْزَا الْمُخَاطِرُ

يَا أَلْبُ أَدَانَتْ حَبِيَّتْ
صَبَحَتْ تَشِيكِ مَا لَيْتْ
صَدَّاتْ أُولَى وَرَلَانَتْ
يَامَا نَصَحْتَكْ وَنَهَيْتْ
وَرَجَعْتْ تَشَم
لَكَ تَحْدُ يَرْحَمْ
ذَلِ الْمُتَيَّسَم
لَوْ كُنْتُ يَفْهَمْ

* * *

أَعْرِضْ لِحُسْنِكَ أَوْرَاءْ
وَابَاتْ صَرِيحْ الْأَشْوَاءْ
دَاهَجْرُ وَصَبَابَهْ وَفَرَاءْ
وَارْحَمْ أَلُوبْ الْعُشَاءْ
وَكَتَبْ وَادَوْنْ
وَاحْسِبْ وَآخَمِينْ
يَا رَبْ هَسُونْ
دَاشِيْ يَجْنُونْ

وعندما كان طالبا ألف أغنية لحنها وغناها المرحوم عبده الحمولى ومن أبياتها
الحلوة الجرس الرقيقة المعانى قوله :

خَلَّتْ صُدُودُكَ وَهَجْرُكَ
وَاطْفَيْ لَهْيِي وَوَجْدِي
سَاعِيَّةً وَصَالِكْ وَأَرْبَكْ
أَغْلَى مِنْ الْعُمُرْ عِنْدِي

* * *

يَا نَرْجِسْ الرُّوضْ مَالِكْ
سَلَطْتُ لِحُظَّكَ عَلَى
إِلَّاهِي كَوَانِي جَمَالِكْ
لَكِنْ سَيِّئَهَا عَنِي

فهل بعد هذه العذوبة اللفظية ما يدع المجال للتمول بأن الأغاني القديمة كانت

مُسَفَّةٌ ولا روح فيها تبغض بالحياة ؟ إن في الأغاني القديمة كلمات وألحانا مازالت
ترن في أذن الزمان فيطرب لها على الرغم من أقوال الشاتين .

وبعد أن شغل إسماعيل صبرى منصب وكيل نظارة الحتمانية (وزارة العدل
حاليا) طلب اعتزال الخدمة سنة ١٩٠٧ م (١٣٢٥ هـ) وتفرغ للأدب والشعر
حتى أعجزته الشيخوخة - ووافته المنية في ٣١ من مارس عام ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ)
بداره في شارع قصر العيني بالغامس العمر حوالى ٧٠ عاما - ودفن بالإمام الشافعى
بالقاهرة - وكانت وفاته بالذبحه الصدرية .

ولم يقصر تلاميذه الشعراء في رثائه - فقال أحمد شوقي يرثيه :

أَجَلٌ وَإِنْ طَالَ الزَّمانُ مُوَافِ

أَخْلَتِ يَدَيْكَ مِنَ الْخَلِيلِ الْوَافِ

دَاعٍ إِلَى حَقِّ أَهَابِ بِنَاشِعِ

لَيْسَ النَّذِيرُ عَلَى هُدًى وَعَفَافِ

إلى أن يقول :

فَجِيعَتُ رَبِّا الْوَادِى بِوَاحِدِ أَيْكِيَا

وَتَجَرَّعَتُ تَكْلَ الْغَدِيرِ الصَّافِ

فَقَدْتُ بَنَانَا كَالرَّيِّعِ مُجِيدَةِ

وَشَى الرِّياضِ وَصَنَعَةِ الْآفَوافِ

وقال خليل مطران يصف أخلاقه في الشعر والحكم :

مَاتَ مَا كَانَ فِي

أَخْلَاقِهِ شَيْءٌ يُرِيبُ

ماتَ الَّذِي مَنَظُّومُهُ
 لِأَوَّلِي النُّهَى سِحْرٌ خَلُوبُ
 الضَّارِبُ الْأَمْشَالَ لَيْتَ
 سَ لَهُ بِرَوْعَتِهَا ضَرْبُ
 هَلْ فِي الْجَدِيدِ كَقَوْلِهِ
 مَائُورٍ وَالْمَعْنَى جَلِيبُ
 (أَمَانِ لَوْ عَرَفَ الشَّبَا
 بُ وَآه لَوْ قَدَّرَ الْمَشِيبُ)

وتوقع حافظ إبراهيم لفقده فأنشد:

نَعَاكَ النُّعَاةُ وَوَحَّمَ الْقَدَرُ
 وَلَمْ يُغْنِ عَنَّا وَعَنكَ الْحَذَرُ
 طَوَتْ ذُبْحَةُ الصَّدْرِ صَدْرَ النَّدَى
 فَلَمْ تَطْوِ إِلَّا سَجْلَ الْعَبَرِ
 فَأَمْسَيْتَ تُتَذَكَّرُ فِي الْغَابِرِينَ
 وَإِنْ قَلَّ مِثْلُكَ فَيَمُنُّ غَدَرُ

ثم يصف شعره الجزل فيقول:

يَقُولُ قَيْرِخَصُ دُرِّ النُّجُورِ
 وَيُغْثِي جَمَانَ بَنَاتِ الْفَيْكَمْرِ
 يَسُوقُ الْقِصَارَ فَيَتَأَبَّى الْعِشَارَ
 وَكَمْ مِنْ مُطِيلٍ مُمِيلٍ عَشْرَ

قِصَارُ وَحَسْبُ النُّهَى أَنْهَا
لَهَا مُعْجِزَاتُ قِصَارِ السُّورِ

عُيُونُ الْقَصَائِدِ مِثْلُ الْعُيُونِ
وَشَعْرُكَ فِيهِ مِثْلُ الْحَوَرِ

ومن أقوى ما استطاع مقارنته بشعر الشريف الرضى من شعر إسماعيل صبرى
البيتان الغزليان التاليان :

يَا سَرَّحَةَ بِجَوَارِ الْمَاءِ نَاضِرَةَ
سَقَاكَ دَمْعِي إِذَا لَمْ يُنَوِّفْ سَاقِيكَ
عَارٌ عَلَيْكَ وَهَذَا الظِّلُّ مُنْتَشِرٌ
فَتَكَ الْهَجِيرَ بِمِثْلِي فِي نَوَاحِيكَ

وكل من قرأ شعر الشريف الرضى واطلع على هذين البيتين يتذكر على الفور
قول الشريف :

يَا ظَمِيَّةَ الْبَّانِ تَرَعَى فِي خَمَائِلِهِ
لَيْمَنِكَ الْيَوْمَ أَنَّ الْقَلْبَ مَرَعَاكَ
الْمَاءُ عِنْدَكَ مَبْدُوءٌ لِشَارِبِهِ
وَلَيْسَ يَرُويكَ إِلَّا مُدْمَعِي الْبَاكِ

وليس من شك في أن إسماعيل صبرى قد تأثر إلى حد ما بشعر الشريف الرضى
وتأثر بالأدب الفرنسي ولاسيما بالشاعر (لامرتين Lamartine) - وقبل أن
أتناول بالبحث عناصر المتاركة في سلوك هذين الشاعرين وشعرهما وسلوك إسماعيل
صبرى وشعره أجد من الملائم أن أحدث للقارئ من سيرة كل منهما ذكرا .

فالشريف الرضى هو أبو الحسن محمد بن طاهر الحسين بن موسى سليل الحسين ابن علي بن أبي طالب عن طريق موسى الكاظم . ومن ثمّ لقب بلقب الموسوى - وقد ولد ببغداد عام ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ونضج عقليا في سن مبكرة جدا فنظم الشعر ولما يتجاوز العاشرة من عمره - وكان ذا نفس أبيّة ومكانة رفيعة بين الناس تخطيط به هالة من الهيبة والورع والعفة والحب الصادق - وكان يرى في نفسه مصاحبا ومن ثمّ كان يميل إلى الفخر في شعره - وقد أكب على قراءة كتب الأوائل في العلم والأدب وحذق اللغة العربية واهتم بالأدب مما جعل منه أحد كبار الشعراء العرب .

وشعره من أمتع ما نظم في الشعر العربي وأجزله من حيث المعاني والجرس وجمعه للصيغ النفسية والفلسفية وصور الاجتماع ونقده وشكوى الزمان وصروف الدهر والتأمل في الحياة وشرح دواخل النفوس - ولم يكن شاعرا فنيا فحسب بل كان شاعرا يبرز صورة نفسه المليئة بالحكم والعبر - ولذا كان معظم شعره تعبيرا صادقا عما يجيش في وجدانه من إباء وعزة وحب للفضيلة ومكارم الأخلاق - وكل هذه السجايا تتضح في شعره ولا سيما في قصائده التي تناول الفخر والثناء والشكوى - ومن خصائص شاعريته أنه كان يعطى عناية خاصة للمعنى أكثر من عنايته باللفظ والصنعة ولذا خرج شعره رصينا وافر المعاني واسع التأمل دقيق الخيال ينطوى على آراء فلسفية - وكل ذلك في أسلوب سهل شيق يمتاز بالسلاسة والركة - وكان يعرف الجيد من الغث في كل ما اطلع عليه من الشعر العربي .

ولإذا حللنا هذه العناصر التي تتمثل في شعر الشريف الرضى وأسلوبه نجدها ماثلة في شعر إسماعيل صبرى مما يدل في جلاء على تأثير إسماعيل العميق بالشريف ولكن في غير تقليد أعمى أو سرقات شعرية - ويعزز هذا التقارب بينهما سلوك كل منهما في الحياة الذي يكاد أن يكون قاسما مشتركا في معظم نواحيه .

واعل في الأمثلة النموذجية الآتية ما يجعل المقارنة بين الشاعرين تنطوي على كثير من الصحة فيما يتعاق بشاعريتهما .

فقول إسماعيل صبرى في وصف حبيبته بالآيات التي مطلعها :

فتمنسى تذكُّرنا الشبابَ وعهدهُ

حسناء مرهفة القوام فتذكُّرُ

يشبه إلى حد بعيد قول الشريف الرضى في حبيبته ووصفها إذ يناجيها بهذه الآيات :

يا ظيعة البان تترعى في خمائله

لئيمهنك اليوم أن القلب مرعاك

الماء عندك مبدول لشاربه

وليس يرويك إلا مدمعي الباكي

هبت لنا من رياح الغور رائحة

بعده الرقاد عرفناها برياتك

ثم اثنينا إذا ما همزنا طرب

على الرحال تعللنا بذكرائك

سهم أصاب ورايين يدي سلم

من بالعراق ، لقد أبعدت مرماك

حكمت لحاظك ما في الرِّيم من ملح

يوم اللقاء ، وكان الفضل للحاكي

أَنْتِ التَّعِيمُ لِقَلْبِي وَالْعَذَابُ لَهُ
فَمَا أَمْرِكَ فِي قَلْبِي وَأَحْلَاكِ
عِنْدِي رِسَائِلُ شَوْقٍ لَسْتُ أَذْكُرُهَا
لَسْوَلاً الرَّقِيبُ لَقَدْ بَلَغَتْهَا فَآكِ

فالجرس العذب في القصيدتين متمائل وسهولة النظم وجمال التعبير وروعة الوصف
ودقة المعاني وسلاسة التطريب وجزالته في القولين متشابهة .

واستمع للشاعرين يشكوان الغرام والإخفاق فيه لتلنس التقارب في التفكير
وبث لوعة الحب - فإسماعيل صبرى يناجى قلبه ويلومه على التعالق بالغرام في غير
جدوى فينشد الأبيات التي أولها :

أَقْصِرْ فَوَادِي فَمَا الذِّكْرَى بِشَافِعَةٍ
وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدٍّ مَا كَانَا

وإذا بهذه المناجاة كانت قد جرت - حلوة النغم عذبة الأسلوب صادرة من
قالب الشريف الرضى العامر بالحب النقي والعاطفة الصادقة الإحساس - على قلم
هذا الشاعر البغدادي الفحل إذ يقول مناجيا صاحباً له ذاق مرارة الإخفاق في
الحب مثله :

قَالَ لِي صَاحِبِي عِدَاةَ التَّقِينَا
تَنْشَاكِي حَرَّ الْقَاوِبِ الظَّمَاءِ
كُنْتَ تَخْبِرْتَنِي بِأَنْتِكَ فِي الْوَجْدِ
دَعَايَ عَقِيدِي وَأَنْ دَاءَكَ دَائِي
مَا تَرَى النَّفَرَ وَالتَّجْمَلَ لِلْيَبِ
نِ فَإِذَا انْتِظَارُنَا لِلْبُسْكَاءِ

لَمْ يَقُلْهَا حَتَّى اثْنَيْتُ لِمَا بِي
أَتَلَقَّى دَمْعِي بِفَضْلِ رِدَائِي

وإسماعيل صبرى يشكو الزمان ويرى في ساعاته عذابا مستمرا كما يرى الدنيا بمنظار
أسود فيقول والاسى والشجن يستوليان على قلبه :

كَمْ سَاعَةِ الْمَيِّ مَسْهًا
وَأَزَعَجَتْنِي يَدُهَا الْقَاسِيَةُ

وإذا به ينفث هذا الإحساس الحزين وكأنه يسمع صوت الشريف الرضى
يترنم فى الأفق البعيد بأبياته الشجية الحزينة التى تنعى على الدهر مظالمه وبعده عن
الإنصاف ويؤكد أنه سيمصبر حتى يدفع بصبره الثابت المتين ما يحيط به من
خطوب حسام - فينشد قائلا :

فَتَأْتِنِ مِنَ الدَّهْرِ اسْتِمَاعٌ ظَلَامَتِي
إِذَا نَظَرْتُ أَيَّامَهُ فِي الْمَظَالِمِ
وَلَمْ أَدِرْ أَنَّ الدَّهْرَ يَخْفِضُ أَهْلَهُ
إِذَا سَكَنْتُ فِيهِمْ نَفْسُ الضَّرَا غَمٍ
سَأُصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّنِي
مَلِكْتُ بِهِ دَفْعَ الْخَطُوبِ الْهَوَاجِمِ

وهذه الكتابة السوداء التى تخيم على حياة الشاعرين ترجع إلى مرض الشريف
الرضى منذ الشباب الغض وإلى مرض إسماعيل صبرى فى كهولته وشيخوخته
ولا سيما بعد حادث القطار على الدحو الموضح قبل . فمرض الشريف الرضى أجرى
قلبه بهذين البيتين :

خطوبٌ لا يُقَارُهَا البقاءُ
وأحوالٌ يدبُّ لها الضراءُ
ودهرٌ لا يصحُّ به سقيمٌ
وكيفَ يصحُّ والأيامُ داءُ ؟

فيرد عليه إسماعيل صبرى وقد سئم الحياة ورأى فى الموت الخلاص من المحن
فيمشد الأبيات التى مطلعها :

إِنْ سَيِّئَتِ الحَيَاةَ فَارْجِعْ إِلَى الْأَرْضِ
ضِ تَتَمُّ آمِنًا مِنْ الْأَوْصَابِ
تِلْكَ أُمُّ أَحْنُ عَلَيْكَ مِنْ الْأَمْرِ
مُ الَّتِى خَلَقْتِكَ لِلْأَعْيَابِ

والحكمة تلازم شعر الشعارين وتتخلل الكثير من قصائد كل منهما وتتم عن
فلسفتها فى الحياة - فإذا ركن إسماعيل صبرى إلى صوفيته الشفافة سأل الله
أين تقام الجحيم للظالمين ثم يطلب منه أن يمنَّ عليه بالفضل ويقيه شر الشيطان
فيناديه فى ضراعة صادقة بأبياته التى أولها :

يَا رَبِّ ! أَيْنَ تُرَى تُقَامُ جَهَنَّمُ
لِلظَّالِمِينَ غَدًا وَالْأَشْرَارَ ؟

إذا سأل إسماعيل صبرى الخالق وطلب منه الفضل وتجنبيه الوقوع فى الشيطان
والزلل فإن الشريف الرضى قد أبرز فلسفته العميقة الغور فى أبياته التى تخبر عن
صوفيته وحذره من الناس وزهده فى المال فيقول :

وَفِي شِدَّةِ الدَّهْرِ اعْتِبَارٌ لِعَاقِلٍ
وَفِي لَذَّةِ الدُّنْيَا غُرُورٌ لَوَاقِلٍ

وأكثرُ من شاورتهُ غيرُ حازِمٍ
وأكثرُ من صاحتِ غيرُ الموافقِ
إذا أنتَ فتشتَ القلوبَ وجدتها
قلوبَ الآعادي في جُسومِ الأصادقِ
وعندى من الثود الذى لا يشوبهُ
لحاظُ المرائى أو كلامُ المنافقِ
أغالطُ نفسى بعدَ مَرأى ومستمعٍ
ولأ أنظرُ الدنيا بعين الحقائقِ
وما جَمعني الأموالُ إلا غنيمةُ
لمن عاشرَ بعدى واتهامُ لِرأى

فالحكمة الفلسفية وإن اختلفت في المعانى عند الشعراء فإنها تتفق في
أهدافها الأساسية - فالإثنان يضجان بالظلم وبالمناققين ويمجدان الفضيلة والأخلاق
الكريمة وينزعان إلى الزهد والتصوف .

وكل من الشعراء لا يطمح إلا إلى العلو ويحضان على خوض غماره وطلبه في
إصرار - وتبرز هذه الظاهرة النفسية في شعر إسماعيل صبرى الذى يصف به
الأهرام والذى يقول فيه على لسان فرعون :

لا القومُ قومي ولا الأعوانُ أعواني
إذا وني يومَ تحصيلِ العُلاتِ وإنِ

وتبرز واضحة في قول الشريف الرضى حين يفخر ويصف نفسيته العالية
وسلوكة الحميد في الحياة وصفا دقيقا فيقول :

لغير العُلا مِنى التملّى والتجنبُ
ولولا العُلا ما كنتُ في الحبِّ أرغبُ

إذا الله لم يعتذر لك فيما ترؤمهُ

فما الناس إلا عاذل ومؤنب

ولعل في كل هذه النماذج من أشعار الشعارين ما يقرب المتقارئة بينهما إلى أضييق حد - ويظهر إلى حد ما تأثر إسماعيل صبرى بالشريف الرضى فكان مثله أبى النفس كريم السجايا يتسم شعره بالعفة والابتعاد كلية عن فاحش القول والاسفاف فيه كما يقسم بالسهولة وعذوبة الجرس ودقة المعاني والركون إلى الحكمة الفلسفية مع انتقاء الألفاظ الجزلة فى أسلوب رشيق وضاح - وكان يماثله فى الميول الشريفة الراقية والذوق السليم وسمو النفس .

ويتمول مؤرخو سيرة إسماعيل صبرى إنه تأثر بالشاعر الفرنسى (لامرتين) وذلك بسبب إقامته فى فرنسا طوال فترة دراسته لنيل إجازة الحقوق.

ولاستطاعة إظهار هذا التأثير يحسن الوقوف على نبذة مركزة من تاريخ حياة الشاعر (Lamartine) وسرد ترجمة لبعض نماذج من شعره تصلح للمقارنة بين شاعريته وشاعرية إسماعيل صبرى ولا سيما أنه عاصر الفترة التى تلت وفاة هذا الشاعر الفرنسى الكبير وحضر اهتمام الشعب الفرنسى بأشعاره ولا سيما بعد موته .

فقد ولد (الفونس دى لامرتين Alphonse de Lamartine) بمدينة ماسون عام ١٧٩٠ م . وقضى سنوات طفولته فى رعاية والدته الحسابة - وبعد أن تلقى دروس تعليمه الأولى على يد القس (دييون) أرسل إلى مدرسة اليسيه بمدينة ليون - ولما أتم دراسته بهذه المدرسة قام برحلة إلى إيطاليا خلال عامى ١٨١١ ، ١٨١٢ - ولدى عودته التحق بالسلك العسكرى - وبعد قليل فضل السلك الدبلوماسى وكان يصرف معظم وقته فى نظم الشعر - ولقد وضعته القصائد الأولى التى نشرها فى صف كبار الشعراء الخزليين - ثم أهلتة القصائد التالية إلى أن يشغل مقعداً فى الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٠ م . وكان عمره وقتئذ . ٤٠ عاماً - وفى عام ١٨٣٢ م استأجر سفينة كبيرة وقام برحلة إلى الشرق الأوسط صحبة

زوجته وابنته التي فقدتها بدأ يبروت في سن العاشرة من عمرها فحزن عليها حزناً شديداً .

وفي عام ١٨٣٣ م . انتخب عضواً بمجالس النواب - وحين سؤل عن المكان الذي سيجلس فيه بين أعضاء هذا المجالس أجاب بأنه سيتخذ مكانه في السقف - وقد بر بوعده فظل بعيداً عن تنافس الأحزاب .

وفي ١٨٤٨ م . اشترك في إقامة جمهورية ذلك العام وألف كتابا في هذا الصدد - واختير بعد ذلك عضوا بالحكومة المؤقتة . ولم يحصل لدى التصويت على اختيار رئيس للجمهورية إلاّ على ١٨٠٠٠ صوت في مقابل ٥٠٠.٠٠٠ ره صوت نالها (لويس نابوليون) - وفي عام ١٨٥١ م ترك الحياة العامة - وكانت أعوام شيخوخته أعوام بؤس وفقر إذ اضطر إلى كسب عشرة ملايين من الفرنكات من كتبه ليدفع ماعليه من الديون . وفي أواخر أيام حياته منحته الحكومة معاشا يتناوله من أرباح مبالغ قدره خمسمائة ألف فرنك وذلك على سبيل المكافأة الوطنية - ولكنه لم يتمتع بهذا المعاش إلا مدة عامين إذ وافته المنية عام ١٨٦٩ م عن حوالى ٨٠ عاما .

ولقد كان لامرئين - مثل إسماعيل صبرى - يعتبر نفسه رجل إدارة وأعمال وليس رجل أدب وشعر - فكان يقول: « يجب أن يكون الشعر ترفيها عن النفس لشغل أوقات الفراغ - فهو زينة الحياة ولكن خبزنا اليومي يجب أن نحصل عليه بالعمل والكفاح » . ومع ذلك فقد كان شاعرا بكل معنى هذه الكلمة .. فهو يقول ما ترجمته :

غذیتُ یار فاقی .. مثلاً يتنفس الإنسان

مثلاً يغرّدُ العصفور - مثلاً يتهدد الريح في هبوبه

مثلاً 'يحدث' الماء 'خبره' في النسيابه

وكان (للامرتين) الفضل في إبداع شعر جديد يفيض بالاحاسيس ويلعب

بالانفعالات النفسية لعذوبته ورنين جرسه - وهذه ميزات نجدها بارزة في شعر إسماعيل صبرى - وكان (لامرئين) يقول : « لئن وهبت الشعر الحى - ليس لتلك القيثارة ذات الأوتار السبعة المألوفة - وإنما لأوتار القلب الإنسانى نفسها وقد لمست وتحركت بأحاسيس الروح البشرية التى لا حصر لها وبأحاسيس وطلبات الطبيعة فى النفس ، وكل هذه الأحاسيس والطلبات التى تلعب بأوتار القلب أثارها شعر إسماعيل صبرى فيما نظم من شعر قليل العدد كثير المعانى كبير القيمة الأدبية .

وكان انفعال (لامرئين) فى شاعريته انفعالا نابعا من وجدانه ومن قرارة نفسه - ومن ثمَّ كان يقول « إن الشعر هو ألحان القلوب التى تجيش بداخلها وفى أعماقها ، وكان شعره يأخذ مصادره من ينابيع ثلاثة هى : العواطف القلبية - ومباهج الطبيعة وسحرها ومفاتها - وحاسة الإيمان التى تستولى على قواده - وهذه المصادر الثلاثة كان إسماعيل صبرى يركن إليها فى إبداع سياق قصائده وفى انتقاء المعانى لتعبّر عن انفعالاته النفسية أصدق تعبير .

ولقد أنشد (لامرئين) الشعر وهو غرض الإلهاب فى ميعة الشباب على غرار ما فعل إسماعيل صبرى - وظهر نبوغه المبكر عندما نشرت له مجموعة من قصائده خلال عام ١٨٢٠ م - بعنوان « التأملات الأولى » .

وجاء فى إحدى قصائده هذه (التأملات) وهى بعنوان (الوحدة) ما يشبه قول إسماعيل صبرى فى قصيدته الصوفية التى مطلعها :

يا ربُّ ! أين تُرى تُقامُ جهنَّمُ

للظالمينَ غداً وللأشرارِ ؟

(فلامرئين) بعد أن يصف وحدته وهو فوق الجبل وفى أحضان الغابة . وبعد أن يشاهد جريان النهر وأمواجه المتدفقة تعلوها الرغوة وتتبرع عيناه بكل مناظر الطبيعة الخلابة فى وحدته يقول :

ماذا يهمننا من هذه الوديان والسهول والأكواخ المنائفة في أرجائها
فكلها أشياء ذهبت فتتها مع الريح بالنسبة إلى .

فيا أنهار - ويا صخور - ويا غابات - ويا أيتها الوحدة الغالية على النفس
إن مخلوقا واحدا ينقصك وإلا فأنت يَسَابٌ لا تُدب فيه الحياة.
ويستطرد في وصفه للمشاهد الطبيعية التي تقع عيناه عليها إلى أن يأتي إلى
الجانب الصوفي من القصيدة فينشد :

ولكن ! ربما وراء هذه الحدود المعينة للكون
مواضع حيث الشمس الحقيقية تنير سموات أخرى
وإذا كنت قد استطعت ترك رفاقي على الأرض
فإن كثيرا من أحلامي قد تجلت أمام ناظري
فهنالك سأذوق لناذة النشوة من النبع الذي أبغيه
وهناك سأجد الأمل والحب
وهذا الخير المثالي الذي تتمناه كل نفس
والذي ليس له اسم في هذه الحياة الدنيا

(ولامرتين) مثل إسماعيل صبرى لايهاب الموت - بل يجد فيه الخلاص
الإلهي السماوي - وقد تناول بالشرح هذه السويداء التي تستولى على وجدانه وكان
بذاك أسبق من إسماعيل صبرى في قوله :

إن سُمّت الحياةَ فأرجع إلى الار
ض تَنَمُّ آمناً من الأوصاب
لاتخفُ فالموتُ ليسَ بِمَاحٍ
مِنكَ إلا ما تشيكي من عذاب

فاستمع إلى (لامتيرين) يقول في قصيدته (الخلود) ما يدل على التشابه الكبير في تفكير الشاعرين ويدل على تأثر الشاعر المصري بالشاعر الفرنسي دون أن يقلده تقليداً أعمى :

إن الشمس في هذه الأيام يشحب وجهها منذ فجرها
وعلى جباهنا الذابلة ما زالت تلقى
بعض أشعتها المرتعشة التي تصارع الليل
والظل يتزايد - والنهار يُحتَضَر - وكل شيء يمحي وينتهي

❖ ❖ ❖

أيها الموت ! إني أحييك - فأنت المخلص السماوي
وأنت لا تبدو لعيني أبداً في ذلك المظهر المشؤم
الذي أضفاه عليك منذ زمن بعيد الطلع والضلال
وذراعك لا تتسلح قط بذلك السيف المدمر
وجبهتك ليست تبدى القسوة وعينك ليست غادرة
فللجدة من الآلام يهدي خطاك رب رحيم
فأنت لا تدمر بل تخلص - ويدك
التي هي رسول سماوي تحمل مشعلاً إلهياً
ولمّا عيني الكيلة تُغمض جفنيها إزاء النور
تأتي أنت ذات يوم جليل تُفعم جفنيّ بالضياء
والأمل بالقرب منك يحلم فوق أحد القبور
ومستنداً إلى الإيمان بالله . يفتح أمامي عالماً آخر أكثر جمالا

❖ ❖ ❖

(ولامرتين) مثل إسماعيل صبرى يصف حبه ويصف حبيبته في شعر سلس شيق
المعاني عذب العبارة والجرس - فاستمع إليه يقول في قصيدته التي كتبها في إحدى
أمسيات فصل الصيف عام ١٨١٩ م .

عشنا تتوالى الأيام .

فهي تسرى دون أن تترك أثرا

فاستمع لي يا آخر أمل في حبي

وبعد أن يتناول سنوات عمره التي تمر في سرعة وتراكم وراءه كأوراق
الشجر الذابلة يناجي حبيبته قائلا :

غير أن صورتكِ الشابة المضيئة

التي زينها الأسف

لا يمكن أن تشيب في أحضاني

فهي مثل الروح ليس لها سن أو عمر

لا إني لم تفارق عيني

ولمّا ناظري الكاسف

ينقطع عن رؤيتكِ على الأرض

فجأة أراكِ ماثلةً في السماء

ويسير في مناجاته على هذا النحو إلى أن يختتم قصيدته الغزلية الرائعة بقوله:

وخلال نعاسي - إذا ما يدرك

تحل نسيج أيام حياتي

يانصف روجي السماوية
فإني سأصحو من غفوتي لأجدني بين أحضانك

* * *

وكإشعاعين من إشعاعات الفجر
وكزفرتين مختلطتين في نفثتهما
فإن روحينا لا تكونان
إلا روحا واحدة مازالت تتنفس

وما من شك في أن هذا الوصف الذي أضفى على حببية (لامتريين) صبغة
سماوية يماثل في كيانه العام وصف إسماعيل صبرى لحبيبتة التي يسمو بها إلى
الروحانيات المكونة من الضوء المنير إذ يخاطبها مذكرا:

أنتِ رُوحانيَّةٌ لا تدَّعي
أنَّ هذا الشكلَ من طينٍ وماءٍ
وانزَّعي عن جسيمك الثوبَ يَبينُ
للَمَلا تَكوينُ سُكَّانِ السَّمَاءِ
وأرى السُّدُنِيَّا جَنَّا حَتَّى مَلَكِ
مُخَلَّفَ تَمثالٍ مَصُوغٍ مِن ضِيَاءِ

ومما يدل على ثقافته الفرنسية الواسعة النطاق وتأثره بكتابتها ومفكراتها
وشعرائها على الأخص. ترجمته في يوليو عام ١٩٠٠ لمعنى المثل الفرنسي «ليت
الشباب يعرف وليت المشيب يقدر» ، فصور معنى هذا المثل في أبياته
الحكيمة التالية :

كم يَدْرِ طَعْمَ الْعَيْشِ شَيْبًا
 نٌ وَلَمْ يَدْرِكْهُ شَيْبٌ
 جَهْلٌ يُضِلُّ قُوَى الْفَتَى
 فَتَطْيِشُ وَالْمَرْمَى قَرِيبٌ
 وَقُوَى تَخْوُرُ إِذَا تَشَبَّ
 ثٌ بِالْقُوَى الشَّيْخُ الْإِرِيبُ
 بَيْنَمَا يُقَالُ كَبَا الْمُغَفَّةُ
 لٌ إِذْ يُقَالُ خَبَا اللَّيِّيبُ
 أَوَّاهُ لَوْ عَلِمَ الشَّبَا
 بٌ وَآه لَوْ قَدَّرَ الْمَشِيبُ

وفي عام ١٩١٠ ترجم حكاية الثعلب والغراب شعراً . وقد نقلها عن حكاية
 الشاعر الفرنسي « لافنتين La Fontaine » واستلها بقوله :

أَبْصَرَ الثَّعْلَبُ الْغُرَابَ عَالِي غَصْبٍ
 نِ نَضِيرٍ فِي رَوْضَةٍ غَنَاءِ
 وَرَأَى قِطْعَةً فِيهِ مِنْ الْجُبِّ
 نَةً تُزْرَى بِالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ

إلى أن يخلص إلى الحكمة من الحكاية فيقول :

بَعْضُنَا لَا يَزَالُ فِي لِثَرٍ بَعْضٍ
 نَاهِبًا سَالِبًا بِلا اسْتِحْيَاءِ

فَتَشْعَوْدُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَحَاذِرُ
لَا تَكُنْ - إِنْ عُدِدْتَ - مِنْ هَؤُلَاءِ

هذا هو إسماعيل صبرى الشاعر فى تاريخ الأدب المصرى المعاصر - ولعلنى بهذا
البحث قد أصبت بعض التوفيق فى تحليل شاعريته ومقارنتها بشاعرية الشاعر
العربى (الشرىف الرضى) والشاعر الفرنسى (لامرتين) مع إبراز تأثره بهما فيما
عالج من ألوان الشعر.

٦ - الشعاعان

حافظ إبراهيم وفكتور هوغو Victor Hugo

لم يكن حافظ إبراهيم شاعراً فحسب بل كان شاعراً من كبار شعراء الجيل الحاضر وشخصية من الشخصيات البارزة التي تركت في مجموعة أخلاق الشعب المصري - ولا سيما في تاريخ آدابه - أثراً سيبقى عالقاً بنفسية أفراده ما بقي الأدب العربي عبر الأجيال المستقبلية - وسيقود هذا الأثر الأمة المصرية بل والأمة العربية بأسرها في طريق المثل العليا التي تصبو إليها .

وإذا حللنا نفسية الشخصيات العظيمة في مراحل التاريخ المتعاقبة لترجع قوتها الفكرية إلى عناصرها الأولى نجد أن أصحابها سعوا دائماً إلى جعل همهم في الحياة التحلي بأوفر قسط من الأخلاق المتينة التي لا يتطرق إليها الضعف أو الخور - وتوصلا إلى هذه الغاية السامية نراهم لا يتوانون في القيام بواجباتهم نحو المجتمع ولا يقصرون في المطالبة بحقوقهم كاملة من هذا المجتمع لأنهم يتألمون غاية الألم كلها وجدوا أن الوصول إلى هذه الحقوق أصبح عسيراً عليهم أو صار مستحيلاً بالنسبة إليهم .

ولهذه الأسباب نجد أن أثر هذه الشخصيات البارزة المتفوقة فكرياً يمتد طويلاً في وجدان الأمم ونجد أن الآلاف أو الملايين من أفراد شعوبهم يعملون دائبين على تقليدهم والافتداء بهم في شتى أطوار الحياة .

وحافظ في كيانه العام واحد من هذه الشخصيات التي أنطقها الألم والتوجع لما أصاب أقوامها من ضير وعنت بكلمات خالداً هي العبرة لمن يعتبر وهي الأمثال الحكيمة لمن يريد الدنو من المثل الأعلى في الحياة القويمية .

ويسيطر على حافظ شاعر النيل دون مدافع - عاملان أساسيان هما : القيام

بالواجب وتأديته لبني جنسه خير أداء والتمسك بالحق والمطالبة به في غير هوادة أو تهاون .. وهذان العاملان هما الدعامتان اللتان يرتكز عليهما الخلق في الرجل الفاضل وهما المنصران المكونان للنفس الكريمة في علم الأخلاق .. فالرجل الذي يقوم بواجبه ويدافع عن حقه رجل أخلاق .. والأمة التي يؤدي أفرادها واجبهم ويدافعون عن حتمهم أمة أخلاق وينطبق عليها قول أمير الشعراء أحمد شوقي :

لئنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإن همُ ذهبَتْ أخلاقُهُمْ ذهبُوا
وتحت ضغط عاملي القيام بالواجب والتمسك بالحق كان حافظ إبراهيم يشقى بحمل الفضائل واعتمائها في صدره .. ويتعذب لأنه لا يستطيع التخلص من قيودها التي تكبله فيقول :

نِعْمَنْ بِقَرِيبِي وَأَشَقِيْنِي
فَيَا لَيْتَمَنْ وَيَا لَيْتَنِي
خِصَالٌ نَزَلْنَ بِخِصْبِ النُّفُوسِ
سِ فَأَرْوِيْنَهُنَّ وَأُظْمَأَتْنِي
تَعَوَّدْنَ مِنِّي إِبَاءَ الْكُرْهِ
مِ وَصَبْرِ الْحَلِيمِ وَتِيَهَ الْغَنَى
وَعَوُّتَهُنَّ نِزَالَ الْخُطُوبِ
وَبِ فَمَا يَنْشِئَانِ وَمَا أَتْنِي
فِيَا نَفْسُ إِنْ كُنْتَ لَا تُؤَقِنِي
نَ بِمَعْقُودِ أَمْرِكَ فَاسْتَيْقِنِي
فَهَذِي الْفَضِيلَةُ سِجْنُ النَّفْسِ
وَسِ وَأَنْتِ الْجَدِيرَةُ أَنْ تُسْجِنِي

فَلا تَسْأَلِنِي مَتَى تَنْقُضِي

لَيْتَ مَالِي الْإِسَارَ وَلَا تَحْزَنِي

فالخصال الكريمة تزلزلت بنفسه ونعمت بنحسبها وأشقاه استقرارها في قراره وجدانه دون أن يستطيع نبذها لأن شعوره القويم لا يرضى بذلك - ومن ثم فهو يرضى لنفسه أن تبتلى في سجن الضميمة وأن تتألم دون أن تطالب منه التخاص من الأسر الذي يصيبها بشقى المموم.

وشاعرنا حين يبيت ألمه لا يندب حظّه العاثر وما يعاينه من ضيق في العيش ونكد في الحياة بل ينفث هذا الألم توجعا للألم الذي كانت مصر تكابده في حياتها المادية والاجتماعية تحت سيطرة الاستعمار البريطاني واستغلاله الجشع

فكان إذا أشد مظهراً عذابه النفسى في بيت أو بيتين من آيات شعره كان ثابثاً آيات القصيدة توجعاً لما كان يلاقه سكان وادى النيل جميعاً من إجحاف وعنت وهم الذين يجب أن يكونوا قادة الشعوب وأهناًهم عيشاً وأعزهم جاهاً في عقيدة حافظ الثابتة - فإذا هم تهاونوا أو توانوا في تبوء المكان اللائق بمضارتهم وتاريخهم العتيق بين الأمم فهم في نظره ضعاف فاقدوا الشعور يستحقون منه كل لوم وتقريع - وهم في نظره أحوج الناس إلى أن يحثهم على النهوض من سباتهم قبل فوات الوقت - فيقول فيهم لائماً مخاطباً قاسم أمين قطب تحرير المرأة المصرية في الجيل الراهن:

فَيَا لَيْتَ لِي وَجَدَّانَ قَوْمِي فَأَرْتَضِي

حَيَاتِي وَلَا أَشْقَى مِمَّا أَنَا طَالِبُهُ

يَنَامُونَ تَحْتَ الضِّيئِ وَالْأَرْضُ رَحْبَةٌ

لِمَنْ بَاتَ يَأْتِي جَانِبَ الذِّلِّ جَانِبُهُ

ثم يوجه الحديث إلى قاسم أمين قائلاً :

أَقْسَمُ إِنَّ الْقَوْمَ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ
وَلَمْ يَفْقَهُوا فِي السِّفْرِ مَا أَنْتَ كَاتِبُهُ
إِلَى الْآنَ لَمْ يُرْفَعْ حِجَابُ ضَلَالِهِمْ
فَمَنْ ذَا تَرْجِيهِ وَمَنْ ذَا تُعَاتِبُهُ
قَالُوا أَنْ مُوسَى وَالْمَسِيحَ وَأَحَدًا
وَجِيْشًا مِنَ الْأَمْلَاقِ مَا جِئَ مَوَاقِبُهُ
وَقَالُوا لَنَا رَفَعَ الْحِجَابِ مُحَلَّلٌ
لَقُلْنَا نَعَمْ حَتَّى وَلَكِنْ نَجَانِبُهُ
وَلَوْ أَنَّ شَخْصًا قَامَ يَدْعُو رِجَالَهُمْ
لَوْضَعِ نِقَابٍ لَا سَتَقَاتُ رَغَائِبُهُ

وَيَتَوَلَّاهُمْ حَائِثًا وَمُسْتَفْزَا :

أُرُونِي نَصْفَ مُخْتَرَعٍ
أُرُونِي رُبْعَ مُحْتَسِبٍ
أُرُونِي نَادِيًا حِفْلًا
بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ

إِلَى أَنْ يَسْتَهْضِمَهُمْ قَائِلًا :

فَهَبُّوا مِنْ مَرَاقِدِكُمْ
فَإِنَّ الْوَقْتَ مِنْ ذَهَبٍ

وما من شك في أن هذه الأبيات جميعها تقدم لنا صورة قاتمة لما كان عليه الشعب المصري - وهو پرسف في أغلال الاستعمار البغيض - من تخلف وبنخس لكل

تطور - وتقدم لنا شاعر النيل وهو يعانى ألم هذا التخلف ولا يملك لبرئه إلا أن ينفثه شعراً لاذعاً يستفز الشعور القومى ويحث النفوس الحاملة على الوثوب لإقامة دعائم النهضة الفكرية والاجتماعية التى تؤدى إلى خلع نير الاستعمار والاستعباد عن كاهل مصر .

وإذا حللنا هذه الظاهرة فى نفس حافظ وجدنا أن جذورها تستقر فى رغبته الأكيدة فى أن يتحلى أفراد الشعب المصرى بالسجايا الحميدة والخلال الكريمة التى تستولى على فؤاده وتطرب إحساسه الروحى بأنغامها الخفية التى ترن عذبة فى أعماق حجاءه - وقد عبر عن هذا الطرب الحسى بقوله :

لِنِى لَتَطْرِبُنِى الْخِلَالُ كَرِيمَةُ

طَرَبَ الْغَرِيبِ بِأُوبَةٍ وَتَلَا فِي

وَيَهْمُزْنِى ذِكْرَى الْمُرْءَةِ وَالْتَدَى

بَيْنَ الشَّمَائِلِ هَزَّةَ الْمُشْتَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا نَحْظُهُ حَالٌ وَذَا

عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارُمُ الْأَخْلَاقِ

وحافظ لا يريد أن يكون هو وحده الذى يطرب للخلال الكريمة التى تغمر قلبه وأن يكون الوحيد الذى يقوم بواجبه نحو قومه ووطنه خير قيام - وإنما يريد أن يقوم جميع مواطنيه بهذا الواجب المقدس فى غير من أو صاف - ولذا نراه يغضب ويثور ويدهش لإنهم لا يؤدونه من تلقاء أنفسهم وفى أى وقت تطلب منهم تأديته .

وهو يريد كذلك أن يعرف مواطنوه حقوقهم وأن يطالبوا بها فى غير هوادة حتى يحصلوا عليها كاملة غير منقوصة مهما كلفهم ذلك من السعى والعناء والعذاب - وتحت تأثير هذه النفسية الوطنية الثموية نجده لا يتنصر على المطالبة بمحتمل وقه

الشخصية بل يطالب بحقوق الأمة المصرية بأسرها ويشقى كلها ضعف أمله في
نيل هذه الحقوق القومية ويتعذب كلما طال حرمان مصر من حريتها وهى هى
مصر التى يجبها حبا يقرب من العبادة فيناجئها قائلاً :

كَمْ ذَا يُكَادُ عاشقٌ وَيُلاقى
فى 'حبِّ مصر' كثيرة العُشاقِ
لانى لأهملُ فى هواك صَبَابَةً
يا مصرُ قدْ خَرَجْتَ عَنْ الأطواقِ
لهفى عليك متى أراك طَائِفَةً
يَحْمِي كَرِيمَ حِمَاكِ شَعْبٌ رَاقِ

فالواجب والحق هما الخصلتان النبيلتان اللتان تمتلئ بهما جنبات نفس
حافظ وهما كل ما يحرص على التمسك به فى جميع أطوار حياته .

وليس فى ذلك أية غرابة - فالحق والواجب صفتان خاتمتان يتكون من
امتزاجهما النفسى سلوك عظماء الرجال متى سيطرتا على نفوسهم فتسمو فى علوها
وتصبح قيمة بأن تتولى قيادة الشعوب فى طريق الرقى والمجد والسودد .

ولإذا أمعنا النظر فى كيفية تكوين شخصية هؤلاء العظماء نلاحظ أنها تألفت
من أجزاء شخصيات مختلفة جمع العظيم من شتاتها شخصيته البارزة - وهذه هى
طبيعة الفكر الإنسانى منذ خلقه - فهو لا يخلق الذى لا وجود له بل يقلد ويركب
ما هو مفكك ليسكوّن منه وحدة مادية أو عقلية متماسكة ذات كيان متكامل .

فإذا حبذ فكرة منهج أو سلوك أضاق إلى كل منهما أجزاء فكر أو مناهج
أخرى وأخرج من المجموع للناس مبدأ أو منهجاً يلائم حالتهم فيستحسنونه
ويشهدون لصاحبه بالتفوق أو العبقرية ويقتدون به فيما يقول وما يفعل .

وقد لأجانب الصواب إذا قلت إن هذه القاعدة هى منشأ النبوغ فى التفكير

عند العظماء - وعلى أساس هذا القياس يستطيع التأكيـد إلى حد ما أن حافظا قد تأثر إلى درجة بعيدة بما قرأ من أفكار سديدة وما أعجب به من مبادئ قويمـة.

وإذا جاز لنا أن نسلك طريق التخمين والاقتراض لنصل إلى معرفة المصادر الأدبية التي أثرت في نفسية حافظ وكونت سلوكه وحياته الفكرية وجب علينا أن نستعرض أطوار ثقافته كأديب لتعرف على ما هي أقوى المؤلفات التي جعلته ياهج بعظمة كاتبها ويشهد له بالنبوغ والعبقرية ويسير في حياته الاجتماعية وفاقا للنظريات الفلسفية التي تضمنتها هذه المؤلفات .

وأعتقد أنني لن أكون مغاليا إذا قلت إن أقوى المؤلفات الأدبية تأثيراً على نفسية حافظ إبراهيم كانت تلك التي خطها يراع كاتب فرنسا وشاعرها الفحل « فـكتور هوجو Victor Hugo » .

« فـكتور هوجو » في شاعرية حافظ يكاد يكون أكبر شعراء الشرق والغرب جميعاً لأن معانيه السامية تلعب بوجدانه وتملأ مشاعره بما ضمت من تعبـير جزل وجرس عذب وسياق جميل خلاب - أما خلقه المتين فمثل من مثل حافظ العليا - وأما حبه لوطنه فعاطفة كريمة نبيلة تهزه طرباً وتملك عليه إحساساته وعواطفه - والأيـات الآتية التي تصور « هوجو » في شاعرية حافظ تؤكد كل ما يـكنه شاعرنا من تعظيم وتقدير لشاعر فرنسا الأكبر :

أَعْجَمِيْ كَادَ يَعْلُوْ نَجْمُهُ

في سماء الشعرِ نجمَ العربِ

صَافِحَ العِلْيَاءِ فِيهَا وَالتَّقَى

بالمعرى فوق هامِ الشُّبْرِ

عَافَ في مَنْفَاهُ أَنْ يَدْنُوْ بِهِ

عَفُوْ ذَاكَ الْقَاهِرِ الْمُفْتَصِبِ

كَتَبَ الْمَنِيْفِيُّ سَطْرًا لِلَّذِي
جَادَهُ بِالْعَفْوِ فَاقْرَأْ وَاعْجَبْ !
أَبْرَىءُ عِنْدُ يَعْفُو مُذْنِبُ
كَيْفَ تُسَدِّي الْعَفْوَ كَفُّ الْمَذْنِبِ ؟
سَاءَهُ أَلَا يَرَى فِي قَوْمِهِ
سِيرَةَ الْإِسْلَامِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ
قُلْتُ عَنْ نَفْسِكَ قَوْلًا صَادِقًا
لَمْ تَشْبِهْ شَائِبَاتُ الْكَيْدِ
أَنَا كَالْمَنْجِمِ تَبْرُ وَثَرَى
فَاطْرَحُوا تُرْبِي وَصُونُوا ذَهَبِي

ولتماما لجوانب هذا البحث وتيسيراً لمعرفة أركان المقارنة بين الشاعر الفرنسي فكتور هوجو وشاعر النيل حافظ إبراهيم - وذلك فيما يتعلق بالمؤثرات النفسية التي استقرت في وجدان الشاعر المصري - أجد من الصواب الإلمام بتاريخ حياة شاعر فرنسا الكبير .

فهو فـكتور هوجو ولد بمدينة بيزانسون Besançon عام ١٨٠٢ م وكان والده من رجال الجندية في عهد الجمهورية الفرنسية الأولى وفي عهد الإمبراطورية . وبعد أن استتصحه والده لزيارة إيطاليا ثم إسبانيا خلال عامي ١٨١١ و ١٨١٢ م . استقر في باريس مع والدته في أحد الأديرة - وكان أهله يريدون إلحاقه بمدرسة الهندسة ولكن اتجاهه الأدبي تغلب على هذا الاتجاه - وما أن بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى ظهرت بوادر إنتاجه الأدبي وقال عن نفسه في ذلك الحين « أريد أن أكون مثل شاتوبريان أو لا أكون شيئاً » - وبعد ذلك بقليل حصل على درجة الشرف في مسابقة أدبية نظمها المجمع الأدبي الفرنسي ثم اختير رئيساً لكتاب وشعراء المدرسة الرومانتيكية بفرنسا - وفي عام ١٨٤١ - عين عضواً في ذلك

المجمع - وفي عام ١٨٤٨ م . انتخب نائبا عن الشعب وأيد انتخاب د لويس نابوليون ، رئيسا للجمهورية - وعقب الانقلاب عام ١٨٥١ م ظل في صفوف المعارضة وتزعم المعارضين للحكم المتنافي للديمقراطية وحاول تنظيم المقاومة لهذا الحكم فحكم عليه بالنفي من البلاد الفرنسية فعاش ١٨ عاما بلجيكا في مدينة بروكسل أو في جزيرتي جرزي وجرزني .

وعند صدور المرسوم بالعفو عن الجرائم السياسية رفض الإفادة من أحكامه ولم يعد إلى وطنه إلا بعد سقوط الحكم الإمبراطوري فاستقبله الشعب استقبالا حافلا جديراً بوطنيته الصادقة - وفضل الاغتراب مرة أخرى على أن يعيش في نظام غير جمهوري - فرحل إلى بلجيكا ولم يعد إلى وطنه إلا في عام ١٨٧٥ م . إذ انتخب عضواً في مجلس الشيوخ - ومات خلال عام ١٨٨٥ م عن ٨٣ عاما وضمت جنازته عدداً لا يحصى من المواطنين واستغرق سير الجنازة عشر ساعات ودفن في ضريح العظماء بباريس .

هذه المسامة مركزة بتاريخ حياة شاعر فرنسا العظيم - ولاستطاعة إبراز النواحي المتشابهة في حياة الشعارين أجد من الملائم ذكر نبذة قصيرة توضح الجوانب الأساسية لحياة شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم .

ففي حوالي عام ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) ولد حافظ في ذهنية كانت ترسو أمام شاطئ مدينة د ديروط بالصعيد - وكان أبوه أحد المهندسين المشرفين على قناطر هذه المدينة - وعلى الرغم من أن أمه كانت من عنصر تركي فإنه لم يترنم بمدح الترك ترنمه بمدح مصر والعرب - وتوفي والده وهو في الرابعة من عمره فانتقلت أمه إلى القاهرة ونزلت عند أخيها فتولى أمره وقام بتربيته - وبعد أن درس بمدرسة القرية وبمدرسة الابتدائي والحدوية انتقل مع خاله د محمد أفندي نيازي ، إلى طنطا وكان خاله هذا مهندس تنظيم بها .

ومل خاله الحال التي كان عليها ابن أخته إذ كان شابا ليس في المدرسة وليس

له ثروة ولا يتكسب - فأشعره بهذا الملل فنظم له بيتين يدلان على ما في نفسه
من ألم وحسرة مضنية فقال له :

ثَقُلْتُ عَلَيْكَ مَوُونِي لَئِنْ أَرَاهَا وَاهِيَةً
فَأَفْرَحُ فَإِنِّي ذَاهِبٌ مُتَوَجِّهٌ فِي دَاهِيَةٍ

ويفسر هذان البيتان ما كان يعتل بصدر حافظ من البؤس والشقاء والحزن العميق مما يذكره دائماً بيطمه وعدمه - وكان قد اشتغل وقتاً قصيراً بالمحاماة في مكاتب المحامين الشيخ محمد الشيمي - ومحمد أبوشادي بك - وعبدالكريم فهم قبل سفره إلى القاهرة والتحاقه بالمدرسة الحربية حيث تخرج عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) وكان عمره ٢٠ عاماً - وسافر إلى السودان بين ضباط الحملة الأخيرة بقيادة اللورد (كتشنر) وسرعان ما تبرم ببعيشته هناك وزاد حاله سوءاً كراهية (كتشنر) له - وفي عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) حدثت ثورة في السودان واتهم فيها ثمانية عشر ضابطاً كان من بينهم حافظ - فحوكوا وأحيلوا إلى الاستبداع - وليجد عملاً يتكسب منه طلب لإحالة إلى المعاش فأجيب طابعه ولكنه لم ينجح في شغل وظيفة فصار يتردد على مجلس الإمام محمد عبده الذي كان يغمره بفضله - وفي عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) ساعده أحمد باشا حشمت ناظر المعارف في ذلك الحين وعينه رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية فظل يعمل بها إلى فبراير عام ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ) إذ أحيل إلى المعاش بعد حوالي عشرين عاماً من الخدمة .

وفي بيت صغير بالزيتون من ضواحي القاهرة - توفي حافظ الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس ٢١ من يوليو سنة ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ) أي بعد إحالة إلى المعاش بنحو أربعة أشهر ونصف الشهر .

ولنعد الآن الى الحديث عن أدب شاعرنا فنقول إن (فكتور هوجو) في نثر حافظ هو شقيق روحه المعذبة الشقية الذي يشجعها على احتيال الآما كلها أقربت من اليأس فيناجيه في مقدمة رواية (البؤساء) ليستمد منه الإلهام في ترجمته التي خرجت آية من آيات بيانه فيقول :

« هذا كتاب (البؤساء) وهو خير ما أخرج للناس في هذا العهد - وضعه صاحبه وهو بائس ونقله مترجمه وهو بائس فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرأة - وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه وعربه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه».

«ولولا أننى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم لما وصل مبلغ على إلى مبلغ عليه ولما سبج يراعى في قطرة من سيول قلبه - ولو أن لى قلما من أعواد أشجار الحنة وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى . وقد تلقتنى البلاغة من كل جهة بفضلها فسموت إلى ابواب مصاصها وأخذت منها حاجتى لما حدثتني النفس بتعريب ذلك الكتاب لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء»

والواقع هو أن فى سيرة (فكتور جوهو) وسيرة حافظ إبراهيم - كما هما مدونتان قبل - تشابه فى بعض النواحي - (فهو جو) ذاق مرارة اليتيم فى شبابه إذ مات والده الجنرال (سيجيسبير هوجو) عام ١٨٢٨م - فاجأ مع أمه إلى أحد الأديرة - وذاق حافظ مرارة اليتيم وعمره أربع سنوات - «وهو جو» عاش ١٨ عاما فى النفى - وحافظ كابد قسوة الحياة العسكرية فى السودان حيث تعرض لكراهية المستعمر الإنجليزى الجبار (اللورد كتشنر) ولكراهية رئيس فرقته العسكرية (رفعت بك) فحوكم وأحيل إلى الاستبداع وهو فى مسيس الحاجة إلى مرتبه ليدفع به غائلة الفاقة والعوز - أما التشابه فى إنتاج كل منهما الأدبى فسأحاول تبينه فى موضع آخر من هذا البحث .

ومن المقدمة التى وضعها شاعرنا لكتاب (البؤساء) نستدل على أنه كان

يعرف نفسية مؤلفه قبل الإقدام على تعريبه بزمان بعيد وأنه تأثر بهذه النفسية تأثراً عميقاً جعله يصمم على أن يكون في قومه (فكتور هوجو) آخر وقد أفلح في كثير من النواحي .

فهو مثل (جوهو) لا يستطيع الإقامة على الضيم - فيتبرم بالحياة الشقية وينعى حظه السيء فيقول مواسياً نفسه الكبيرة الطامحة :

رُميتُ بها على هذا التَّباب
وَمَا أوردَتْهَا غيرَ السَّرَابِ
وَمَا حَمَلَتْهَا إِلَّا شَقَاءُ
تَقْاضِيَنِي بِهِ يَوْمَ الْحِسَابِ
جَنَيْتُ عَلَيْكَ يَا نَفْسِي وَقَبْلِي
عَلَيْكَ جَنَى أَبِي فَدَعَى عِشَابِي
فَلَوْلَا أَنَّهُمْ رَادُّوْا بَيَانِي
بَلَغْتَ بِكَ الْمُنَى وَشَفَيْتُ مَا بِي

وهو (كفكتور جوهو) لا ينفكك عن حث قومه على النهوض من الإغفاء والطموح إلى الرقي بغية الوصول إلى المكان اللائق بحضارتهم العتيقة التي هدت الناس سبيل العلوم والفنون .

فبعثرون سنة في المنفى (بحزيرتي جرزي وجرنزي) جعلت (هوجو) الطريد الشريد المتبرم بالحياة يؤلف (تابليون الصغير - والبؤساء - والعقاب الرادع)

وحياة السودان تحت حرارة الشمس اللافحة والبؤس ونكد العيش بعد ذلك في مصر - كل ذلك دفع حافظ الطريد الشريد المتبرم بالحياة إلى كتابة أغلب قصائده الوطنية والاجتماعية النابضة بما يعيش في وجدانه من آلام وأسف

وأحزان ويعرب رواية (البؤساء) ثم يخط انتقاداته اللاذعة على عيوب بيئته الأخلاقية في ليالى سطيح .

ففي (نابليون الصغير) ينعت (هوجو) نابليون الثالث بكل ما يحزن من قدره لخيانته النظام الديمقراطي وإقامة الإمبراطورية الثانية - وعندما اطاع (نابليون) على هذه الرسالة النقدية قال لحاشيته : اطلعوا أيها السادة على الرسالة الخاصة بنابليون الصغير التي كتبها فكتور هوجو الكبير !! وقد أراد نابليون الثالث بهذه العبارة الاستهزاء (بهوجو) على مسمع من رجال بلاطه .

وللرد على هذا الاستهزاء بادر (هوجو) إلى تأليف ديوان (العقاب الرادع) ليقول فيه لخصمه (نابليون) بالشعر اللاذع :

آه ! إنك ستنتهي بأن تنبح كالكلاب أيها الشقي
وضحكك عند ذكر اسمي في سرور أرغى وأزبد
ولسكتني أمساك يدي الحديد الملهب
وأرى لحك المكوى ينبعث منه اندخان

أما عن رواية البؤساء فإننا إذا تصدينا لتحليل شخصية بطلها (جان فلجان) من الناحية الأخلاقية نلاحظ أنها صورة صادقة لواضعها (هوجو) ومعربها حافظ وذلك إذا استثنينا الحوادث المدونة بأولها التي تجعل من (فلجان) سارقا لرغيف من الخبز ثم سجيننا بسبب هذه السرقة التي دفعه إليها العوز .

(فلجان فلجان) رجل يتوجع لآلام الإنسانية عقب خروجه من السجن ويقدم على التضحية بكل ما يملك في سبيل هئائها - وكذلك كان مؤلف الرواية وهكذا كان معربها - (هوجو) لم يشته عذاب المنفى وبؤس العيش عن المطالبة بحقوق الشعب الفرنسي في أن يعيش حرا ويختار نظام الحكم الذي يرتضيه - (هوجو) كان طيب القلب رحما عطوفا بكل ما في هذه الصفات من المعاني النبيلة - وفي ديوانه الفن في كيف يكون الإنسان جذاً (L'art d'être grand-père)

ما يوضح عاطفة الأبوة برحانها التي كانت تستولى على فؤاده إلى جانب العواطف الإنسانية الأخرى .

وكل من عرف أو اتصل بحافظ إبراهيم يشهد له - في غير تحفظ - بطيبة القلب والكرم والسخاء لدرجة الإسراف - وما شعر حافظ إلاّ أصدق دليل على آلامه المبرحة لشقاء مصر وأبنائها ولشقاء الشرق العربي بأسره .

ولست أبغى من المقارنة والتشابه بين الشعارين أن أقول بكل ما تقدم إن حافظ إبراهيم كان مقاددا تقاييدا أعمى لشاعر فرنسا (جوهو) بل أريد أن أدلل على أن النفوس الكبيرة تميل وفاقا لطبيعتها وغرائزها وأرجاعها المنعكسة النفسية إلى بعض الشخصيات البارزة في التاريخ فتتهجج منهجها في الحياة وفي الأخلاق والتفكير . وعلى هذا الأساس - تصدق إلى حد ما - النظرية القائلة بوجود تشابه ملحوظ في كثير من عظماء الرجال الذين ظهوروا على مسرح الحياة الاجتماعية والثقافية في عصور مختلفة .

ولتوضيح نواحي التشابه في حياة كل من الشعارين (هوجو وحافظ) أذكر فيما يلي حكم تاريخ الأدب الفرنسي على الشاعر العظيم (فكتور هوجو) :

إن « هوجو » كان يملك عبثية قوية إلى أبعد حدود القوة - ولقد طرق جميع الألوان الأدبية وتفوق في أغلبها - وهو وإن كان ضعيفا في الروايات والمسرحيات إلا أنه متقن في الشعر الغزلي وعظيم في الشعر الاجتماعي والتهديبي وفي شعر الملاحم - ومن ثمّ فهو أقل إحساسا وأقل توجعا في الغزل من الشعارين (لامرتين وموسيه) ذلك لأنه لم ينشد اللذة ولا الحب بقوة مثلها .»

« بيد أنه طرق بنجاح فائق الشعر الذي له علاقة بحياته العائلية في قصائد غاية في الروعة - فأنشد الحب الأبوى وقص ما يعانيه من آلام في سبيل الدفاع عن قدره - وتغنى بالعاطفة الجياشة التي تملأ قلبه بحب أولاده وأحفاده - وتوجع لشتماء وطنه وأهله وقرمه .»

أما خياله ففي منتهى الخصب فكان موقفا جدا في وصف الصور التي تعرض له والأفكار التي تطرأ على بصيرته الواعية - فكانت كل فكرة تتمثل في خاطره تتحول في نثره أو شعره إلى صورة مادية من السهل عليه توضيح دقائقها بالكتابة وصيغها بلون غاية في الجمال والروعة».

«وأما عباراته فذات موسيعة عذبة - وأما لغته ففنية إلى أبعد حد - فما من أحد استطاع أن يدانيه في معرفة العثر على كلمات اللغة الفرنسية ومترادفاتها - ولقد ذهب في ذلك مذهبا بعيدا لدرجة أنه تعدى الحدود المقبولة - فكان يدخل فيما يكتب جملا غامضة تحتاج إلى التفسير - مثال ذلك قوله : الشمس التي هي الجنة والأمل الذي هو التوغل»

«وكان يحب أن يطرق دائما الموضوعات الضخمة التي تنشد الأبطال والعبقریات والوطنية والتضحية . ولذلك كان يدخل في كتاباته كلمات قوية التعبير عن الحزن والآلم والتشاؤم . فكم نجد في مؤلفاته كلمة هائل وكلمة قاتم وكلمة مظلم ومخيف»

«وكان يعرف جيدا مقدار عبثيته ونبوغه ومن ثم كان يعتبر نفسه أعظم مرشد للشعب الفرنسي - ولكنه في الحقيقة لم يكن إلا صدى الأفكار التي كانت تنبعث حوله من أفراد بيئته».

«وأقوى ظاهرة في أخلاقه الاجتماعية هي أنه كان يتجنب إلى الجسامير ويخطب دائما ودها»

«وقد قيل عنه بحق إنه رجل عصره وبيئته لأنه عرف آلام هذه البيئة وأفراحها فتوجع لآلامها وطرب لفرحها»

هذا هو مجمل حكم تاريخ الأدب الفرنسي على (فيكتور جوهر) ولنتظر الآن

في أجزاء هذا الحكم لتعرف على ما ينطبق في الوصف منها على شاعر النيل .

١ - فالتاريخ يذكر أن (جوهو) لم ينجح في الرواية المسرحية الشعرية - وكذلك كان حافظ الذي يقول الشعر للعاطفة وليس للمسرح أو القصص ويكتب للوصف والتحليل دون سواهما - ولقد حاول وضع رواية في قالب حوار على لسان جريح يناجي حبيبته وذلك عتب ضرب الأسطول الإيطالي لمدينة بيروت عاصمة لبنان ولكنه لم يفلح في هذه المحاولة البسيطة فجاء الحوار قصيدة عاطفية أكثر منه رواية خيالية - ويدور الحوار بين هذا الجريح وحبيبته (ليلي) والطبيب الذي يقوم على علاجه وعربي من الشعب - وضرب الأسطول الإيطالي لبيروت حدث عام ١٩١٢م (١٣٣١هـ) في أثناء الحرب الطرابلسية بين الترك والإيطاليين وفي مطلعها يقول الجريح لليلة :

(لَيْلَايَ) مَا أَنَا حَيٌّ	يُرْجَى وَلَا أَنَا تَمِيتُ
لَمْ أَقِضْ حَقِّي بِلَادِي	وَهَآنَا قَدْ قَضَيْتُ

ويستمر الحوار بين أبطال القصة الأربعة إلى أن يشرف الجريح على الموت فيقول :

رَأَيْتُ يَا أَسْ طَبِيبِي	وَهَمْسَةً فِي فَوَادِي
لَا تَتَذَكَّرْ بَيْنِي فَإِنِّي	أَقْضَى وَتَحِيًّا بِلَادِي

فيقول الرجل العربي :

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ شَهْمًا	نَدَبًا طَوِيلَ النِّجَادِ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ رُوحًا	كَانَتْ رَجَاءَ الْبِلَادِ
فَيَا شَهِيدًا رَمْتَهُ	غَدْرًا كُرَاتُ الْإِعَادِ
نَمْ هَبَانَا مُطْمَئِنًّا	فَلَسْمُ تَنَمُّ أَحْقَادِي
فَسَوْفَ يُرِضِيكَ ثَارٌ	يُذِيبُ قَلْبَ الْجَمَادِ

٢ - ويدكر تاريخ الادب الفرنسى أن (هوجو) طرّق بنجاح فائق الشعر العائلى وتغنى بحب أولاده وأحفاده - وقد استعاض حافظ عن هذا الحب العائلى بحب إخوانه لأنه لم يمارس الحياة الزوجية إلا خلال فترة قصيرة جداً هي أربعة أشهر - ولم ينجب أولاداً ليتغنى بحبهم وبالعطف عليهم - وفى الإخوانيات التى نظمها قلبه نجد أن حبه لأصدقائه وخلّانه يماثل حب شاعر فرنسا لأفراد أسرته - فإذا جد به الشوق إلى صديقه الحميم محمد البابلى أرسل إليه يقول :

نَمَى يَا بَابِلَى إِلَيْكَ شَوْقِي
وَعَيْنِي لَازِمَتُكَ سَكَبَ الدُّمُوعُ
وَلَوْ أَنِّي تَرَكْتُ سَرَاحَ قَلْبِي

لَطَارَ إِلَيْكَ مِنْ قَفْصِ الضُّلُوعِ

وكتب إلى صديقه أحمد بدر وهو يدرس فى كلية (أدنبره بانجلترا) بعد أن أشار إلى ما يعانى به من بؤس بمصر على الرغم من حبه القوى لها - كتب يقول :

لَا مِصْرُ تُنْصِفُنِي وَلَا
أَنَا عَنْ مَوَدَّتِهَا أَرِيمُ
وَلِذَا تَحَوَّلَ بَسَائِسُ
عَنْ رَبْعِيهَا فَأَنَا الْمُقِيمُ
فِيهَا صِحْبَتُكَ وَأَسْطَفِي
تُكْ أَيْتُهَا الْخِلُ الْحَمِيمُ
أَنَا مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ تَخَبَّرُ
تَ وَمَنْ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وصداقة حافظ الوفية وحبه الصادق لخلّانه وإخوانه فى الله لا يقتصران على

من اصطفاه منهم بمصر بل يشمل من توثقت بينه وبينهم عرى المودة في الوطن العربي بأسره .

ففي مارس سنة ١٩٠٢ م [١٣٢٠ هـ] بعث إلى صديقه الشاعر اللبناني داود عمون بقصيدة تنم عن وده الصافي جاء فيها :

وَيَخْلُ أَقَامَ بِأَرْضِ الشَّامِ
فَبَاتَتْ تَدِلُّ عَلَى جَارِهَا
وَأَضَحَّتْ تَعْتِيهِ بِرَبِّ الْقَرِيضِ
كَتَيْهِ الْبَوَادِي بِأَشْعَارِهَا
وَلِلنَّيْلِ أَوْلَى بِذَلِكَ الدَّلَالِ
وَمِصْرُ أَحَقُّ (بِبَشَارِهَا)

إلى أن يقول له :

أَلَسْتُ فَتَاهَا وَمُخْتَارَهَا
وَسِبْلَ فَتَاهَا وَمُخْتَارَهَا ؟
وَلَا أُنْقَلْتُ أَصْغَتْ مُلُوكُ الْكَلَامِ
وَمَالَاتُ إِلَيْكَ بِأَبْصَارِهَا
(أَدَاوُدُ) حَسْبُكَ أَنَّ الْمَالَ
سَيَحْسَبُ دَارَكَ فِي دَارِهَا
وَأَنَّ ضَمَائِرُ هَذَا الْوُجُودِ
تَبُوحُ إِلَيْكَ بِأَسْرَارِهَا

وما من شك في أن النماذج المدونة قبل تدل في وضوح على أن إخوانيات

حافظ تضاهى في حبها وإخلاصها الودى عائليات (هوجو) وتصلح - من كل الوجوه - للقدارة بين الشعارين في هذا اللون من حياتها الأدبية.

٣ - ويقول التاريخ عن «هوجو» إنه كان في الغزل أقل إحساسا وتوجعا من الشعارين (لامرتين - وموسيه) - وهذا ينطبق أيضا على شاعرنا حافظ إذ لم يكن له في الغزل باع طويل - وكان نفسه فيه قصيرا فلم يتغن في شعره بالغرام والفتنة إلا قليلا - فتحت عنوان ديقين الحب، نظم هذين البيتين:

أَذْنُكَ تَرْتَايِنَ فِي الشَّمْسِ وَالضُّحَى
وَفِي النُّورِ وَالظُّلُمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
وَلَا تَسْمَحِ لِلشَّكِّ يَخْطِرُ خَطَرُهُ
بِنَفْسِكَ يَوْمًا أَنِّي لَسْتُ مُغْرَمًا

وقال من رسائل الشوق التي دجها يراعه :

سُورٌ عِنْدِي لَهُ مَكْتُوبَةٌ
وَدَّ لَوْ يَسْرِى بِهَا الرُّوحُ الْإِيمَانُ
لَأَنى لَا آمَنُ الرُّسُلَ وَلَا
آمَنُ الْكُتُبَ عَلَى مَا تَحْتَوِينِ
مُسْتَهِينٌ بِالذِّى كَابَدْتُهُ
وَهُوَ لَا يَدْرِى بِمَاذَا يَسْتَهِينُ
أَنَا فِي هَمٍّ وَيَأْسٍ وَأَسَى
حَاضِرُ اللَّوْعَةِ مَوْصُولُ الْإِنِينِ

ونظرة ناقدة يلقبها الفاحص على هذه الأبيات الغزلية تدله في يسر على أن الإحساس العاطفي والخيال الغزلى الواسع الأفق لا يخالطانها في قوة تضعها في الصفوف

المتقدمة التي يحتلها فحول شعراء الغزل في هذا اللون من الزمير - وتوضح القلة اليسيرة التي عالج بها حافظ الشعر الغزلي على أنه قليل الميل إلى التغزل بالحسان وربات الجمال وما أودعن الله من بهاء ودلال وأنوثة - وفي قصيدته بعنوان «الشعر» ما يخبر عن قلة هذا الميل في صراحة - فهو يقول في هذه القصيدة مخاطباً الشعر :

حَمَلْتُكَ الْعَنَاءَ مِنْ حَبِّ (لَيْلَى)

و. (سليمي) وَوَقْنَتِي الْأَطْلَالِ
وبكاءٍ على عزيزٍ تَوَلَّى
وَرُسُومِ رَاحَتِ يَدَيْهِ الْيَسَالَى

والواقع هو أن شاعر النيل لم يحمل شعره هذا العناء فاهتم إلى أبعد حد بالواقعية وبالتغنى بوادي النيل وأهل وادي النيل فبكى لبكائهم وفرح لفرحهم وسجل نكاتهم في كثير من قصائده المرححة الفكاهة.

ويعد من باب الشعر الغزلي الذي أنتجه شاعرنا تلك الديباجات التي كان يستعمل بها قصائده مديحه على غرار الشعر القديم وهي كثيرة.

٤ - ويذكر التاريخ أن (هوجو) قص ما يعانيه من آلام في سبيل الدفاع عن قدره وكذلك فعل حافظ - فقد دَوَّنَ في كثير من قصائده ما كان يعانيه من شقاء وبؤس وما كان يستولى على نفسه الكبيرة من حسرة لأن قومه لم يعرفوا قدره ولأن الظروف السيئة لم تنصفه لينهاً بالعيش الرغيد الذي يستحقه عن جدارة فاستمع إليه وهو يقول في قصيدته التي مطلعها :

سَعَيْتُ إِلَى كَدِّ أَنْتَعِلُ الدِّمَا

وَعُدْتُ وَمَا أَعْتَبْتُ إِلَّا التَّندَمَا

لحى الله عهد الناصطين الذى به
تهدم من بنياننا ما تهدما

وذلك عندما يغضب أجزاء نفسه بهذه الآيات :

فما عصمتنى من زمانى فضائلى
ولكن رأيت الموت للحر أعصما

فما قاب لاجزع إذا عضك الأسى
فإنك بعد اليوم لن تتألما

ويا عين قد أن الجمود لمد معى
فلا سيل دمع تسكين ولا دما

ويا يد ما كلفك البسط مرة
لذى منه أولى الجميل وأنعمما

فلله ما أحلاك فى أنمل البلى
ولأن كنت أحلى فى الطر وسوأ كرمما

ويا قدمى ما سرت بى بلذلة
ولم ترتدى إلا إلى العز سألما

فلا تبسطى سيرا إلى الموت واعلى
بأن كريم القوم من مات مكرما

ويا نفس كم جشمتك الصبر والرضا
وجشمتنى أن البس المجد معلما

فما استطعت أن تستمرئى مرة طعمه
وما استطعت بين القوم أن اتدما

هـ - ويسجل تاريخ الأدب الفرنسى صحائف مجد (لفيكتور جوهو) فى الشعر الوطنى الملتهب - بالحماسة فقد توجع لشقاء وطنه وقومه - ولم يتمصر حافظ فى هذه الناحية فكان الشعر الوطنى الفياض شغله الشاغل - وكان على غرار (هوجو) من أكبر الشعراء العرب فى عصره الذين عالجوا الشعر الاجتماعى التهذيبى - فالوطنية فى شعره تتدفق كالنهر الهادر - فقد قضى أكبر شطر من حياته فى نصيح بنى وطنه وحشهم على تلمس أبواب الرقى والتدرب على متانة الخلق فطرق فى سبيل ذلك جميع أبواب اللوم والتتريع والاستفزاز وضرب الأمثال - وهو يبدأ فى هذا الصدد بإظهار حبه لمصر حبا عارما يستولى على جميع جوانحه فيقول :

كَمْ ذَا يُكَايِدُ عَاشِقٌ وَيُلَاقِي
فِي حُبِّ مِصْرٍ كَثِيرَةَ الْعُشَّاقِ
لَأَنِّي لَأَحِيلُ فِي هَوَاكِ صَبَابَةً
يَا مِصْرُ قَدْ خَرَجْتَ عَنْ الْأَطْوَاقِ
لَتَهْفَى عَلَيْكَ مَتَى أَرَاكَ طَلِيقَةً
يَحْمِي كَرِيمَ حِمَاكِ شَعْبٌ رَاقٍ
ثُمَّ يَتَرَنَّمُ بِحُبِّهَا الَّذِي مَلَكَ عَلَيْهِ كُلُّ مَا فِي وَجْدَانِهِ مِنْ عَاطِفَةٍ وَحَنَانٍ
فَيُشَدُّ قَائِلًا :

لَتَعْمَرَكَ مَا أَرَقْتُ لِغَيْرِ مِصْرٍ
وَمَا لِي دُونَهَا أَمَلٌ يُرَامُ
ذَكَرْتُ جَلَالَهَا أَيَّامَ كَانَتْ
يَصُولُ بِهَا الْفِرَاعَةُ الْعِظَامُ

وَأَيَّامَ الرِّجَالِ بِهَا رِجَالٌ
وَأَيَّامَ الزَّمَانِ لَهَا غُلَامٌ
فَأَقْلَقَ مَضْجَعِي مَا بَاتَ فِيهَا
وَبَاتَتْ مِصْرُ فِيهِ ، فَهَلْ أَلَامُ؟

ويسرى حبه لمصر في دمه مسرى التيار الكهربى فية غنى بحبه لأبنائها المصريين
أحبائه وأهله الأكرمين فيقول في قصيدته التى مطلعها :

وَقَفَ الْخَلْقُ يَنْظُرُونَ تَجِيعًا
كَيْفَ أَبْنَى قَوَاعِدَ الْمَجْدِ وَحْدِي

وهى القصيدة التى تشدو بها كروان الشرق السيدة أم كلثوم - فى هذه القصيدة
العصماء بل الخريدة النادرة يصف حافظ المصريين والحب يملأ فؤاده بقوله على
لسان مصر :

وَرِجَالِي لَوْ أَنْصَفُوهُمْ لَسَادُوا
مِنْ كُهُولٍ مِثْلِهِ الْعُيُونِ وَوُمرِد
لَوْ أَصَابُوا لَهُمْ سَجَالًا لَابَدُوا
مُعْجِزَاتِ الذِّكَاةِ فِي كُلِّ قَصْدٍ
لَهُمْ كَالْظُّبَا الْحَّ عَلَيْنَهَا
قَدْ أَدَامَ الدَّمْرُ مِنْ تَوَاهٍ وَغَمْدٍ
فَإِذَا مَسَّيْتُمْ الْقَضَاءِ بِلَاهَا
كُنْ كَلَمَاتٍ تَمْلَهُ مِنْ مَرْدٍ

فأحبابه المصريين من أنبغ الناس ومن أقدرهم على الرقى وبلوغ ذرى المجد

لو فككت قيودهم وجلا الاستعمار البغيض من مصرهم أم الحضارة التي يقول
شاعرنا بلسانها بعد البيت الأول من القصيدة المدين قبل :

رَبُّنَا الْآهْرَامِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ

ر كَفُّونِي الْكَلَامَ عِنْدَ التَّحْدِي

أَنَا تِلْكَ الْعَلَا فِي مَفْرِقِ الشَّرِّ

قِي وَدُرَاتِهِ قَرَأْتُ عِقْدِي

أَيُّ شَيْءٍ فِي الْغَرِيبِ قَدْ بَهَرَ النَّاسَ

سَ تَجْمَلًا وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ عِنْدِي

أَنَا إِنِّي قَبْدَرُ الْإِلَهِ مَمَاتِي

لَا تَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرَّأْسَ بَعْدِي

٦ - وحافظ (كفسكتور هو جو) يتوجع لشقاء قومه وما يلاقيه شعب مصر
على أيدي المستعمرين من عذاب واضطهاد بل وتقتيل - ويبرز هذا التوجع الصادق
في قصيدته عن حادثة دنشواي المشؤمة التي وقعت في يوم الأربعاء الموافق ١٣ من
شهر يونيه عام ١٩٠٦ (١٢٢٤ هـ) إذ قام خمسة من الضباط الإنجليز من معسكرهم
وقصدوا إلى بلدة دنشواي بإقليم المنوفية لصيد الحمام . وهناك أصيب بعض
الاهالي فاضطدموا بالإنجليز فأصيب بعض الضباط بإصابات ومات أحدهم من
حرارة الشمس اللافتحة - فثارت ثائرة (اللورد كرومر) عميد الدولة البريطانية
إذ ذاك - وعتدت المحكمة المختصة لمحاكمتهم وكان المدعى العمومي فيها إبراهيم
الهلباوي المحامي - وقضت هذه المحكمة الجائرة بإعدام أربعة من الأهلين وجلد
وحبس ثمانية منهم - ونفذ الإعدام في البلدة على مرأى ومسمع من أهلها - وكان
في ذلك الحكم وفي تنفيذه من القسوة ما أثار الأنفاس وأطلق ألسنة المواطنين
وزعماء النهضة بما يجيش في القلوب من أسي وحسرة .

وتوجه حافظ إبراهيم لهذا الحادث الأليم وانتثت توجهه وألمه النفسى المبرح
فى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أيها القسائمون بالأمس فينا
هل نسيتم تولدنا والوداد ؟
خففصوا جيشكم وناموا هنيهة
وابتغوا سيذككم وجوبوا البلاد
وإذا أعوزتكم ذات طوق
بين تلك الربا فقصيدوا العباد
إنما نحن واحمام سواء
لم نغادر أطواقنا الأجياد
ثم يقول :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو
أقصا أردتم أم كساد ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو
أنفوسا أصبت أم جماد ؟
ليت شعرى ألك (محكمة) التف
يتش (عادت أم عهد) نرون (عاذ ؟
كيف يحاو من القوى التشفى
من ضعيف القى إليه التباد ؟

ثم يتوجه بتريضه إلى إبراهيم الهلباوى الذى تولى فى هذه القضية الوحشية
منصب المدعى العمومى ويقول له :

أَيْهَا الْمُدَّعِي الْعُسُورِيُّ مَهْلًا
بَعْضَ هَذَا فَقَدْ بَلَغْتَ الْمُرَادَا
قَدْ ضَمَّنَّا لَكَ الْقَضَاءَ بِمِصْرٍ
وَضَمَّنَّا لِنَجْلِكَ الْإِسْعَادَا
فَإِذَا مَا جَلَسْتَ لِلْحَكِيمِ فَاذْكُرْ
عَهْدَ مِصْرٍ فَقَدْ شَفِيتَ الْفُؤَادَا
لَا جَرَى النِّيلُ فِي نَوَاحِيكَ يَا مِصْرُ
رُ وَلَا تَجَادِكِ الْحَيَا حَيْثُ جَادَا
أَنْتِ أَنْبَتِ ذَلِكَ النَّبْتَ يَا مِصْرُ
رُ فَأُضْحِي عَلَيْكَ شَوْكَا قَتَادَا
أَنْتِ أَنْبَتِ زَاعِقًا قَامَ بِالْأَمَدِ
سِ فَأُذِمِّي الْقَائُوبَ وَالْأَكْبَادَا
لِيهِ يَا مِندَرَةَ الْقَضَاءِ وَيَا مَنْ
سَادَ فِي غَفْلَةِ الزَّمَانِ وَشَادَا
أَنْتِ جَلَادُنَا فَلَا تَنْسَ أَنَا
قَدْ لَبِسْنَا عَلَى يَدَيْكَ الْحِدَادَا
فَمَنْ مَنَّا يَرَى مَسِيئًا لِمِصْرٍ أَوْ لِبْنِي مِصْرٍ وَلَا يَقُولُ لَهُ - وَلَوْ فِي سِرِّهِ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ
الْجَهْرَ بِمَا فِي صَدْرِهِ مِنْ أَلَمٍ لِإِسَاءَةِ هَذَا الْمَسِيءِ ؟
أَنْتِ جَلَادُنَا فَلَا تَنْسَ أَنَا
قَدْ لَبِسْنَا عَلَى يَدَيْكَ الْحِدَادَا

٧ - أما في الشعر الاجتماعي والتهديني فقد نafs حافظ إبراهيم (هوجو) في هذين اللونين من القريض منافسة قوية تضعه في الصفوف الأولى بين الشعراء الاجتماعيين الواعظين الذين كان لشعرهم تأثير قوى في نفوس مواطنيهم فأصاح من سلوكهم وهدى الكثير منهم سبل الاستقامة والفلاح ونبذ التقاعس والتواكل والنهوض إلى العمل الجاد المثمر لرقى أممهم في شتى المجالات الإنسانية .

ولما كان حافظ قد قضى معظم أعوام حياته في عهد الاحتلال البريطاني لمصر فإن أغاب أشعاره الاجتماعية التهدينية كانت استفزازا لهمم مواطنيه - فهو يستفزهم ليستيقظوا من غفلتهم ويركن إلى تقريرهم لينهضوا ويشبوا نحو الخلاص من الاستعباد والاستغلال ويلومهم على التواكل لينفضوا غبار التخاذل عن ثيابهم ويسيروا في طريق الرقي رافعي الرءوس تحذوهم العزة والكرامة والإباء . فهو إذا خاطب رئيس مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية في عام ١٩٠٩ م . بثه آلامه وآلام الشعب المصري ثم يصف له حال هذا الشعب المؤسفة وما آل إليه أمره من البؤس والخور والتواكل . وكل ذلك ليستفز قومه ويحثهم على الاستيقاظ من سباتهم العميق فيقول

أرى شعبا بمد رجى العوادي
تمتخخ عظمه داء عتام
إذا ما مر بالبأساء عام
أطل عليه بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى
تخطف رزقه ذاك الزحام
قد استعصى على الحكماء منا
كما استعصى على الطب الجذام

هَلاكُ الفردِ منشَوُّهُ تَوَانِ
وموتُ الشعبِ منشَوُّهُ انقسامُ
وإنَّا قدْ ونينا وانقسمنا
فَلَا تَسْمَعِ "هُنَاكَ" ولا وِثَامُ
فساءِ مُقَامُنَا في أرضِ مصرِ
وطَّابَ لغيرنا فيها المقامُ
فَلَا عَجَبٌ إِذَا مُلِكَتْ علينا
مذَاهِبُنَا وَأَكْثَرْنَا نِيَامُ

وهو يذهب في استفزازهِ وتَفرُّيعهِ اللاذع لدرجة أنه يتمنى لمواطنيه شتاء
لايُحتمل ليمزقوا أكفانهم ويخرجوا من قبورهم إلى العالم خلةً جديدةً خالصاً من
تلك المساوئ التي يراهم عليها في الآليات المدوّنة قبل فيقول (لفورست) الذي
عين عام ١٩٠٧ خلفاً (لكرومر) بعد أن يذكره بمأساة دنشواي وما اقترف
الإنجائز فيها من فظائع وحشية كان من نتائجها إعدام أربعة من المواطنين
ظلماً وعدواناً :

قَتِيلُ الشَّمْسِ أَوْرَثَنَا حَيَاةً
وَأَيَقُظْ هَاجِعَ الْقَسْوِمِ الرُّقُودِ
فَلَيْتَ (كُرُوسَراً) قدْ دامَ فينا
يُطَوِّقُ بالسلاسلِ كُلَّ جَيْسِدِ
ويُشْحِفُ مِصْرَ أَنَا بَعْدَ آنِ
بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدٍ
لِنَنْزَعِ هذه الأكفانَ عَنَّا
وَنُبْعَثَ في العوالمِ مَنْ جَدِيدِ

وإذا زار إيطاليا رجع ليستنبت قومك ويخيم على تتبع خطوات الأمم
المتحضرة الراقية ويعنفهم على الركود الذي يخيم على همهم المتخلفة فيصف لهم
ماشاهد في ذلك القطر الأوروبي من تقدم ورقى ويقول متنازعا هذا الرقى بتخلفهم:

جُوهْمُ في قلبٍ واختلافٍ
غير أن الثباتَ فيهم وفيهم
جُونا أثبتَ الجِواءَ ولكن
ليس فينا على الثباتِ صبُورُ
ولديهم من الفنونِ لبابُ
ولدينا من الفنونِ قُشُورُ
أنكرَ الوقفَ شرعُ فلماذا
كلُّ رُبْعٍ بأرضهم مَعْمُورُ
ليس فيها 'مستنقع' أو جِدارُ
قد تداعى أو مسكنٌ مهجورُ
كلُّ شبرٍ فيها عَليتهِ بناءُ
'مشمخر' أو رِحْضةٌ أو غديرُ

إلى أن يقول :

نَضْرُوا الصخرَ في رموسِ الرِوَاسِ
ولدينا في موطنِ الخِصْبِ بُورُ
قَد وَقَفْنَا عندَ القديمِ وساروا
حيثُ تَسْرِي إلى السكالِ البُدُورُ

وكانى بحافظ في هذه الأبيات اللاذعة كان ينبغي أن تصل مصر إلى ما وصلت إليه الآن

من التقدم الملحوظ في كل النواحي العمرانية - فالثبات الآن لا ينقصنا والفنون لدينا في تقدم سريع ورفق مرموق والوقف حل وصار حرا يتصرف المستحقون في أعيانه بالتعمير أو البيع - والمستنقعات تزدحم في جميع محافظات المطر المصري والتعمير يجرى على قدم وساق - والسد العالي يشرف على الإتمام ولن يكون بمصر مناطق زراعية بور بعد الإفادة من مياهه العارمة وبعد استصلاح الأراضي الذي يتم في سرعة مذهشة - وقد تركنا القديم وسرنا في طريق الجديد تنافس الدول الكبرى في الحياة الاجتماعية القائمة على العدل وتكافؤ الفرص لجميع المواطنين - ومن ثم نجد أن شاعر النيل عنف مواطنيه وقد أفاد تعنيفه وأثمر تقريره الوطني إلى أبعد حد .

ومن استفزاز شاعر النيل لقومه تذكيرهم بتاريخ آبائهم وأجدادهم المجيدين وندبه جباههم ومجدهم الضائع ليتحسروا على ما فات ويعملوا جاهدين على تجديد هذا الجاه وهذا المجد الممتودين - فهو يقول في حسرة تذيب الأفتدة :

لم يبقَ شيءٌ من الدُّنيا بِأَيِّدِينَا
إلا بَقِيَّةُ دَمْعٍ في مَآقِينَا
كُنَّا قِلَادَةَ جِيدِ الدَّهْرِ فَانْفَرَطَتْ
وفي يَمِينِ الْعُلَا كُنَّا رِيَّاحِينَا
كانت مَنَازِلُنَا في الْعِزِّ شَايِخَةً
لَا تَشْرُقُ الشَّمْسُ إِلَّا في مَغَايِينَا
وكانَ أَقْصَى مَنَى نَهْرِ الْمَجَرَّةِ لَوْ
مِنْ مَائِهِ مُزِجَتِ أَقْدَاحُ سَاقِينَا
والشَّهْبُ لو أَنَّهُا كانت مُسَخَّرَةً
لِرَجِيمٍ مِنْ كَانِ يَبْدُو مِنْ أَعْيَادِينَا

فلم نزل رصرووف الدهر ترمقنا
شزراً وتخذعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا جاء ولا نسب*
ولا صديق ولا خيل* يؤاسينا

وما من شك في أن كل من كان يقرأ هذه الأبيات الحزينة التي نشرت عام ١٩٠٢م (١٣٢٠هـ) كان يتمثل الدنيا وقد ضاقت في عينيه ومستقبل وادى النيل وقد بدا مظالمنا فيستولي الأسى على جنبات وجدانه ويتحفز لاستعادة مجد مصر وعزة أبناء وادى النيل وينتفض وقد قويت عزيمته للعمل على رقى بلاده ورفعها - وقد ترك حافظ لمواطنيه طائفة من الأمثال تنبعث منها الحكم السديدة التي مازال جميع الذين رددوا أشعاره واستوعبوا معانيها الوطنية والاجتماعية يحفظونها ويستشهدون بها كلما حضرتهم المناسبات التي تنطبق عليها .

وفي قصيدته التي أنشدها في حفل جمعية رعاية الأطفال في ٨ من أبريل عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) خط يراعه الأبيات الثلاثة الآتية التي توضح لبنى وطنه معنى الإحسان المجرد عن الغايات - الإحسان النبيل الكريم الذي يقدم للمحتاجين ابتغاء مرضاة الله وليس للبانة يراد قضاؤها فيقول :

خيرُ الصنائع في الأنام صنيعة*
تنبؤ بحالمليها عن الإذلال
وإذا النوال أتى ولم يُهرق له*
ماءُ الوجوه فذاك خيرُ نوال
من جاد من بعد السؤال فإنه*
وهو الجواد - يعد في البخال

وإذا أراد أن يثبت لهم أن تعليم المرأة ضرورة ملحة ينبغي أن تحقق

لأعداد جيل من النسل القويم الذى يأخذ بيد الأمة فى سبيل الفلاح يقول لهم
فى قصيدته التى ألقاها فى حفل أقيم لإعانة مدرسة البنات ببورسعيد فى ٢٩ مايو
عام ١٩١٠ م (١٣٢٨ هـ) :

من لى بتربية النساء فإنها
فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيى
بالرى أوزق أيماً ليراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى
شغلت ماثرهم مدى الآفاق

ولقد تحقق ما كان يصبو اليه حافظ - فلو ظل فى قيد الحياة حتى الآن لشاهد
تقدم المرأة المصرية ورقياً ثقافى وشغلها أعلى مناصب الدولة حتى منصب الوزارة
ولقر عينا بما تمنى لها من تعليم وسيادة ولراى الجيل الناهض الذى ربته المرأة
المصرية المثقفة أحسن تربية يسير قدما فى طريق الرقى الصاعد فى كافة مجالات
الحياة العملية .

وعندما يزين لأهل مصر الزود بالعلم يسدى لهم هذه الحكمة البالغة فى ثنايا
قصيدته التى قالها فى تهنئة مجلة المقتطف بعيدها الخمسينى فى أول يوليو عام ١٩٢٦ م
(١٩٤٥ هـ) فيتحفهم بهذين البيتين :

العالم فى البأساء مُنزته رَحمة
والجهل فى النعماء سوط عقاب

وَلَعَلَّ يَزِدَّ الْعِلْمَ مَا لَمْ يَسَّرْهُ

سَاقٍ مِنْ الْأَخْلَاقِ وَيَزِدُّ سَرَابَ

ويسوق حافظ - للتدليل على أن الظلم يجر في النفوس المظلومة على أمرها - حكمة
تصح لأن يضرب بها المثل في أى وقت من أوقات الزمن على مر أعوامه
وقرونه إذ يقول :

عَلَى قَدْرِ الْأَذَى وَالظُّلْمِ يَعْمَلُو

صَيَّاحُ الْمُشْفِقِينَ مِنْ الْمَزِيدِ

وإذ مثلت أمام عينيه فظائع الحرب العالمية الأولى نشر في ١٥ من يناير عام
١٩١٥ م (١٣٣٤ هـ) قصيدة يخاطب بها غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا فى ذلك
الوقت ويلومه على شنه تلك الحرب المدمرة فيقول له فى نهاية هذه القصيدة
الآيات التالية:

أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْإِلَهِ تَوَرَّعَا

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مُرْسَلٌ وَأَمِينُ

عَجَبًا أَتَذْكُرُهُ وَتَمَلُّا كَوْنَهُ

وَيَلَّا لِنِعَمِ شَعْبُكَ الْمَغْبُوتِ؟

وَكَذَلِكَ الْقَصَابُ يَذْكُرُ رَبَّهُ

وَالنَّصْلُ فِي عُنُقِ الذِّبْحِ دَفِنُ

وفى البيت الأخير حكمة هى من أروع الأمثال التى تضرب لكل من يتظاهر
بالورع والشفقة وهو فى الحقيقة شرير قاتل

ولم يقتصر حافظ لإبراهيم على إيراد حبه لمصر وأبناء مصر فى روائع شعره
فأبدى هذا الحب الصادق النبيل لأهل العروبة جميعا فى عديد من قصائده - ففى

الحفل الذي أقيم بالقاهرة لتكريم جماعة من السوريين خلال عام ١٩٠٨ م
(١٣٢٦ هـ) يقول لأفراد هذه الجماعة وكأنه يمهّد بشعره لقيام الجامعة
العربية والوحدة العربية :

إِذَا أَلَمَّتْ يَوَادِي النِّيلِ نَارِلَةٌ
بَاتَتْ لَهَا رَاسِيَاتُ الشَّامِ تَضْطَرِبُ
وإنْ دَعَا فِي رُيِّ الْأَهْرَامِ ذُو الْمِ
أَجَابَهُ فِي ذُرَا لُبْنَانَ مُنْتَحِبُ
ويواصل قصيدته إلى أن يمدّ لهم يده قائلا :

هَتْدَى يَدِي عَنْ بَنَى مِصْرٍ تُصَافِحُكُمْ
فَصَافِحُوهَا تُضَافِحُ نَفْسَهَا الْعَرَبُ

وقد تصافحت أيدي العرب بعد ذلك بالفعل وكانت قصيدة شاعر النيل
من أوائل اللبّات التي وضعت في كيان الجامعة العربية وفي كيان الوحدة العربية
الكاملة التي يصبو إليها كل عربي في وطنه الكبير الممتد من المحيط الأطلنطي إلى
الخليج العربي .

ويؤكد شاعرنا هذه الوحدة العربية في المشاعر ونبضات القلوب وفي السلوك
والوطنية ووحدة المصير — فيقول في بيروت لدى زيارته للبنان عام
١٩٢٩ م (١٣٤٨ هـ)

بِ مَوْطِنٍ فِي رُبُوعِ النِّيلِ أَعْظَمُهُ
وَلِي هُنَا فِي حِمَاكُم مَوْطِنٌ ثَانِي
لَئِنْ رَأَيْتُ عَمَلِي أَهْرَامِيهَا حُلَلًا
مِنْ الْجَلَالِ أَرَاهَا فَوْقَ (لُبْنَانَ)

لَمْ يَمَحْ مِنْهَا وَلَا مِنْ حُسْنِ جِدَّتِهَا
عَلَى التَّعَاقُبِ مَا يَمْحُو الْجَدِيدَانِ
حَسِبْتُ نَفْسِي نَزِيلًا بَيْنَكُمْ فَإِذَا
أَهْلِي وَصَحْبِي وَأَحِبَّائِي وَجِيرَانِي

وكأنى بحافظ كان يتنبأ وهو ينشد هذه القصيدة بالروح العربية الأصيلة التي ظهرت جليلة واضحة في الشام شمل العرب وإخائهم المتين وقد برز هذا الإخاء قويا متين الدعائم عندما اعتدت الصهيونية يساندها الاستعمار على الدول العربية - فقد هبت هذه الدول تسهم في الذود عن حياض الأراضى العربية واختلطت دماء شهدائها في أثناء العدوان الإسرائيلي في اليوم الخامس من شهر يونيو عام ١٩٦٧ م (١٣٨٧ هـ) بدماء الشهداء من أبناء مصر دفاعا عن استقلال الوطن العربي الكبير وصون أراضيه والحفاظ على استقلاله .

٨- وعلى غرار (فكتور هوجو) شكّا حافظ إبراهيم من صروف الدهر القاسية وبث أنات قلبه في كثير من قصائده ولا سيما في مراسيه وقد قال ذلك عن نفسه :

إِذَا تَصَفَّحْتُ دِيْوَانِي لَتَقْرَأَنِي
وَجَدْتُ شَعْرَ الْمَرَّاثِي نِصْفَ دِيْوَانِي
وقد سعى شاعرنا إلى طيب العيش ولكن الزمان لم ينصفه فتضى شطراً كبيراً من حياته يقاسى مر العيش وضيق ذات اليد بعد أن عضه حرمان اليتيم بنابه ولما يزل في عهد الطفولة النضة - وفي هذا الإخفاق - فيما سعى إليه يحكى لك حالته القائمة وهو في أعماق السودان فيقول:

سَعَيْتُ وَكَمْ سَعَى قَبِيلِي أَدِيبُ
فَأَبْ بَخِيْبَةٍ بَعْدَ اغْتِرَابِ

وَمَا أَعْذَرْتُ حَتَّى كَانَ نَعْلِي
 دَمًا وَوَسَادَتِي وَجَنَّةَ التُّرَابِ
 وَحَتَّى صَيَّرْتَنِي الشَّمْسُ عَبْدًا
 صَبِيغًا بَعْدَ مَا دَبَّغْتَ إِهَابِي

وفي القصيدة التي أنشدها في حفل جماعة رعاية الطفل عام ١٩١١م (١٣٣٠هـ)
 وصف حافظ ما كابده من بؤس وشقاء في أبيات تستدر الدموع وتغمر القلوب
 بالآسى والتوجع فقال :

لَمْ أَقِفْ مَوْقِفِي لِأَنْشِدَ شِعْرًا
 صَبَّ فِي قَالِبِي بِدِيعِ النَّظَامِ
 إِنَّمَا قُتِّ فِيهِ وَالنَّفْسُ تَنْشَوِي
 مِنْ كُؤُوسِ الْهُمُومِ وَالْقَلْبُ دَامِي
 ذُقْتُ طَعْمَ الْآسَى وَكَأَبَدْتُ عِيشًا
 دُونَ شِرْبِي قَدْ دَاهُ شَرِبُ الْحِمَامِ
 فَتَقَلَّيْتُ فِي الشَّقَاءِ زَمَانًا
 وَتَنَقَّلْتُ فِي الْخُطُوبِ الْجِسَامِ
 وَمَشَى الْهَمُّ ثَائِبًا فِي فَوَادِي
 وَمَشَى الْحُزْنُ نَاخِرًا فِي عِظَامِي
 فَلِهَذَا وَقَفْتُ أَسْتَعِيطُ النَّاسَ
 سَ عَلَى الْبَائِسِينَ فِي كُلِّ عَامِ

وفي هذين الا نموذجين من شعر حافظ الذي يتناول بؤسه ما يكفي للتدليل
 على ما كان يعمل في وجدانه المعذب من حسرة ولوعة وحزن قائم ولاسيما إذا

أضيفا إلى الأبيات التي ذكرت قبل والتي أوائلها: درميت بها على هذا التباين ...
ولا مصر "تصفني ... وسعيت إلى أن كدت أتعل الدما ..."

٩ - ويشهد تاريخ الأدب الفرنسي (لفكتور هوجو) بالقوة في الخيال
والسهولة في تصوير المراتب والوضوح في سرد الفكر والموسيقى في العبارة
والمثانة في اللغة إلى حد البحث عن الألفاظ الرنانة .

وهذه صفات تجتمع كلها في شعر حافظ ونثره - فالخيال في شرح ما يخالج ضميره
من انفعالات وعواطف وأحاسيس لا تقصه . وبراعة التصوير تكاد تلس باليد
فيما يصف ويصور . فهو إذا وصف الشمس يقول لك :

لاح منها حاجب للناظرين
فنسوا بالليل وضاح الجبين
ومحت آتيا آتية
وتبدت فتنة للعالمين

إلى أن يقول في وصفها :

هي أم الأرض في نسبتيها
هي أم الكون والكون جين
هي أم النار والنور معا
هي أم الريح والماء المعين
هي طالع الرّوض نورا وجي
هي نشر التورد ، طيب الياسمين
هي مموت وحياة للورى
وضلال وهدى للغارين

وإذا وصف المدفع جعلك تتمثله في خاطرك وهو يلقي بقتابله المدمرة على أهدافه لترهب الأعداء وتترزع أرواحهم خطفا فينشد :

مَمْلُكَةُ الْمَدْفَعِ ذَاتُ الْحَسَالِ
قَامَتْ بِحَوْلِ النَّارِ وَالزَّلْزَالِ
فَأَرْهَبَتْ أَقْسَدَ الْأَبْطَالِ
أَرْهَبَهَا مُزْعِزُ الْجِبَالِ
وَمُفْزِعُ اللَّيُوثِ فِي الدَّحَالِ
وَقَاطِعُ الْأَجَالِ وَالْأَمَالِ
وَحَايِفُ الْأَرْوَاحِ مِنْ أُمِّيَالِ
يَشُورُ كَالْبُرْكَانِ فِي النَّزَالِ
فَيَتَّبِعُ الْأَهْوَالَ بِالْأَهْوَالِ
وَيُرْسِلُ النَّارَ عَلَى التَّوَالِ
فَيَحِطُّمُ الْهَامَ وَلَا يُبَالِ

أما الموسيقى في شعره - ولا سيما فيما له علاقة منه ببؤسه وشقائه في الحياة - فلا يستطيع أن ينكرها من يرددون قصائده في هذا اللون من قريضه الذي تنبعث منه روح الالم الصادق - ألم النفوس الكبيرة المعذبة - وفي النماذج المدونة قبل ما يدل على هذه الموسيقى الرنانة الجرس في وضوح وجلال .

وأما البحث عن الألفاظ القوية التمجيد في أدب حافظ فشرط يلزمه خصوصا في النثر.

فإذا عَرَّب رواية (البؤساء) أدخل في التعريب - كما أدخل المؤلف في الرواية - مجموعة كبيرة من الجمل والعبارات المنمقة التي تشعر القارى ببحث حافظ عنها طويلا

قبل وضعها في التعريب - مثل ذلك الخيل الآتية : « مال ميزان النهار - واكتهل اليوم - وركب نعليه عامة يومه » .

وإذا كتب لياني سطيح فعل ذلك على نطاق أوسع فيقول : ثم حانت منه التفتاة إلى السماء فإذا الظلة تنجلي عن أطرافها إنجلاء الخضاب عن التمدال الأشيب أو يقول : خذوا مضاجعكم إذا طر شارب الظلام.

أما الكتاب الذي بعث به إلى الإمام الشيخ محمد عبده وهو في السودان فأقوى برهان على تصيده الألفاظ الضخمة في نشره - فهو يقول للإمام في صدر هذا الكتاب .

« كتابي إلى سيدي ، وأنا من وعده بين الجنة والسلسيل ، ومن تيمى به فوق النثرة والإكليل ، وقد تعجلت السرور ، وتسلفت الحبور ، وقطعت ما بيني وبين النوائب - ثم يتطرق بعد أن يمني نفسه بالأمل العرينس في فضل الإمام عليه فيقول :

« وهأنا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة ، وينطوى أجل تلك الفترة ، وينظر لي سيدي نظرة ترفعني من ذات الصدع ، إلى ذات الرجوع ، وتردني إلى وكري الذي فيه درجت رد الشمس قطرة المزن إلى أصلها ، ورد الوفي الأمانات إلى أهلها ،

وبعد أن يشكو همسه وكراهية (كتشنر) الإنجليزي الجبار له وضعيفيته الشريرة عليه يختم كتابه بهذه العبارات السجعية المليئة بالكلمات المنتقاة الرنانة :

« وإني أهديك سلاما لو امتزج بالسحاب ، واختلط منه باللعب لأصبحت تتهاذى بقطرة الأكاسرة وأمست تدخر منه الرهبان في الأديرة ، ولأغنى ذات الحجاب عن الغالية والملاّب ، ولا بدع إذا جاد السيد بالرد ، فقد يرى وجه المليك في المرآة ، وخیال القمر في الأضائة ، وإن حال حائل ، دون أمنية هذا

السائل ، فهو لا يذم يومك ، ولا يأس من غدك ، فأنت خير ما تكون حين لا تطن نفس بنفس خيرا ، والسلام .

ومن كل هذه النماذج الشعرية والنثرية المدونة قبل يتضح أن نفس « هوجو » وحافظ كانتا على صلة فكرية وثيقة . وأن شاعر الوطنية والاجتماع المصرى نسج على منوال شاعر الوطنية والاجتماع الفرنسى دون أن يسرق مبانيسه أو يتلده تمليدا أعمى .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أخلاق حافظ تتميز بظاهرة نجيدها واضحة في شعره ولا نكاد نلحها في شعر « هوجو » . هي أن شاعر النيل تطبعه دعابة مرحة بطابع مصرى بحت . على الرغم مما لاقى من قسوة الزمن . فلا يخطئ أحد في معرفة جنسيته بمجرد أن يتصفح ديوانه وكان من بنى مصر أو ممن أقاموا بها وخبروا طباع أهلها وعاداتهم ونكاتهم .

فدعابة حافظ المرحة لا تفارقه طويلا — فهي تظهر في أكثر قصائده حتى في تلك التى تتناول عظام الأمور .

فإذا تعرض لغلاء الأسعار وأنشد ليحث المصلحين فى مصر على الالتفات إلى حالة الفقير قال لهم وهو يصور نفسية هذا الفقير الجائع:

وَيَخَالُ الرِّغيفَ فِي الْبَعْدِ بَدْرًا

وَيَظُنُّ اللَّحْمَ صَيْدًا حَرَامًا
إِنْ أَصَابَ الرِّغيفَ مِنْ بَعْدِ كَدٍّ

صَاحَ مَنْ لِي بِأَنْ أُصِيبَ الْإِدَامَا

ولذا استعمل متمدن «السير غورست» المعتمد البريطانى الذى جاء مصر عام ١٩٠٧ بعد «السلورد كرومر» بتصيدة يصف فيها آلام الشعب المصرى طالبه بتفريغ الأزمة المالية التى كانت تحتاج البلاد حينذاك قائلا له فى تهكم :

وَفَرَّجَ أَزْمَةَ الْأُمُورِ عَنَّا
بِمَا أُوتِيتَ مِنْ رَأْيِ سَدِيدٍ
وَسَلَّ عَنْهَا الْيَهُودَ وَلَا تَسَلَّنَا
فَقَدْ ضَاقتْ بِهَا حِيلُ الْيَهُودِ

وحتى إذا طالب أعضاء مجلس شورى القوانين بأن يكونوا حريصين على
حقوق البلاد فلا يخلو طابعه من الدعاية المصرية فيحذروهم من المستعمرين قائلا :
وَخَافُوهُمْ إِذَا لَاتُوا فَلَانِي
أَرَى السُّوءَاسَ لَيْسَ لَهُمْ زِمَامُ
فَكَمْ ضَحِكَ الْعَمِيدُ عَلَى (لِحَانَا)
وَعَرَّ سُرَاتِنَا مِنْهُ ابْتِسَامُ
ثم يحذروهم من جشع شركات الاحتكار الأجنبية ومن ابتزازها ثروات مصر
في غير ورع فينصحبهم منشدًا :

وَمَا الْمَوْتُ الزَّوَامُ إِذَا عَقَلْنَا
سوى الشَّرَاكِاتِ حَلٌّ لَهَا الْحَرَامُ
لَقَدْ سَعِدَتْ بِغَفْلَتِنَا فَرَاخَتْ
بِثُرُونِنَا وَأَوَّلُهَا (التَّرَامُ)

وعندما يتصدى لهجو سلوك الجرائد في ذلك الحين ويندد بكونها إلى
الكذب ونشر الأخبار المختلقة يقول فيها :

جَرَائِدُ ، أَوْ «خَطَّ» حَرْفٌ بِهَا
لَغَيْرِ تَفْزِيقٍ وَتَضْلِيلِ

يَحْلُو بِهَا الْكَذْبُ لِأَرْبَابِهَا
كَأَنَّهَا أَوَّلُ لَابْرِيلِ

وفي الحفل الذى أقامه أعضاء نادى طنطا عام ١٩١٢ م (١٣٣١ هـ) تكريما
لحفى ناصف بمناسبة انتقاله من القضاء إلى التفتيش بنظارة المعارف لم تفارق
النكتة المرحه حافظ وهو يكرم صديقه الحميم فيقول له:

لَسْلاَ الْحَيَاءُ وَلَسْلاَ
دِينِي وَعَقْلِي وَسِنِّي
لَقُمْتُ فِي يَوْمِ (حَفْنِي)
أَدْعُو لِسَكْرَةِ (يَنِّي) ١١

وعبارة (سكرة ينى) كانت إلى وقت قريب تضرب مثلا لمن يستغرق في
شرب الخمر حتى يفقد الوتنى - فيقال فيه إنه (سكر سكرة ينى) أى أنه أسرف
في شرب الخندريس عند (الخمار اليونانى ينى) حتى أضاع صوابه .

ولما يتطرق إلى وصف رجل عظيم البطن ضخيم البدن ثقیل الظل يقول له :
عَظُمْتُ فَنَّ الْكَهْرَبَاءِ فَلَمْ نَجِدْ
شَيْئًا يَعُوقُ مَسِيرَهَا إِلَّا كَأَنَّ
تَسْرِي عَالِي وَجْهِ الْبَسِيطَةِ لَحْظَةً

فَتَجَوَّبَهَا وَتَحَارُّ فِي أَحْشَاكََا

هذا هو حافظ إبراهيم المرح الذى اشتهر بالسرعة (فى النكتة) المصرية التى
كادت من خصائص روحه المرحه فى جميع المجالات التى ضمته للسمر أو للتحدث
فى الأدب - فكان بهذا المـرح العابر لا يدل ظاهره على باطنه الذى يضم من

الأرزاء ما جعله يتمنى لو أنه لم يولد — فيقول والاسى المضى يستولى على قلبه الحزين فى قصيدته التى نشرت عام ١٩٠٠ م (١٣١٨ هـ) بعنوان الإخفاق بعد الكد :

ماذا أصبّت من الأسفار والنصب
وطيّتك العُمر بين الوُخدِ والخَبَبِ ؟
نراك تَطْلُبُ لاهوتنا ولا كُتُبنا
ولا تَرى لك من مآل ولا نَشَبِ
لا تطعميما نى أنياب الملام على
هذا العِثارِ فأنى مَهْبطُ العَجَبِ
و ددت لو طرحتوا بى يوم جشّهم
فمسيح الحوت أو فى مسرح العطبِ
لعلّ (مائى) لاقى ما أكابدهُ
فقد تعجّلنا من عالم الشَّجَبِ
لأنى احتسبتُ شباباً بت أنفيقه
وعزّمة شابت الدنيا ولم تشبِ
كم همت فى البئد والآرام قائلة
والشمس ترمى أديم الأرض بالذهبِ
وكم ليست الدُّجى والترُّب ناعسة
والليل أهدأ من جأشى لدى الثوبِ
والنَّجْم يعجب من أمرى ويحسبني
لدى السرى ثامناً للسَّبعة الشُّهبِ

لَكُنْتُ غَيْرُ مَجْدُودٍ وَمَا فَتَيْتُ
يَدُ الْمُتَسَادِيرِ تُقْصِيْنِي عَنِ الْأَرْبِ

وحافظ إبراهيم البائس الذي قاسى من الشقاء ألوانا ومن الإخفاق أتجسه
يندب حظه العاثر موجها شعره إلى آدم أبي البشر وإلى نوح منتقذا الإنسان في
سفينته فيقول لهما :

سَلِيلَ الطَّيْنِ كَمْ يَلْنَا شَقَاءَ
وَكَمْ تَخَطَّتْ أُنَامِلُنَا ضَرْيَحًا
وَكَمْ أَزْرَتْ بَنَى الْإِيَّامُ حَتَّى
فَدَّتْ بِالْكَبْشِ لِسَحَّاقِ الذَّبَّاحِ
وَبَاعَتْ يُوسُفًا بِنِعِ الْمَوَالِ
وَأَلْقَتْ فِي يَدِ الْقَوَمِ الْمَسِيحَا
وَيَا نُوحًا جَنَيْتَ عَلَى الْبَرَايَا
وَلَمْ تَمْنَحْهُمُ الْوَدَّ الصَّحِيحَا
عَلَامَ حَمَلَتَهُمْ فِي الْفُلِكِ هَلَا
تَرْكَبُهُمْ فَكُنْتَ لَهُمْ مُرِيحَا؟
أَسَابَ رِفَاقِي الْقِنْدَحِ الْمُعَلَّى
وَصَادَفَ سَهْمِي الْقِنْدَحِ الْمُنِيحَا
فَلَوْ سَاقَ الْقَمْضَاءُ إِلَى نَفْعَا
لَقَامَ أَخُوهُ مُعْتَرِضَا شَحِيحَا

ففي شكواه الأولى يتمنى لو أنه لم يخاق أصلا وفي الثانية يلوم آدم أبا البشر
ونوحا لأنهما أنقذا بني الإنسان من العدم مع أن الدنيا أذرت بهم فباعته يوسف

كالعبيد ، جعلت الكعبش فداءً لإسحاق (وهو بذلك يردد قول البعض إن الذبيح لم يكن إسماعيل) ثم ينغى خطه إذ صادف سهمه القدح المنيح وهو السهم السابع من القداح الذى لا نصيب له ولا فرض - وحتى لو ساق القضاء إليه نفعا فإن أخاه القدر يقوم معترضا فلا يصيبه من هذا الذمى شئ .

هذا هو حافظ إبراهيم مقارنا فى تاريخه الأدبى بشاعر فرنسا الكبير (فكتور هوجو) - وكما أثر (هوجو) فى الأدب الفرنسى حتى صار أبا للذهب والرومانسى ، فى فرنسا فإن حافظ إبراهيم قد أثر فى أبناء جيله من المصريين أعمق التأثير - فطائفة كبيرة ممن عاصروه فى عهد شبابهم وتذوقوا شعره - ولا سيما الوطنى منه - ومارسوا نظم الشعر فى نه - أية القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين قد اتخذوا منه نبراسا لهم - ومن ثم كان حافظ صاحب مدرسة أدبية تخرج منها عدد غير قليل من الشعراء وكان لى الحظ بأن أكون أحد المتواضعين منهم .

فقد كانت قصائد حافظ تلعب بوجدانى وتستولى على شعورى - فكنت استوعبها ثم أحفظها فى غبطة وتقدير فائق لشاعر النيل - وكان من نتائج هذا التوافق فى المزاج الشعرى أن جاءت بعض القصائد التى جرى بها قلبى وكأنها مستوحاة من قصائده من حيث الكيان الكلى والتعبير العام الذى ينبعث منها - وأبعد من ذلك فقد قلت فى اليوم الخامس من شهر أكتوبر عام ١٩٢٧م (١٣٤٦ هـ) فى حفل تأبين المرحوم سعد زغلول بمسرح محمد على (مـرح سيد درويش حاليا) قصيدة صدرتها بالآيات الثلاثة التالية :

عَظُمَ الحَظُّبُ مُدَّةً نُعِيَتْ وَخَابَ

أَمَلُ الشَّعْبِ إِذْ تَلَقَّى المَصَابَا

فَقَدَّ النِّيلُ فَيْكَ خَيْرَ زَعِيمِ

فى جلال الوقت ر عن مصر نابا

فَمِشِيْبٌ وَرَاءَ نَعْشِيْكَ بِنِيْكَ
وَشَبَّابٌ مِنْ رَّوْعَةِ الرُّزْءِ شَابَا

وَأَنشَدَ حَافِظُ إِبْرَاهِيْمَ فِي حِفْظِ تَأْيِيْنِ الْفَقِيْدِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ أَكْتُوْبَرِ
عَامِ ١٩٢٧ (أَيَّ بَعْدِ يَوْمِيْنِ فَقَطْ مِنْ إِلْقَاءِ قَصِيْدَتِي) - أَنشَدَ شَاعِرُ النَّيْلِ مِنَ الْبَحْرِ
وَالْقَافِيَةِ نَعْسَهَا قَصِيْدَتَهُ الَّتِي مَطْلَعُهَا :

لِيَهْ يَا لَيْلُ هَلْ شَهِدْتَ الْمُصَابَا
كَيْفَ يَنْصَبُ فِي النَّفْوِسِ انْصِبَابَا
بَلَّغْ الْمَشْرِقَيْنِ قَبْلَ انْبِلَاجِ الصُّ
بَجْجِ أَنْ الرُّئِيسَ وَلِيَّ وَغَابَا

وَعِنْدَمَا تَوَلَّى حَزْبُ الْأَحْرَارِ الدِّسْتُوْرِيَيْنِ الْحُكْمَ فِي مِصْرٍ وَقَالَ أَحَدُ رُوْسَائِهِمْ
فِي مَسْتَهْلِ الْحَلَاثَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْقَرْنِ الْحَالِي « إِنْ الدِّسْتُوْرُ ثَوْبٌ فَضْفَاضٌ ، بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْمِصْرِيِّيْنَ - نَظَمْتُ قَصِيْدَةً وَأَلْقَيْتُهَا فِي عِيْدِ الْجِهَادِ » بِكَازِيْنُو بِلْفِدِيرِي ،
بِالْأَسْكَندَرِيَّةِ بِجَهَةِ مَحْطَةِ الرَّمْلِ - وَكَانَ مِنْ بَيْنِ خُطَبَاءِ ذَلِكَ الْجَمَاعَةِ الْوَطْنِيِّ الْمَرْحُومِ
الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ تَوْفِيْقُ دِيَابَ وَالْمَرْحُومُ الْأَسْتَاذُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ الطَّوِيلُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ
كِبَارِ الْوَطْنِيْنَ بِالْأَسْكَندَرِيَّةِ - وَقَدْ قُلْتُ فِي هَذِهِ الْقَصِيْدَةِ رَدًّا عَلَى الْإِدْعَاءِ بِأَنَّنَا
لَا نَسْتَحِقُّ الدِّسْتُوْرَ وَالْحُكْمَ الْنِيَابِيَّ مُوجَّهًا الْكَلَامَ لِلْأَحْرَارِ الدِّسْتُوْرِيَيْنِ :

لَا تَقُولُوْا بِأَنَّنَا لَمْ نُنْهَيَّا
لِنَسْأَلِ الْحُقُوْقَ وَالْإِسْتِعَادَا
نَحْنُ قَوْمٌ مَا خَلَقْنَا لِنَبْقَى
أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْمِلُ الْأَصْفَادَا
نَحْنُ يَا قَوْمُ أُمَّةٌ وَشَعُوْرٌ
أَخَذَ النَّاسُ عَنْهَا الْإِرْشَادَا

فَبَلَّغْنَا مِنْ الْعَلَاءِ مَكَانًا
وَجَمِيعُ الشُّعُوبِ تَغْشَى الْوَهَادَا
وَهَدَيْنَا الْعُقُولَ عِلْمًا وَفَنًا
وَصَوَّبْنَا وَحْكَمَةً وَسَدَادَا
ثُمَّ وَجَّهْتُ قَوْلِي إِلَى الْإِنْجِلِيزِ الْغَاصِبِينَ مُتَّحِدِينَ :
زَلْزَلُوهَا بِنَارِكُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ
وَاسْتَبِيدُوا بِأَمْرِهَا اسْتِبْدَادَا
وَاجْعَلُوا النَّيْلَ إِنْ قَدَرْتُمْ بُتْرَابًا
وَاجْعَلُوا الزَّرْعَ شُعْلَةً فَرْمَادَا
أَوْسِعُونَا إِهْمَانَةً وَهَوَانًا
وَاجْلِدُوا الشَّيْبَ وَاقْتُلُوا الْأَحْفَادَا
وَانْشُرُوا الشُّوكَ تَحْتًا حِينَ نَمْشِي
أَطْعِمُونَا إِذَا سَفَيْنَا الْقَتَادَا
وَارْبِطُونَا سُورَجِكُمْ إِنْ طَلَبْنَا
مِنْكُمْ الْعَدْلَ وَاسْتَفِيزُوا الْجِيَادَا
أُمَّةٌ دَالِيْمُزٍ، لَنْ تَنَالُوا اعْتِرَافًا
بِتَرَاثٍ فَضَايَعُفُوا الْأَحْقَادَا
انْتَسِمُ الْبَطْشُ تَمْلِكُونَ الْمَنَآيَا
فَأَمْرُهَا نُحَطِّمُ الْأَجْسَادَا
غَيْرَ أَنْ النُّفُوسَ مَهْمَا صَنَعْتُمْ
لَنْ تَنْخُوتَ الْعُهُودَ وَالْأَجْدَادَا

نحنُ بالحقِّ نطالبُ استِقلالاً

ومن الحقِّ نستَمِدُّ اعْتِماداً

وفي ٢٨ من إبريل عام ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ) نشر شاعر النيل حافظ إبراهيم إحدى قصائده الوطنية المجيدة بعنوان دلى الإنجليز، قال فيها :

حوّلوا النيلَ واحجّبوا الضوءَ عَنَّا

واطمسوا النّجمَ واحرّمونا النّسيمَا

واملأوا البحرَ إن أردتُم سفينَا

واملأوا الجوّ إن أردتُم رُجوما

وأقيموا للعسفِ فى كُلِّ شبرٍ

(كنستبلاً) بالسّوطِ يفرى الأديما

إنّا لن نحولَ عن عهدِ مصرٍ

أو ترونا فى الترابِ عظامَ رميمَا

عاهفُ صانَ مُلككمُ وحقاكمُ

وكفّاكمُ بالأمسِ خطبَا جسيمَا

غالَ (أرمادة) العدوَّ قفزتُم

وبلغتُم فى الشرقِ شأوا عظيمَا

فعدلتُم هنيئَةً وبغيثُم

وتركتُم فى النيلِ عهداً ذميمَا

فشهدنا ظلماً يُقالُ لهُ العدوُ

لُ ووداً يشقى الحميمَ الحميما

فاتقوا غضبةَ العواصفِ لاني

قد رأيتُ المصيرَ أمسى وخيما

فالروح الوطنية في القصيدة تكاد تكون واحدة - ومطلع قصيدة شاعر النيل يكاد يطابق قولي للإنجليز أن يفعلوا بنا ما يريدون فإن تتحول عن مطالبنا الحتمية - وفي كل ما تقدم أقوى دليل على تواتر الخواطر وعلى أن عظماء الرجال يؤثرون في نفوس مريديهم فيترسمون خطاهم وينسجون على منوالهم قدر استطاعتهم دون أن يطمعوا في اللحاق بهم والارتفاع إلى قدرهم ومستواهم.

وإن كان تشييع جثمان (هوجو) قد استغرق عشر ساعات طوال مرور الجنازة في شوارع (باريس) التي ضمت مئات الألوف من الفرنسيين المقدرين لشاعرهم العظيم - وإن كان جثمان شاعر النيل لم يشيعه إلى مقره الأخير المجهول بين الموتى إلا بعض الأصدقاء والأقارب والجيران فإن مصر الخالدة - مصر التي لا تنسى أبناءها المخلصين - مازالت تتخذ من قبره كعبة وأثراً خالداً من آثار فخرها ومجدها على مر الأعوام والأجيال.

رحم الله حافظ إبراهيم وجعل مثواها جنة الخلد منزلاً وثواباً

٧ - الشاعر شيبوب

والمذهب الرومانسي

ليس من المغالاة في شيء وضع الشاعر خليل شيبوب في أحد الصفوف المتقدمة بين رواد الشعر الحديث في الإسكندرية ليسير في موكب الشعراء الراحلين الذين كان لهم أثر واضح في نهضة الأدب العربي بين أرجاء عاصمة القطر المصري الثانية وفي زمريهم عبد الرحمن شكرى والدكتور أحمد زكى أبو شادى وعثمان حلى :

ولقد كان شاعرنا ذا حظ موفور من الثقافتين العربية والفرنسية فأسهم بنصيب من موق في حركة التجديد الشعرى وذا مكانة بارزة في التوجيه الفكرى علاوة على ما كان يتمتع به من معرفة أصيلة بفقہ اللغة ودلالات ألفاظها وأوضاعها المختلفة إلى جانب تعمقه في البحث القانونى .

وولد خليل شيبوب باللاذقية بالقطر السورى الشقيق فى ٢٨ من يناير عام ١٨٩١ م (١٣٠٩ هـ) وتلقى دروسه بمدرسة الفرير ، فى مسقط رأسه - وبدأ ينظم الشعر ولمّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره - ثم رحل مع أسرته إلى الإسكندرية واستقر فيها منذ أكتوبر سنة ١٩٠٨ - وقد واصل دراسته فحصل على إجازة الحقوق الفرنسية من مدرسة المنيرة بالقاهرة - وتولى عدة وظائف ببنك الأراضى المصرى إلى أن صار مديرا للقسم القضائى به - وبعد حياة حافلة بالأعمال الأدبية التى أسهم بها فى تطوير الحركة الفكرية بالإسكندرية أبى نداء ربه فى ٣ من فبراير عام ١٩٥١ م (٣٧١ هـ) بالغا من العمر حوالى ٦١ سنة .

ولقب « شيبوب » الذى تحمله أسرة شاعرنا تحريف للفظة الشؤبوب العربية التى تعنى شدة الحر - والدفعة من المطر - وشدة اندفاع كل شيء - كما تدل على أول ما يظهر من الحسن - وجمع هذه الكلمة « شآبيب » فيقال « هو حسن شآبيب الوجه » .

وزود خليل الأدب العربي بطائفة من قصائده ضمنها الجزء الأول من ديوانه « الفجر الأول » الذي صدر في عام ١٩٢١ م . (١٣٤٠ هـ) ولم يسعفه العمر لينشر ما جادت به قريحته من أشعار بعد ذلك التاريخ - وله مقالات وأبحاث كثيرة نشرت بالجرائد والمجلات .

وعندما تناول الباحثون شعر « خليل مطران » بالدرس والاستقصاء تعرضوا لشعراء التجديد الذين عاصروه أو ساروا على نهجه فيما نظموا من شعر وكان من بين هؤلاء خليل شيبوب - والدكتور محمد زكي أبو شادي - وعبد الرحمن شكرى - وعلى محمود طه المهندس - وقد حالى الباحثون اتجاهات كل هؤلاء الشعراء الفكرية وأشاروا إلى بعض الخصائص الفنية التي يتميز بها قريض كل منهم - وما من شك في أن شاعرنا خليل قد تأثر إلى حد بعيد بصديقه خليل مطران مع وفاته الصادق للذهب الرومانسى الذى أحاط بأنماطه واتجاهاته وخصائصه فيما اطلع عليه من آثار كتابه وشعرائه الفرنسيين طوال أعوام ثقفه بمدرسة الفرير في موطنه الأصيل « سوريا » وخلال الأعوام اللاحقة التي هضم فيها ماضيته كتب الرومانسيين من نثر وشعر عن طريق إطلاعه الواسع الاذق على كل جديد من إنتاج الرومانسيين والمحدثين .

وصداقة خليل شيبوب لشاعر القطرين خليل مطران كانت متينة الاواصر وثيقة العرى - وقد لمست منانها تتجلى في المرات السكيرة التي كان شاعر القطرين يزور فيها الاسكندرية ويجتمع بأدبائها وشعرائها - فكان خليل شيبوب لا يفارقه طوال حلوله يبادله شعرا بشعر وأخبار أدبية وعلمية بأخبارا - وكنت ألمس في تقارب تفكير الشاعرين أقوى دليل على أن كل منهما قد أثر في صديقه وإن كان تأثير مطران على شيبوب أكثر عمقا لأسبقية شاعر القطرين في عراقة الإبداع وحسن الصياغة ومن ثم كان لمطران بعض الفضل في نضوج قريحة شيبوب وفي تغلغل الرومانسية بين جوانحه التعبيرية وتزويد بصيرته الواعية بألوان من التجديد فوعاها واتخذ منها ومن نواحي ثقافته واطلاعه منهلا يردده كلما أراد التعبير عن

أحاسيسه الوجدانية بأشعار يميزه طابعها عن صديقه مطران وعن جميع الشعراء الذين عاصروه.

فصادر إلهامه ومراكز اهتمامه كان مبعثها التغنى بالحياة كما يراها ويمارسها. وبالأماني وما يتطلع إليه منها ولم يصب من هناءتها شيئاً. وبالحب وإن كان قد ذاق مرارة إخفاقه. وبالنجوى التي تسرى عن ضيق صدره في أوقات فراغه إلى نفسه في هدوء الخلوة ووحشة الليل القاتمة. وبالنور الذي ينشر في قرارة نفسه بهجة الضياء. وبالتمطية التي يفزعها ذكرها فتغمر فؤاده الكسير بالغضاضة والشكوى التي تشير في نفسه ألم الحزن والأسى. وكانت كل هذه الوجدانيات المختلفة الاتجاهات النفسية تراكم في وعيه وتفيض جياشة في أعماق سريره فينفثها شعرا رومانسيا رقيقا تهزه الأحزان والآلام والأشجان في عذوبة من الألحان والآلام. وما من شك في أن المذهب الرومانسي قدناسب مزاجه ووافق ظروف حياته وتخلجات مشاعره.

ولقد غزف خليل شبيب على قيثارة شاعريته تلك الأنغام الحزينة وهو يناجي البحر وخريه وأمواجه وشواطئه. والطائر على غصنة يغرد فيطر به التغريد. وعند السكرمان على الصدر الغض. والوردة التي توحى بالأمل وتنمى مشاعر الحب. والمنى التي تجعل للحياة بريقا تلحبه في دياجير الأيام العاتمة. كل هذه الوجدانيات كان خليل يرسلها نغمات يكتنفها الحزن ويغلفها التأمل الفلسفي في غلالة رقيقة نستشف من ورائها أسرار الكون الخفي في شكل صور تكونت في مخيلته من التجارب التي مارسها ومن تصرفات الشخصيات التي اتصل بها. ويصح أن يقال إن رومانسية خليل شبيب الشاعرية تناول الحياة الإنسانية من نواحيها الحزينة المستمدة من الآلام والأشجان وتحللها وتبلورها في أنغام عذبة المعاني حلوة الجرس.

وترن هذه الأنغام في الأذن شجية تبعث الأنسى في النفوس عند ترتيل

الآيات التي ألقاها وهو يقف باكيا على قبر أبيه فيناجيه - وعندما يقرأ القارىء
شعره وهو يذرف الدمع سخيا على الراحلين من أقاربه وأحبابه - وعندما يطلع
القارىء على أبياته التي يشكو فيها دهره لما رماه به من ملهات الحياة وجور الحب أو
يطلع على ما نظمته تحسرا على الشباب الذي ولى ولم يقض منه لباناته ولم يظفر
منه بأوطاره - وكان فى كل ذلك صادقا يعبر عن دخائل نفسه وأعماق سريره فى
صراحة لا يشوبها الزيف - فهو يصف أحاسيس نفسه فى هذه الآيات الحزينة
التي بعث بها إلى صديق حميم يثبته آلامه :

هَيْبَذِي الشَّجُونَ نَظْمَتُهَا
بَيْنَ الْوَسَاوِسِ وَالشُّجُونِ
وَبَذَلْتُ فِيهَا مِنْ دَمِي الْغَا
لِي "وَمِنْ" دَمْعِ الْمَصُونِ
آيَاتِ حَزَنِ نَظْمَتِ
هَا الْجَارِيَاتُ مِنَ الشُّيُونِ
نَزَعَاتُ يَأْسٍ كُلُّهُنَّ
كَأَنَّهُنَّ مِنْ الْجُنُونِ
بَدَهَاتُ أَفْكَارٍ لَهَا
قَدْ كَانَتْ أَوْ مَا قَدْ يَكُونُ

إلى أن يقول :

هَيْبَذِي الشُّجُونَ بِكُلِّ مَا
فِيهَا مِنْ الدَّمْعِ السَّيِّئِينَ
جَاءَتْكَ تَعْلَمُ أَنَّ فِيكَ
لَهَا عِزَّةً الْيَاسِينَ

فاحرصْ عليها إنَّها

قطْعٌ من القلبِ الحزينِ

واعْذُرْ أخاكْ وَكُنْ لَهُ

في الناسِ خيرَ أخٍ أمينِ

وتطرق الآن إلى ذكر شيء عن المذهب الرومانسي لأبين بعد ذلك مدى تأثير شاعرنا باتجاهاته فيما نظم من قصائد .

فإبان النصف الأول من القرن التاسع عشر قامت حركة فكرية تدعو إلى توجيه الأذهان إلى أساليب جديدة للإنتاج الأدبي والفني وإلى خالق مفاهيم أخرى غير تلك التي تفرضها المدرسة القديمة للمذهب الكلاسيكي - وعلى هذا الأساس أخذ دعاة المذهب الرومانسي في نبذ المبدأين الجوهريين اللذين يتميز بهما المذهب الكلاسيكي وهما تقليد القدماء والمحافظة على القواعد التي يسير عليها هؤلاء المفكرون القدامى - ومن ثمَّ نادى دعاة المذهب الرومانسي الجديد بانطلاق الفكر الأدبي والفني وتحريره من كل القيود التي تعوق تقدمه إلى أبعد الآفاق ليخلق طليقا قدر استطاعته على التحليق .

فالآداب اليونانية والرومانية تُركت بعد أن ظلت ثلاثة قرون تمد الكتاب والشعراء الفرنسيين بمعظم الموضوعات التي كانت المصدر الأساسي لما أنتجوا من كتب ودواوين - واهتم المفكرون الرومانسيون بأن تكون اللغة الفرنسية غنية بمتراذفات وأنها تكون طيعة لإظهار التعبيرات والانطباعات الإنسانية والحلجات النفسية على كل المستويات التي يجيش بها فؤاد الكاتب أو الشاعر أو الفنان - وقد نتج عن ذلك أن صار النظم أكثر انسجاما في نغماته والشعر أكثر ميلا إلى الصدق وأكثر انفعالا بالوجدانيات والأحاسيس .

ولقد سبق الرومانسيين في القرن التاسع عشر بعض المفكرين في القرن الثامن عشر - « فدييرو Diderot » قدم بعض النظريات المتعلقة بفن التمثيليات -

« وجان جاك روسو J. J. Rousseau ، ابتدع فن الوصف الوضّاح اللامع السرد - وشرح الأسرار المثيرة العاطفية - وحب الطبيعة ومباهجها على غرار ما فعل برناردان دي سان بيير » - كما كان « أندريه شينييه André Chénier » في مقدمة من أبرزوا التعريف الصادق بالحماس الشعري .

وفي القرن التاسع عشر نفسه غدى « شاتوبريان Chateaubriand » شعور الكتابة الحاملة بما نظم من قصائد كما هدى الكتاب والمفكرين إلى طرق التعرف على المناظر الطبيعية بالإدراك الواعي الصحيح الذي يضعها أمام أعينهم حيّة تبهر الأنظار - ومدام « دي ستاël Mme de Staël » وجهت الأذهان إلى دراسة الأدب الألماني لينهل الكتاب والشعراء من منابعه . ومن ثمّ بدأ الرومانسيون في التعرف على الآداب الأجنبية فدرست من ألمانيا أعمال « جوته » - وشيلر - وليسنج - وفردريك - وغليوم شلوجيل - كما درست من الإنجليزية أعمال « شكسبير » - ولتر سكوت - ولا سيما « بيرون » ، ومن أسبانيا أعمال « لوب دي فيجا » ، ومن إيطاليا أعمال « منزوني » .

ويعدّ المذهب الرومانسي ثورة فكرية كانت تتمتع للثورة الاجتماعية والسياسية الفرنسية فغيرت تغييراً جذرياً جميع أساليب التفكير القديم وكذلك المشاعر الناتجة عنها - وقد بدأ هذا المذهب في الظهور خلال القرن الثامن عشر وكان من رواده « جان جاك روسو - ومدام دي ستاël - وشاتوبريان » كما تقدم القول - وأقوى عنصر يميز هذا المذهب هو سيطرة العاطفة والخيال على العقل أي أنه لم يبرز لشخصية الكاتب والشاعر والفنان في كل إنتاجه الفكري وهو بهذا الوصف الإحساس بالطبيعة وإحلال الشعور الخاص محل الشعور العام وبعث الشعر الحماسي العاطفي من سبانه والنمذ النهائي للتقواعد البالية والأساليب القديمة .

وتجسد المذهب الرومانسي بالنسبة إلى الشعر في أربعة من فحول الشعراء

الفرنسيين هم : لامرتين - والفريد دي فيبني - وفكتور هوجو - والفريد دي موسيه .

وليس من شك في أن « خليل شيبوب » قد أخذ بهذه العناصر المميزة للشعر الرومانسي وهي تظهر جلية في معظم قصائده التي تغنت بالمشاعر الوجدانية الموضحة قبل - ويتبنى هو أن الشاعر الفرنسي « دي موسيه de Musset » كان رفيق خياله وصديق انفعالاته القلبية وأنيس وحدته حينما كان يخلو إلى نفسه ويداعب أوتار قيثاره ليترنم بها أبدع من شعر حزين الحواشي رقيق المعاني عذب الجرس .

ولست أغالى إذا قلت أن قصائد « موسيه » التي ضمنها مجموعة « الليالي » كانت أقوى ما أثر على خليل شيبوب من شعر هذا الشاعر الفرنسي - لأنه ينفث فيها آلامه ورفضه الاستجابة إلى دعاء شياطين الشعر بأن يغنى - فهو في ليلة شهر مايو - التي نظمها عام ١٨٣٥ - يرفض إطاعة الإيحاء بأن يقول شعراً بعد انفصاله المحزن عن « جورج ساند Georges Sand » وهو الاسم المستعار لحبيبته التي كانت تكبره بعشر سنوات - ويعزو هذا الرفض إلى الحزن العميق الذي يستولى على قلبه - وفي قصيدة الليلة الثانية وهي ليلة ديسمبر عام ١٨٣٥ يظهر ألامه غريب يرتدى ثوباً من الخجل الأسود ويعرض عليه أن يواسيه وفي قصيدة الليلة الثالثة - ليلة أغسطس عام ١٨٣٦ يغنى الشاعر اللذة - وفي قصيدة الليلة الرابعة - ليلة أكتوبر عام ١٨٣٧ يعرف الشاعر ما هو ثمن الآلام ، ويقدرها - بحق قدرها .

وفي شعر خليل شيبوب ما يشبه قصائد هذه الليالي الموحشة التي نظمها الشاعر الفرنسي « موسيه » وأبدى فيها كبرياءه الأبية - ففي ديوان خليل ما يظهر الكبرياء التي لا تركز إلى العنف والتي تخبر عن طوية بعيدة عن العنصرية المتعجرفة التي لا تعرف الجوراة أو اللين - فهو إذا وجه اللوم إلى من أحب بعد أن أسرفت في هجره

يقول لها في عام ١٩١٩ يعاتبها على صدها ولكن في غير عنف - ويترك أمامها أبواب العودة إلى الصفاء مفتوحة إذا أرادت إزالة أسباب الجفوة دون أن تجرح كبريائه :

وَدُمْتَ عَلَيَّ ضَلَالِكْ لَمْ تُبَالِي
تَظُنُّنِي خَلِيقًا بِالْخُضُوعِ
لَكُنْتُ خَضَعْتُ لَوْ أَبَدَيْتَ شَيْئًا
'يُقَالُ لَهُ 'مَبَادَاةُ الصَنِيعِ
أَبَتْ لَكَ كِبْرِيَاءُكَ غَيْرَ ذُلٍّ
وَلَانِي مَا طَبِيعْتُ عَلَى الرُّكُوعِ

ويؤكد لها في عام ١٩٢٠ أن الهجر لن يحطم كبريائه وإن كانت هذه الكبرياء لا تعرف القسوة وتجنح إلى العفو متى كان هناك أمل في أن يؤدي هذا العفو إلى صفاء القلوب وعودة المياه إلى مجاريها فينشدها :

حَسِبْتُ فِي الْهَجْرِ أَنِّي
لَا شَكَّ فَنَاقِدَ لُبِّي
نَعَمْتُ فَقَسَدْتُ وَلَكِنْ
وَجَسَدْتُ عَقْلِي وَرَبِّي
مَا كُنْتُ أَمْلِكُ إِلَّا
قَلْبِي وَمَا مَاتَ قَلْبِي

وفي هذه الآيات الستة سياق ينم عن الحسرة والالام لفراق الحبيبة التي تبغى إخضاعه بصلفها ويأبى بكبريائه أن يركع أمامها ، ثم يجد المواساة في أنه وجد عقله وآمن بقدر ربه ويجد العزاء كل العزاء في أن قلبه ما زال حيا لم يحطمة الهجر

والصدود — وكل هذه الحاجات النفسية نجدها في ليالى « موسيه » الذى يحزن دون أن يذله الحزن ثم يجد المواساة ويعود إلى لذة الحياة ويعرف بعد ذلك ثمن الألم النفسى دون أن ينهار لإزاء وطأته .

والواقع هو أن شاعرنا لم يقطع مراحل الحياة منتقلا من روضة إلى بستان ولم يمارس عيشة تحفها الورود والرياحين ، فقد كان يقوم بواجب الأخوة فى صبر طال أمده يشاركه فى تحمل أعباء الحياة المادية أخوه المرحوم صديق شيبوب الذى فارق الدنيا وهو يترجم ويؤلف ليسد مطالب المعيشة مفضلا العزوبة على الزواج ليهيئ لأخته العانس حياة كريمة — وقد أدى هذا الواجب الإنسانى معه خليل وكان لدى الأخوين البرين أختان — فلما تزوجت صفراهما أقدم خليل على الزواج وكان فى السنوات الأخيرة من كهولته — ومن ثم لم ينعم بالحياة الزوجية الرغبة إلا مدة غير طويلة — وأظن أنه لم يقدم على الإنجاب خشية ألا يمكنه العمر من رؤية ذريته وقد استطاعت أن تشق طريقها فى خضم الحياة تحت رعايته وحنانه وحنان زوجته التى لم تأل جهداً فى إسعادته قدر طاقتها لتبادهلها حبا بحب .

ويقينى هو أن ما عاناه « لامرتين » من ألم لفقد ابنته ببيروت عام ١٨٣٢ وقد تجاوزت العاشرة من عمرها — وما قاساه من حرمان الفاقة فى شيخوخته مما اضطره لمصارعة الفقر طويلا وبيع لإنتاجه الأدبى طوال أربعة عشر عاما لدفع ما عليه من ديون — وما ابتلى به « فكتور هوجو » من نفي وتشريد مدة ١٨ عاما بمدينة بروكسل فى بلجيكا وفى جزيرتى « جرزى — وجرزى » — وتغربه عن فرنسا مرة أخرى لرفضه العيش فى ظل حكم غير جمهورى فكانت مدة بعده عن الوطن حوالى ٢٥ عاما من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٧٥ — أقول أن ما لقيه هذان الشاعران الرومانسيان من عنت وإخفاق وألم وفاقة كان له أثره العميق فى روح خليل شيبوب المعنوية لأنه لقي فى حياته ألوانا من الألم والمرض ما جعله ينفث هذا التأثير أنات حزينة من قلب موجوع فيقول لمن لا يرضيهم حزنه وتوجعه المستمر لحاله ويريدون الوقوف على خبيثة نفسه ليعرفوا مبعث هذا الحزن القائم

في قرارة فؤاده ويرد على حيرتهم من أمره بهذه الآيات التي تخبر عن مدى
أساه ومبلغ شجونه :

مَاذَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنِّي
إِنْ كُنْتُ قَدْ أَكْثَرْتُ حَزَنِي
أَفْنَيْتُ عَمْرِي فِي الْبَكَاءِ
وَفِي الرَّجَاءِ وَفِي التَّمَنِّي
ذَهَبَ الشَّبَابَ وَمَا مَسَلَا
تَ بِسُورِهِ قَلْبِي وَجَفْنِي

والواقع هو أن خايلا لم يملأ عينيه بنور الحياة الساطعة الضياء فتصى شبابه
ورجولته يصارع الحياة وتصارعه ليعيش كريها وليهيء لاختيه حياة نظامها
الهناء في كنفه وكنف أخيه - فإذا تزوج وقد بلغ نهاية الكهولة انتابته الذبحة
الصدرية التي لا ترحم - وما زال يعاني ألمها ويشقى باستمرارها في حنايا صدره
حتى جاء يوم عيد رأس السنة الميلادية ١٩٥١ - فلم يرحم مرضه وأرار أن يسعد
بهذا اليوم بين ذويه وخلانه وإذا بمرحه يرتد عليه قاسيا وإذا العلة تزداد تفاقمها
وإذا روحه الطاهرة تصعد إلى بارئها في الثالث من فبراير مؤمنة بقضائه باسمه في
سخريه لهذه الدنيا التي لم تنصفه ليحظى بها هو جدير به من سعادة وارفه
الظلال مخضرة الجوانب .

وهذه الشكوى المريرة التي نستشفها من خلال هذه الآيات الستة البائسة تجد
ما يماثلها في اعتراف الشاعر الفرنسي « موسية » في أواخر أيام حياته القصيرة
بأنه فقد كل شيء وأن خير ما بقي له في هذه الحياة الدنيا هو أنه ذرف الدمع من
عينيه بعض مرات - وفيما يلي ترجمة أبياته في هذا المعنى المجلل بالسواد :

لقد فقدت قوتي وحياتي

وفقدت أصدقائي ومرحى

وفقدت حتى الفخر

الذى كان يحمل على الظن بعبثي

والإله يتكلم ولا بد من الرد على كلامه

فالمتعة الوحيدة التى بقيت لى فى هذه الدنيا

هى أننى استطعت البكاء بعض مرات

هذه هى نفسية الشاعر الفرنسى « موسية » وتلك هى نفسية شاعرنا خليل
شيبوب وما تتطوى عليه النفسيتان المعذبتان من حزن مكبوت وألم متغلغل فى
حماطة القلب .

وأول معرفتى بخايل شيبوب كان فى عام ١٩٣٢ عندما أرسلت الدعوة إلى
كثير ممن يمتون الأدب بصلة بغية لم شمامهم فى منظمة غايتها الإسهام فى رفع المستوى
الثقافى بالأسكندرية بقدر ما يسمح به إنتاجهم الأدبى .

ولقد لبى الدعوة نحو الثلاثين كان منهم شاعرنا خليل الذى عرفت مكانته
الأدبية من الترحيب الذى قوبل به من جميع الحاضرين - وإذا بى إزاء رجل
يتسم بالتواضع السمع وتدل ملامحه وهيئته على ما تتطوى عليه نفسه من كرم
الأخلاق ونبل السريرة .

وعندما أجمع الحاضرون على أن يتولى رئاسة الاجتماع تجلى تواضعه فى أول
اقتراح قدمه إذ قال : إننا نريد لمنظمتنا أن تبدأ بعنوان يدل على أنها فئة قليلة
لتصير بأعمالها وليس باسمها كبيرة الشأن فى المجال الثقافى - ومن ثم كان لها الاسم
الذى اقترحه وهو « جماعة نشر الثقافة » وقد أختير خليل رئيساً لها فى ذلك
الاجتماع نفسه .

ومضت الأعوام وتوثقت عرى الصداقة بينى وبينه - فإذا بى أتعرف على

سجايه وأؤمن بأن هذه السجايه التي تأخذ منبعها الصافي من أعماق قلبه قد دونت
أصدق تدوين في الجزء الأول من ديوانه « الفجر الأول » فظهر في مرآة هذا
الجزء واضح القسمة تحيط به حالة تجاور ما ضبعت عليه نفسه من مبادئ قويمه
ولقد بين إتمام ديوانه دخيلة هذه النفس فقال في مقدمته .

وكنى بالشاعر بؤسا أن يرمى بقلبه إلى الناس وأن يطرح بين يدي الجمهور
خاصة دخيلته يفسدها عليه ذور النيات المبهمة والغايات المنهمة حتى ليضلونه عن
صواب ويژهذونه في يومه وأمسه .

وبما طرحه بين يدي الجمهور من متاعره وأحاسيسه لمست فيه - إبان التسداقة
المتينة التي ضمتنا والتي دامت حتى إكيتته يوم أن لاقى ربه . التمسك بعروبته
والإيمان العميق بالله والتمسك المبني على التسامح وحب الخير للناس والكبرياء
غير المشوبة بالصلاف وبغض اللؤم والنفاق والخذل والإخاء النقي والزهد في الحياة
لما أصابه من إخنفاق وما لا حقه من مرض .

أما عروبته فتد برهن على فيضها الغامر في فؤاده بإصداره كتاب « المعجم
القضائي » في سنة ١٩٣٧ م (١٣٥٦ هـ) وإعادة طبعه مزيداً في سنة ١٩٤٩ م
(١٣٦٩ هـ) مسها بذلك بنصيب إيجابي مرموق في تعريب المحاكم المختلطة - وفي
مقدمة هذا المعجم القيم لم يغفل خليل التتويه بفضل اللغة العربية - لغة آباءه
وأجداده العرب الخالص فيقول: « بيد أن اللغة العربية حتمت بشروع من الشرح
القضائي لا يتعدى الموضوعات الفقهية المعروفة فزخرت كتبها بالتعبيرات الأسمية
والقوالب التالدة والطريقة حتى أن المطالع لا يبرح مفتون اللب من مرونتها على
تصريف أدق المعاني واتساعها للإعراب عن أيسر خطمات المخالفات والموافقات »
- وفي هذه العبارات ما يدل في وضوح على تقديره العظيم للغة العربية لغة
أهله وأحبابه .

وخليل رجل يؤمن بالله ويطرد من قرارة نفسه عوامل الشك في قدرته

الربانية - ويرى أن عباده المخلصين هم الأحرار الذين يستحقون رضاه بالعمل الصالح لينالوا أحسن الثواب على ما قدمت أيديهم من خير وإحسان فيقول :

هَلِ النَّاسُ وَالْأَفْلاكُ وَالصَّبْحُ والدُّجَى
وهَلِ - جوةُ الإنسانِ والجَاهُ والفَخْرُ
سِوَى عُضَيَاتٍ إِنْ تَوَخَّيْتُ نَحْلَهَا
وَرَدْتُ وَبَى أَمْرٍ وَعُدْتُ وَبَى أَمْرٍ
وَأَدْرَكْتَنِي شَكٌّ بِأَنْتَكَ كَائِنٌ
وَهَمْتُ بِوَادٍ مِنْ مَعَارِجِهِ الْكَثِيرِ
وَلَكِنْ إِيْمَانًا بِقَلْبِي مُوْطِئًا
يُرْثِدُ جَمَاحَ الْفِكْرِ إِنْ جَمَحَ الْفِكْرُ
أَلَا حَبِئَذَا الْعَبْدُ الَّذِي أَنْتَ رَبُّهُ
وَمَا الْعَبْدُ مِنْ وَالَاكَ لَكِنَّهُ الْحُرُّ
وَطُوبَى لِمَنْ يُرَضِيكَ فِعْلًا فَيَقْتَنِي
رِضَاكَ لَهُ كَنْزًا وَأَنْتَ لَهُ دُخْرٌ

وتتم هذه الأبيات عن تصوف صافي الينبوع لا يقل في نقائه عن شعر كبار المتصوفين على مر الأجيال المنصرمة

وشاعرنا له فلسفته المبنية على التسامح النبل والدعوة إلى الوئام الذي يجب أن يسود العالم في عتميدته - ولذا فهو يتألم لما يراه في كثير من القلوب من قسوة وغلظة ويلزمه الألم وتشقى به نفسه المرهقة الحس والوجدان فينشد :

لَقَدْ خُلِقْتُ بِعِضِّ النَّفْوِيسِ طَمُوحَةً
إِلَى النُّورِ إِنْ تَفَقَّدَهُ لَنْ تَتَمَتَّعًا

وَيُؤْلِمُهَا فِي حَبِّهَا بِمَسَائِلِهَا
 مِنَ النَّاسِ إِغْلَاقُ الْعُقُولِ تَمْنَعُهَا
 وَإِظْلَامُ أَحْسَاسِ الْقُلُوبِ صَلَابَةٌ
 فَلَسْتُ تَرَى فِيهَا إِلَى الدَّالِّينِ مَوْضِعًا
 إِلَّا إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَشْتَقِي بِبَعْضِهِمْ
 وَأَشَقَّاهُمُو مُسْتَوْعِبٌ مَا بِهِمْ وَعَى
 وَمِنْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ الْخَيْرَةُ تُمْسِكُهُ بِالْمُبَادِيءِ الْقَوِيْمَةِ لَا يَحِيدُ عَنْهَا وَلَا يَرْضَى
 بِهَا بَدِيلًا وَلَا يَفْرُطُ فِيهَا بِأَيِّ غَالٍ أَوْ ثَمِينٍ - وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :
 لَحَى اللَّهُ مَنْ بَاعَ الْضَمِيرَ بِدُرْهَمٍ
 وَأَثْمَنَ مِمَّا بَاعَ فِي الْقَدْرِ دُرْهَمٌ
 وَمَا عَرَضُ نَفْسِ الْمَرْءِ إِلَّا ضَمِيرُهَا
 إِذَا كَانَ عَرَضُ الْجَسَمِ مَا أَنْتَ تَعْلَمُ
 فَأَفْهَمُ عَرَضُ الْجَسَمِ يُبَدَّلُ وَاصِلًا
 إِلَى عَرَضِ الْحُسُونِ مُتَجَسِّمٌ
 وَلَكِنْ عَرَضُ النَّفْسِ يُبَدَّلُ ضَائِعًا
 فَذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ مَا لَسْتُ أَفْهَمُ
 وَيَقُولُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ نَفْسُهَا مَبْدِيَا رَأْيَهُ فِي الصَّدِيقِ الْوَفَى الَّذِي يَغْنِيهِ عَنْ كُلِّ
 شَيْءٍ وَيَسْلِيهِ وَيَعِينُهُ عَلَى صُرُوفِ الدَّهْرِ - وَتَوْضِيحُ أَيْبَاتِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَبْلَغُ حُبِّهِ
 لِلنَّاسِ فِي إِخْلَاصِ مَتْنٍ وَإِخَاءٍ يَتَسَمَّى بِالصَّفَاءِ الرُّوحِيِّ النَّاصِعِ الْبَيَاضِ :
 قَنَعْتُ مِنَ الدُّنْيَا بِخَلٍّ وَذَادُهُ
 صَمِيمٌ بِهِ يَجْرِي وَيَمْتَزِجُ الدَّمُ

غَدَا سَلَوْتِي إِذْ لَمْ أَجِدْ لِي سَلْوَةً
 وَغَنِمِي الَّذِي أَصْبَحْتُ فِي الْعَمْرِ أُغْنِمُ
 رَضِيتُ بِهِ حِصْنًا عَلَى الدَّهْرِ قَائِمًا
 وَلَأَنِّي لَهُ حِصْنٌ عَلَى الدَّهْرِ أَقْوَمُ
 هُوَ الرِّزْقُ مِنْ رَبِّ كَفِيلٍ وَلِأَنَّهَا
 مِنْ اللَّهِ أَرْزَاقٌ عَلَى الْخَلْقِ تُقْسَمُ

ومن فلسفته في الكبرياء غير المشوبة بالصلف هذا البيت الذي قاله في شأنه
 خصه بالشتائم فأبدى له الترفع عن مجاراته في السب واستعاض عن ذلك
 بالاحتقار :

أَبْلَغُونِي أَنَّهُ يَشْتَمُنِي
 أَبْلَغُونِي أَنَّنِي أُحْتَقِرُهُ

وليس في قلب الشاعر خليل شيبوب سوى بغض واحد لا يتسامح في إظهار
 مقتته له ومحاربتة في غير هواة - وهذا البغض القوى الجامح هو بغض اللؤم
 والثناء والنفاق والمنافقين والغدر والغادرين - ولذا كان يرى أن العصر الذي يحياه
 عصر ظلام وليس عصر نور كما يقال في وصفه - وإلا كيف يكون عصر نور
 واللؤم والخداع والغدر من أقوى العناصر التي تطغى عليه ؟ إن خليل يصور
 ما يعتل في وجدانه من حسرة لطغيان هذه العناصر الشريرة الخبيثة على عناصر
 الخير فينشده :

وَقَالُوا إِنَّ هَذَا الْعَصْرَ نَوْرٌ
 فَهَلْ نَسِلِمَتْ مِنَ اللُّؤْمِ الطِّبَاعُ ؟
 أَوْ انْجَابَتْ غَيُومُ الْيَغْسِ يَوْمًا
 فَتَلَحَّ الصُّبْحُ وَابْتَسَمَ الشُّعَاعُ ؟

وهَلْ سَادَ الْوَفَاءُ وَمَاتَ غَدْرُ

وَزَالَ الشُّكُّ وَانْحَسَرَ الْقِنَاعُ ؟

وإِلَّا مَا الَّذِي يَدْعُونَ نُورًا

وَبَيْنَ عَنَاصِرِ الدُّنْيَا صِرَاعُ

ثم يشكو ما يلبسه في الناس من طباع سيئة تأبأها نفسه الحيرة ومن ملق
يعف عنه لسانه ومن ابتعاد عن الإخاء والصدقة وهما غذاء قلبه ومنتهى أمله في
الحياة فيقول :

واقمتُ خلقاً كلُّ أمره ————— مُم التَّسَارُعُ والخصامُ

لا يفهمونَ لعيشهم معنى التَّجَامُلِ والوثام

فُطِرُوا كَمَا فُطِرَ الْيَكْبَاشُ عَلَى التَّطَاحِ والصدام

قرأيتُ آمالي شعاعاً طارَ في ذاكُ الزَّحَامِ

وعلمتُ أنَّ سَعَادَةَ الدُّنْيَا مُصَانَعَةُ الْإِنَامِ

وَأنى لى الطَّبَعُ النِّزِيَّةُ مودةَ الْقَوْمِ اللَّامِ

فكأنَّنى فى النَّاسِ جزءٌ مَا لَهُ يَمُومُ التَّشَامِ

ولكن هذا البغض للخصال الذميمة الذى يستولى على عواطفه الرقيقة لا يدفعه
إلى إظهاره جاحداً يؤدى إلى خروج الحليم عن جادة الصواب وكظم الغيظ - فكم
من مرة رأيت صديقى الراحل يلقي بالصحنون الصغيرة لتتناثر قطعها المفتتة على
الأرض - وكنت أدرك دائماً سبب هذا الانفعال النفسى المكبوت - فهو ردُّ
صامت على لؤم بدر من إحدى النفوس المليئة بالحقد. أو استهجان لنفاق لوحظ
فيما تطرق إليه حديث الحاضرين - وهذا كل ما كان خليل يستطيع صنعه لينفس
عما فى صدره من كراهية للحقد والنفاق ولؤم الطباع وخسة الأخلاق - ولقد عبر
عن هذه المجالات التى يشوبها ما يبدر من بعض جلسائه من زيف ولؤم بقوله :

استقنيتها مثل الضياء لاجل
 عن فؤادى الهموم كالظلمات
 لأننى ضاحٍ وقلبي باك
 ودموعى قد ما زجت ضحكات
 إن وقت الأصيل يبعث بالذك
 رى شجوناً ثقيلاً الوطنيات

وكما فعل صنو روحه المعذبة الشاعر الفرنسي الرومانسى «موسيه» فى ربط
 ملكة الشعر بالآلم النفسى كشف خليل عن العلاقة الوثيقة التى تصل الشعر بما
 يعانى به الوجدان، من الآلام الخفية الكامنة فى أعماق الشعور فيقول :

أنظم الشعر سلوا	لهوم تتجدد
كل لفظ دمة	تجرى على عمرى المبدد
كل حرف قطرة من	دم قلوبى تتفصد
كل معنى حرقه	الأنفاس فى صدرى تصعد
هيكذا اليوم إلى الدهر	بشعرى أتودد

وكان من الطبيعى أن يطيل خليل - الشاعر الرومانسى الأسكندرى - النظر
 إلى البحر وأن يكون لصفحته وأماوجه وشواطئه مكان واضح فى إلهامه ومشاعره
 - فقارىء ديوانه يحس أن البحر كان صديق عزلة المفضل يجلس إليه فيناجيه
 ويستمد منه وحى أشعاره - ومن قصائده التى سجلت هذه الصداقة المتينة التى
 ربطته ببحر الأسكندرية فى هدوئه وغضبه يثته شكواه ويخبره بدموعه وأنساب
 قابه قصيدته الرصينة بعنوان البحر ... التى تقول فى مطلعها :

جلستُ وجفنتى جاريات سواكبه
إليه أشاكيه الأبي وأتائبه
وأسأله عن سائلات مدامعى
وما الدمع إلا خيرُهُ ومواهبهُ

وبعد أن يتحدث إليه كأنه حسن ما يكون حديث الصديق الوفي إلى صديقه - وبعد
أن يمشد عنده راحة قابله المستهام ويأتى على وصفه ساكنا تفيض بأنوار البدور
مناكبه وترى الكواكب مناظرها الجميلة في صفحته كما ترى الشمس بهاءها الوضاح
في زرقته الفاتنة يتطرق إلى وصف غضبه وهياجه وصفاً بديعاً فيقول
له مخاطباً :

ولكن إذا ما ثار قلبك حاقدا
عليها وهذا الماء جاشت غواربه
زخرت كأن الضاريات زئيرها
علا وصداد من بعيد يجاوبه
وهيجت وهاج الكون حولك ناقدا
يفتاضبك الدنيا وأنت تغاضبه
وأبرق هذا الجو يرسل سخطه
غيوما كما أربدت بابل غيابه
أثار عليك الراعيات فأطبقت
وأطبقت كل ثارات كتائبه
نهضت بموج كلما كركرة
علا وترامى سيله وضرائبه

تَشْنُ عَلَيْهِ غَارَةً لَمَّا تَرَى غَارَةً
فَطَوْرًا تُرَاخِيهِ وَطَوْرًا تُجَاذِبُهُ
وَنَازِلَتَهُ مُسْتَهْزِئًا بِسَيُولِهِ
تُطَاوِلُهُ مُسْتَبْسِلًا وَتَوَائِبُهُ
فَأَتَعَبَيْتَهُ حَتَّى اسْتَرَدَّ جِيوشَهُ
وَعَادَ وَبَاذِيهِ مِنَ الذُّلِّ غَائِبُهُ
وَأَرْسَلَ هَذِي الشَّمْسَ تَطْلُبُ هُدْنَةَ
إِلَيْكَ - وَرَبُّ الْحَسَنِ تَقْضِي مَطَالِبَهُ
فَعُدْتُ إِلَى مَا أَنْتَ : وَجْهَكَ ضَايِحُكَ
وَنُورُكَ رَقَرًا وَمَاؤُكَ شَارِبُهُ

وفي هذه القصيدة الرائعة السياق يخال القارئ أن البحر رجل عملاق شديد
المراس مريع الغضب إذا نار لا يغابه غالب وأن الشمس غانية حسناء تأتيه
فتتكسر حدة غضبه لإزاء بهائها ويقبل وساطتها ويعود إلى سكونه لتتفرج أسارير
وجهه وتعلو الابتسامة العذبة شفتيه - وفي كل هذا السياق وصف رومانسي جزل
يشد القارئ إليه شداً فلا ينقطع عن قراءة باقي القصيدة حتى يصل إلى نهايتها
على الرغم من طولها خير المثل لما اشتعلت عاينه من سعة الرواق واتساع أفق
الخيال وجمال الوصف والتصوير .

وفي ديوان خليل قصائد أخرى في وصف البحر ومناجاته - ففي إحداها
يصور البحر على أنه مرآة الحياة إذ هو مشابهاً في اتساع المدى والابعد وهو على
غرارها يصفو مرة ويكدر مرات .

وفي قصيدته بعنوان « على شواطئ الاسكندرية » يسرد نظرة من نظراته
التأملية التي يحفل بها ديوانه فيختم هذه القصيدة بالآيات التالية :

يا بحر إنَّ العمرَ همٌّ دائمٌ
بِتَعَارُفٍ وَتَبَاعُدٍ وَتَدَانٍ
أنتَ الزمانُ وكلُّ عمرٍ قطرةٌ
هَيْهَاتَ تَنْفَعُ غَاةَ الظَّمَانِ
والنفسُ مثلُ شواطئٍ ممتدةٍ
رُؤُودُهُنَّ عَوَاطِفُ الْإِنْسَانِ
والقلبُ لجتكَ السَّحِيقَةُ إِنِّهَا
مرسى القرارِ ومنبعُ الطغيانِ
أما الحياةُ - وأنتَ رَمُزُ وجودِهَا
فَلَمَّهَا إِلَيْكَ جَوَاذِبٌ وَمَعَانِي
يا بحرُ زِدْ وانْقُصْ فَإِنَّكَ مِثْلُهَا
فَتَانٍ وَمِثْلُكَ كُلُّ شَيْءٍ فَتَانِي

فهل بعد هذا التصوير سياق أجمل من سياق هذه الأبيات في فلسفة علم النفس الروحاني التصوفي الذي يذهب إلى الرمزية الجادة التي تصور النفس البشرية وحياتها أبدع تصوير في إطار فاسفي محكم الاضلاع ؟ ألا إن خايل شيبوب كان بارعا في هذا الوصف الرمزي الاخاذ .

على أن شاعرنا لم يقتصر على هذه القصيدة في الإفصاح عن نظراته الفلسفية بجانب البحر بل استمد ناحية من نواحي فلسفته الرصينة الرحيمة التي تخضع لإرادة الله وقضائه من هذا البحر رفيق حياته وخايله العزيز فيصور الناس كما سماه يا كل كبيرها صغيرها ويشبه أعمارهم بأعماقه بعدا في الغور وقربا - ويشبه أيام عمرهم بأواجهه المسرعة في الغدو والرواح فيقول :

وسَلَطَ هُوجَ الرِّيحِ عَلَيْهِ
وهُوجَ الخُطوبِ عَلَيْنَا بِبَاعِنَا
فَنَحْنُ كَأَسْمَاكِ فِي الْوُجُودِ
يَغُولُ الْكَبِيرُ الصَّغِيرُ ابْتِلَاءَا
وَأَعْمَارُنَا كَقَرَارَاتِهِ انْخِفَا
ضَا إِذَا اخْتَلَفَتْ وَارْتِفَاعَا
وَأَيَّامُنَا مِثْلُ أَمْوَاجِهِ
تَجِيءُ سِرَاعًا وَتَمْضِي سِرَاعَا

ولم يكن خليل شغوفاً بالحياة سانة في ذلك شأن كل شاعر مرهف الحس
عزيز النفس ولا سيما إذا لاحقه الإخفاق في بعض نواحي المعيشة وألح عليه
المرض وأضناه . وفي الآيات الآتية ما يشف عن هذه الروح المعذبة التي تتسالم
في صبر وتبث الشعر شكواها وتخصه بنجواها - والشعر خير متنفس للنفوس
الكبيرة المتأللة :

مَبَاسِمُ سَعْدٍ فِي ثُغُورِ غَضِيضَةٍ
مَحَاهُنَّ لَيْلٍ بِالْخُطُوبِ تَوَالِي
تَرْكَنَ بِأَحْشَائِي قُنُوطًا عَلَى الْمَدَى
تَحَوَّلَ دَاءٌ فِي الْفُؤَادِ عُضَالَا
فَنِّ كَانَ تُغْرِيه الْحَيَاةُ فَإِنِّي
تَحَمَّاتُ أَعْبَاءِ الْحَيَاةِ ثَقَالَا
إِذَا طَمَحَتْ نَفْسِي إِلَى السَّعْدِ إِنَّمَا
لَتَعْلَمُ أَنَّ السَّعْدَ عَزٌّ مَنَالَا

فإذا علم أن شاعرنا نظم هذه الأبيات في عام ١٩١٤ اتضح أن الشعور بالشقاء استولى على وجدانه وهو في الحلقة الثالثة من عمره وقد داهمته أعباء الحياة وواجباتها المضيئة التي وقعت على كاهله وكاهل أخيه المرحوم صديق شيبوب وكان لابد أن يقوم بها في صبر تحتمه الرجولة نحو ذوى القرى وتفرضه العروبة على بنيها الذين تغمر قلوبهم النخوة والشهامة ويحيطون عروضهم بسياج متين يحميها من كل ضير أو عوذ .

وفي عام ١٩١٥ أظهر خليل تبرمة بالحياة وقسوة تكاليفها فاحتضن قيساره وأنشد هذه الأبيات بعنوان الهارب :

أهراً بالناسٍ إنهم خلُقوا
شُعْثَ النَّوَاصِي لِلْأَكْلِ وَالشَّرْبِ
أَحْمَلُ قَلْبِي عَلَى يَدَيَّ فَإِذَا
جَدَّ بِي الضَّعْفُ بِتُّ مِنْ تَعْبِي
مَاذَا عَلَى الْمَرءِ أَنْ يَمُوتَ إِذَا
عَاشَ بِلَا غَايَةٍ وَلَا أَرْبِ

وفي عام ١٩١٦ يضيق بالدينيا . ويتمنى الموت ويقول في قصيدة عنوانها الراحة :

لَقَدْ أَتَعَبْتُكَ الْحَادِثَاتُ وَأَجْهَزْتُ
عَلَيْكَ وَلَا خَيْرَ بِهِنَّ وَلَا شَرَّ
سَوَى ضَيْقِ صَدْرٍ أَثْقَلَتْكَ هُمُومُهُ
وَأَنَّ اللَّيَالِي لَا يَحِيطُ بِهَا الصَّدْرُ

وَأَنْتَ عَالِي الْأَيَّامِ نَفْسُ رَاحَةٍ
فَيَا جَاهِلِ الْأَيَّامِ رَاحَتُكَ الْقَبْرِ

أو ليس في هذه الأبيات البائسة شبه قوى يقربها من أبيات «موسيه» البائسة
الحزينة التي دَوَّنت ترجمتها قبل ؟ إن الشبه بين روح الشاعرين في البؤس والتشاؤم
والتبرم بالحياة تكاد تكون واحدة ومن هذا التشابه القوى فليس تأثر شاعرنا
خليل بالرومانسية إلى حد بعيد .

وتتجلى رومانسيته الكئيبة في الأبيات التي نظمها خلال عام ١٩١٧ ونعى
فيها حبه الضائع على غرار ما فعل «موسيه» في لياليه الأربعة بعد هجر حبيبته
«جورج ساند» - فيقول خليل إن هذا الحب صار نغمة في سمعه يرددها وجدانه
على مر الأعوام دون جدوى - ويصور هذه النغمة الروحية أبدع تصوير
في قوله :

هِيَ نَغْمَةٌ رَدَّدْتُهَا دَهْرًا
وَقَضَيْتُ فِي تَرْدِيدِهَا الْعُمُرَ
شَكْوَى مِنَ الْحُبِّ الَّذِي انْفَطَرَتْ
رُوحِي بِهِ لَمَّا غَدَا هَجْرًا
مَا أَضْيَعَ الْأَيَّامَ مُجْفَلَةً
فِي قَلْبٍ صَبَّ يَأْلَفُ الذِّكْرَى
يَبْسِكِي عَمَلَى الْمَاضِي وَقَدْ ضَرَبَتْ
نُوبُ اللَّيَالِي دُونَهُ سَهْرًا

هذا هو الراحل العزيز الشاعر خليل شيبوب من خلال شعره ومن مرآة صدأ قتي

له أكثر من عشرين عاما - والمطلع على ديوانه « الفجر الأول » يجد في كل قصيدة من قصائده قطعة فنية تنطوي على إبداع فني يطرب السمع ويمتع القلوب - وهذا لو تعهدت الهيئات الثقافية بالأسكندرية وبغيرها من بلدان العروبة بإخراج قصائده الأخرى التي نظمها بعد إصدار الجزء الأول من ديوانه عام ١٩٢١ لترى النور وتزود الأدب العربي بطائفة جميلة أخرى من القريض الرومانسي البارع .

٨ - الشاعر الإسكندري عثمان حلمي

عرفت صديقي الراحل عثمان حلمي منذ أكثر من واحد وثلاثين عاما وكان أول لقائي به في فبراير سنة ١٩٣٢ يوم أن اجتمع ثلاثون أديبا من أدباء الإسكندرية بمقر رابطة موظفي الحكومة المائل على الميناء الشرقي ليكونوا جماعة نشر الثقافة - وهذا المقر يحتله الآن مبنى الكريستال الذي ما زال بعض الأدباء والشعراء يقضون بين جدرانها أوقات سمرهم .

وما إن تحدثت إليه في أثناء الجلسات الأولى التي ضمتنا وضمت الأستاذ الشاعر عبد اللطيف النشار - مد الله في عمره - حتى أيقنت أن لا بد للجماعة الأدبية الناشئة من هذين الشاعرين المتأففين في المجال الأدبي إلى أبعد حدود المنافسة ليقويا من نشاطها الثقافي في المحيط الإسكندري - وأقنعت بأن لا بد للإسكندرية من جريرها عثمان حلمي وفرزدقها عبد اللطيف النشار تظلها دوحة بيثة شاعرية واحدة فيلتقيان في كثير من الأوقات ويجرهما الحديث إلى إلقاء ما يقرضان من ألوان الشعر وما ينظمان من أبيات تشعر السامعين بما يكنه كل منهما لزميله الشاعر من تقدير بالطريفة التي لا تخلو من دعابة تحمل في ثناياها خبث الشاعر الماكر .

وكان السرور الفياض يغمر نفوسنا - ونحن السميعة - كلما انعقدت الحلقات الأدبية وأخذ أحد الشاعرين يضفي على رفيق طغولته وشبابه ألقابا من العبقرية الفذة والإلهام السماوي والرصانة الشعرية التي لا تدانها رصانة - ثم يتدرج في الهبوط يصاحبه في أسلوب لبق بديع السياق إلى اللوم فالعتاب فإظهار مواطن الضعف في أسلوبه وفي أخيلته وفي كل ماله علاقة بعناصر القريض من جرس وصياغة وانتفاء قافية .

وهنا يتطرق الشاعران بدافع الحنين لأعوامها الماضية إلى ما نظم كل

منها خلالها من شعر تقديرى لصديقه فى القالب الجريرى الفرزدقى .

وإذا بالفرزدق الأسكندرى يوجه نظر صديقه فى ابتسامة عريضة لا تخلو
من مداعبة ساخرة إلى قصيدة على النمط الجريرى اللاذع كان الغضب العارض
قد دفعه إلى نظمها فى ريعان الشباب فقال فيها :

ضاقَ صدرى فى حياتى يا
أدعياءَ الشعرِ والأدبِ
مالكُم من فرطِ حُمقِكُم
تمزجُونَ الجَدَّ باللَّعبِ
فاصدِقُوا الدنيا حَقِيقَتَكُم
ليسَ وادى المَينِ بالخَصْبِ
كلُّ بيتٍ من قصائدِكُم
كبقايا المنزلِ الخربِ

ثم يعلو ضحكك الصديقين الحميمين اللوديين فى صفاء نفسى نبيل - ويشاركها
أفراد البعكوكة مرحها الساذج البرىء .

وظهر فى عالم التأليف والنشر مجموعة من القصائد القيمة للأستاذ عبد اللطيف
النشار تحمل عنوانين متناقضين هما (جنة فرعون - ونار موسى) - وأكبر
الظن أن صدور هذه المجموعة كان أقوى مشجع للشاعر عثمان حلى - عن طريق
المنافسة دائما - على إصدار ديوانه بعنوان (نسيم البحر) ليروح بذسماته العليلة
عن أهل جنة فرعون ويكمل نعيمهم الخالد ويسهم فى إخماد بعض اللهب فى نار
الكليم كما تخيلها صديقه القديم .

وما أطيب تلك الاوقات التى كنا نقطعها كادحى الفكر مستعرضين كل

ما تعيه الذاكرة من شعراء الإسكندرية والقاهرة والأقاليم علنا نوفق في العثور بينهم على ذلك الشاعر الخيى الذى نشر فى إحدى المجلات قصيدة لا تمت للعصمة من من الزل بسبب وذيلها بأسم عثمان أو النشار - وإذا بأحد الشعراء يتناولها بالنقد فيبرز ركاكة تركيبها وتفاهة معانيها وجفوة جرسها فى عبارات لاذعة - وإذا بالشاعر الآخر يؤيد صاحبه فى رفق ولين وفى قليل من الابتسام الساكر الذى تظهر علامات ما ينطوى عليه من مراوغة فى أسرار وجهه - وعندها كنا نلج فى هذا الابتسام طيف ناظم القصيدة المنسوبة إلى منافسه يتضح فى شكل أحد الشعراء يدنو منا ساخراً ضاحكاً .

وكان لا يمضى أسبوع آخر بعد ذلك وتعد حلقة أدبية تالية إلا نعود إلى كدح الفكر واستعراض شعراء القطر لظهور قصيدة أخرى لا تقل عن ضررتها ركاكة وتفاهة وجفوة جرس - وإذا بنا نتعرف من حوار الشعراء على أيهما الناشر فى غير كبير عناء .

هذه هى بعض النواحي النفسية المرححة التى لمستها فى صديقى الراحل الشاعر عثمان حلبي - وهى فى يقينى قليلة بالنسبة إلى نواحي نفسه المتشائمة - وهدانى طول مخالطتى له إلى أن تلك النواحي المتضادة تضم الكثير من المشاعر العميقة المعقدة - وقد تبينت كل ذلك فى خلقه بجملا واستجليته فيما قرأت وسمعت من شعره .

فهو فيما أرى يتخطى الكثير من الشعراء فى بعض الظواهر الوجدانية - فعلاوة على مذهبه الشعرى الجريى الذى يستلزم كبرية الانفعالات النفسية - مرهف الحس سريع الغضب وسريع الصنح - وهو بعد دقيق الملاحظة وثاب التفكير لامع الأخلية متدفق الشعارية .

فكان إذا بدت أية بادرة فى محيطه وظنها تهدف إلى المساس من بعيد أو قريب بأى اتجاه من اتجاهاته الأدبية أو الاجتماعية أو خال باعتقاده الحساس جداً أنها ترمى إلى نقد لإنتاجه الشعرى أو القصصى سرعان ما كانت أعصابه تهتز

تحت تأثير هذا الاعتقاد في كثير من التلقائية العنيفة - وبمجرد ما تستقر هذه الفكرة في مخيلته على النحو الذي يتصوره انفعل لوقعها برجع عكسي ظاهر ثم يأخذ على الفور في تمليها بملاحظات على شتى الوجوه وما أن يتبين طويتها حتى يعود إلى صفاته النقي ومرحه الوداع وكأنَّ الباردة وظروفها لم تحدث ولم تعرض لحاطره - فهو بهذا الوصف أحد هؤلاء الرجال الذين اصطلح الناس على نعتهم «بالطيبين - ذوى القلوب البيض» .

ومن العوامل النفسية التي كانت تجيش بفؤاده في كثير من الأحيان تبرمه بالعيشة التي كان يحياها - فكان يظهر في شيء من الاستخفاف والسخرية ذلك الإطار الدنيوى الذى كان يضمه - ومن ثمَّ كان يود أن تصبح الدنيا في غمضة عين ملائمة في نمط سياقها لكل ما كان يتطلع إليه من آمال كبار هي أقل ما تستحقه شاعريته وإدراكه الأدبي الواسع الأفق .

والواقع هو أن المرحوم عثمان حلى كان شاعراً فحلاً من فحول الشعراء الذين ترنم الجيل الحاضر بأنغام قصائدهم ورَّن جرس هذه الأنغام حلواً في أذن الزمان - وسيظل رنينه الشجي ينساب في مسمع الدهر ما بقيت قصائده القيمة تردد على ألسنة رواتها في شتى بلدان العالم العربي .

ولم ينل الشاعر عثمان حلى من الحظ ما كان يجب أن يناله من يد الدنيا - مثله في ذلك مثل طائفة عديدة من الشعراء الذين طواهم الموت عبر العصور الخوالي .

وليس في مجال هذا البحث المركز متسع لذكر كثير من هؤلاء الشعراء الذين لم تنصفهم المنى ولم تسعفهم الهناءة أو ينخصهم الرغبة بصيب يتفق وما وصلوا إليه من مكانة أدبية في عالم الفكر الإنساني المشرق - ولذا أجد من الملائم الاقتصار على مثاين قد يكون في سردهما الكفاية للتدليل على غبن الحظوظ وغدر الأيام .

فوضّاح اليمن أحد شعراء العروبة في صدر الإسلام لا يقل نبوغا ونضوح شاعرية عن عمر بن أبي ربيعة ولا سيبا في الصفتين المميزتين لهذا الشاعر وهما : البراعة في التشبيب والدقة في وصف ما يعرض له من صور وحوادث .

ولكن الوضّاح لم ينل من الشهرة قسطا يعادل ما ناله ابن أبي ربيعة منها - لا في زمنه ولا في الأزمنة التي تعاقبت بعد ذلك بسير عجلة الدهر وتلاحق الأعوام والأجيال .

وكرنى " Corneille " شاعر فرنسا العظيم لم يجد في عصره كما أصاب « راسين » من التمجيد الذي رفعه إلى قمة التعظيم في كتاب صديقه الشاعر الناقد « بوالو » Boileau - وكان من نتائج هذا التمجيد وتلك الدعاية العريضة أن صار « راسين » شاعر البلاط في عهد لويس الرابع عشر .

وسبب هذه التفرقة المغرضة يمكن في الظروف السيئة التي اكتشفت حياة الشعارين المكشوفين « وضّاح اليمن وكرنى » - وفي الظروف المواتية التي أتاحت للشاعرين المحظوظين عمر بن أبي ربيعة وراسين - وكانت الدعاية أكبر عامل في تحقيق هذه الظروف الحسنة .

ولقد كان الوضّاح من فحول الشعراء دون ريب - وإذا وضعنا شعره في الوصف إزاء شعر ابن أبي ربيعة في هذا اللون من القريض نؤمن على الفور بأن صور الوضّاح اللامعة الأخاذة تتجاوز في بهاء لوحاتها وتعبيرها الصافي وجلاء معالمها بعض صور ابن أبي ربيعة ورصيفه العرجى - غير أن الوضّاح ما زال مغمو بالصيت ضعيف الشهرة بالنسبة لعمر الذي طبق صيته الآفاق بسبب الجاه العريض الذي كان يحيط في ظله الوارف مما سخر له أبواق الدعاية المدوية الأصوات .

وكان كرنى عظيما في أسلوبه في تصويره وتفكيره - ولكن راسين نال من الشهرة في زمانه - وعلى حساب كرنى - ما جعل هذا الشاعر الكبير لا يجد من

المال في أواخر أيام حياته البائسة ما يمكنه من شراء حذاء جديد يستعير به عن
حذائه البالي - وقد قال نابليون بونابرت عن كرنى " وهو في منفاه بجيزة
سنت هيلانه :

« فن المأساة يلهب الشعور ويرقى بالنفس ويخلق من الرجال أبطالاً - وعلى
هذا الأساس تدين فرنسا لكرنى العظيم ببعض ما أدت من أعمال جليلة - فلو كان
كرنى حياً في عهدى لما ترددت في منحه لقب الأمير » .

وهكذا كان حظ شاعرنا عثمان حلى من الشهرة والتقدير - وقد ساعد على
انكماش حيز هذه الشهرة والإغضاء المؤسف عن هذا التقدير اضطراب الشاعر
الأسكندري إلى الإقامة بمدينة الإسكندر الأكبر حاضرة المفكرين والشعراء
الحنون في شبابها الغض ومهمة شأنهم في شيخوختها الساخرة بسبب الصبغة
الأجنبية التي كانت تفرض عليها قبل الثورة التي تحت هذه الصبغة البغيضة إلى
غير رجعة - علاوة على المحيط التجارى الذى ما زال يطوقها ويحد من رعايتها
الحادة للأدباء الشعراء .

وشاعرية عثمان حلى تجد في رجب إدراكها متسعا لتصوير كل أحاسيس
وجدانه ونبضات قلبه وخلجات نفسه سواء أكانت هادئة أم صاخبة - راضية
أم متبرمة - قانعة أم طامحة مع وضع كل ذلك في أوضح صورة
وأحسن إطار .

والأمثلة على أحاسيس وجدانه المتعارضة كثيرة نستشفها من شعره - فعندما
يستيقظ ويشاهد جمال الطبيعة في الصباح الباكر يدفعه حسه المرهف الهادى إلى
إحتضان مزهره ليرتل في حنان وخشوع .

آيةُ الصبحِ تجلّتْ - قُمْ بنا
قبلَ أنْ تُطوى بَضْوَةُ الشمسِ طيًّا

إِنَّ نَوْرَ اللَّهِ فِي بَهْجَتِهِ
 دَلَّنَا أَنَّ لَهُ سِرًّا خَفِيًّا
 كُلُّ شَيْءٍ ضاحِكٌ مَبْتَهَجٌ
 بَعَثَ الصَّبْحُ مَوَاتَ الْكَوْنِ حَيًّا
 فَمِنَا الرِّيحَانُ فِي أَوْرَاقِهِ
 نَاشِرًا مِنْ رُوحِهِ رُوحًا زَكِيًّا
 وَهُنَا الْوَرْدُ عَلَى أَغْصَانِهِ
 تَخِجَلًا مِنْ حُسْنِهِ الزَّاهِي حَيًّا
 رَضِيَ اللَّهُ عَلَى الدُّنْيَا فَمَا
 تُبْصِرُ الْعَيْنُ مِنَ الدُّنْيَا دُنْيَا

غير أن هذا الهدوء الوجداني سرعان ما ينقلب إلى غضب صاخب بمجرد
 أن يستولى عليه التأثر وتهتز نفسه الشاعرة هزة المكوم - عندها لا يتردد عثمان
 في أن يفاجيء من كان يحب ويصطفى بنخمود جذوة المحبة في قلبه دون أسف أو
 ندم على ما فات - فيقول له في صراحة نافرة :

نَبَتَ الشَّوْكُ بِقَلْبِي فِي مَكَانِ الزَّهَرِ
 وَمَضَى كَالْبَرْقِ حُبِّي أَوْ كَضَنُوءِ السَّحَرِ
 صَارَ قَلْبِي مَقْفَرًا كَالصَّحْرَاءِ

يَا حَبِيبِي لَا أَحْبُوكُ زَمَنُ الْحُبِّ مَضَى
 وَانْتَهَى أُحْبِي وَحُبُّكَ وَانْتَهَيْنَا لِلرَّضَى
 وَانْتَهَى الْحُبُّ كَمَا شِئْنَا وَشَاءَ

إلى أن يقول في غضب ظاهر :

ليس للحبِ ضيَاءٌ لا ولا للحبِّ ظِلٌّ
كذهبِ الحُبِّ هَبَاءٌ أىُّ قلبٍ لا يَمَثُلُ
جذوةٌ أطفأتها من غيرِ ماءٍ

يا حبيبي لست مَنِي لا ولا أبغى رِضاكا
يا حبيبي فأنأ عَنِّي وكفاني وكفاكا
أنَّ للحبِّ ابتداءً وانتهاءً

وليس للغضب السريع مقدمات في طوية صديقي الشاعر الراحل - فهذا الغضب يحل بنفسه ويغادرها بسرعة التيار الكهربائي - فعندما تصل انفعالاته الجامحة إلى حامة قلبه يتملكه الهياج فيرمى صاحبه الذي ظن أنه سبب هذا الغضب بالعدو والحق والرياء في غير تحفظ - ويرسمه بقلبه على هذه الصورة القاتمة:

فانقلبَ الصاحبُ كالخرباءِ

يكيدُ كالأعداءِ
بالحقدِ والبغضاءِ

مضطرباً الأحشاءِ
يكيدُ لي في الجهرِ والخفاءِ

كخائنةِ النساءِ
ما صدّه حلمي ولا صفائي

واشتدَّ في عدايِ
واختصرَ بالعنْاءِ

إلى أن يقول صاحباً وصفه لصاحبه على الناس جميعاً :

الغدُرُ طبعٌ في نفوسِ الناسِ
فلا تُصاحبُ أحداً
ما أبعد الناس عن الإحساسِ
فلا تزدني كَمَداً
وانجُ إذا شئتَ من الأرجاسِ
فأنَّ في نُصيحي الهدى
ولا تعيش في الخوفِ والوسواسِ
فقدَ تعيشُ أبداً
لا تشكى طولَ المدى

ولقد خبرت فيه هذا القلب السريع بين الهدوء والصخب والعودة إلى الصفاء
بالسرعة الصاروخية نفسها - وكنا دائماً نرده إلى هذا الصفاء بكلمة طيبة تدخل
السُرور على نفسه فيزول عن وجدانه الكدر ويركن ثانية إلى الابتسام فالمرح .

وما هو إلا يوم أو يومان على الأكثر حتى يعود إلينا ليسمعنا قصيدة عذبة
الآيات يستسمح بها هذا صاحب الذي وصفه بكل ما في نفسه من ثورة عاطفية
لاتهادن في غضبها الجامح فيقول :

صبا القلبُ ليت القلبَ نَحْوَك ما عجباً
وكمْ ذدتُهُ عنكم ولكنَّه أبى
لحاجة من يمضي إلى نيلِ غايةٍ
وإنْ صَدَّه عنها الردى ما تنكباً

وهياتَ مالي في ودائكِ مأربٍ
 ويُرْزِعُني ألا تروى فيه مأرباً
 فأني مسسوقٌ نحو ودك ساقني
 تخفي فما أدرى عنك كذبةً خبياً
 ومالك من فضلٍ ولا لك منةٌ
 عسى بما أوليت أن أتجيباً
 إذا غبتَ همز الوجدُ نفسي كأنما
 بها غامضٌ شوقاً إليك توثباً
 كأي ولي جمٌّ من الصحب لم يكن
 سواك خليقٌ أن يحب ويصحباً

ومن هذه النماذج في شعره تتضح أعاسيس جداته الباذلة الصاخبة التي
 تهادن ولا تتوسط في تقايمها انفساني المريع من التقيض إلى التقيض مما كنا ناسه جاليا
 في سلوك حياته .

وكانت هذه الطفرة في المزاج تمثل حالة نفسه حين يرضى عن عيشته وحين
 يهرم بها - فحينئذ كان يستأين إلى الرضا الوادع فتجسبه ناسكا منقشدا - وحينما
 كان يندفع في تبرمة الجامح فتخاله نائرا يرى في الدنيا قطعة من الصالح يستطيع
 ضمها بين راحتيه ليكون منها شكلا آخر غير شكاهم الراهن .

فاستمع إليه عندما يرضى عن دنياه ويشبهها بنخلة شجيرة الإيقاع وينشد في
 جنباتها وفي طبيعتها الزاهية كل الرغد والبناءة:

ما العمرُ إلا نخمةٌ حلوةٌ

أو كأسٌ خمر في خلال المستی

أو "خلوة" والناسُ في غفلةٍ
أو غفلةٌ "عن" صرخاتِ الدنيا
في روضةٍ غناءٍ من زهرها
ما يشرحُ الصدرَ ويُنسي العنا
أو وقفةٌ "يوماً" على شاطئٍ
حيثُ نسيمُ البحرِ يلتهو بنا
قبلَ غروبِ الشمسِ أو بعدهُ
حيثُ يلوحُ الصفوُ حائو الجنى

إلى أن يقول :

والعمرُ يومٌ لا تحاسبُ به
مُصّرّفُ الأيامِ عمّا جنى
فانسَ الأسى واضربْ على نغمةٍ
أقلُّ ما فيها حياةُ المُنى

أما إذا برم بالحياة وطغى التشاؤم على عقله الباطن - وكثيرا ما كان يطفى -
يسرع إلى وضع المنظار الأسود على عينيه وينشد شاكيا صروف الزمان الذي
لم ينصفه - وهو الجدير بالإنصاف - هذا الزمان الذي حرّمه من رغد العيش وهو
المستحق لأوفر قسط منه :

قد رأيتُ الحياةَ تشرقُ حبّا
رأيتُ الحياةَ وهي تغييبُ

وَحَبَّائِي الشَّبَابُ جَذْوَةٌ نَارٍ
 أَطْفَأَتْهَا حَوَادِثُ رُخْطُوبٍ
 أَيْنَ حُبِّي وَأَيْنَ أَيْنَ هَوِي نَفْسِي
 أَيْنَ قَدِيمَا وَأَيْنَ وَلِيَّ الْحَبِيبِ
 أَيْنَ نُورُ الصَّبَاحِ يَشْرَحُ صَدْرِي
 وَسُوءُ قِيَّامِي مَحَبَّبٌ وَغُشْرُوبُ

إلى أن يقول :

أَنَا شَيْخُ الشَّبَابِ قَدْ شَابَ قَلْبِي
 وَتَظَلُّ الْقُلُوبُ وَهِيَ قُلُوبُ
 إِنَّ مِنْ يَحْمِلُ الدُّمُومَ صَبِيحًا
 هُوَ شَيْخٌ وَالْمَوْتُ مِنْهُ قَرِيبُ
 وَتَتَمَثَّلُ أَمَامَ بَصِيرَتِهِ تَجَارِبُ الْحَيَاةِ الَّتِي مَارَسَهَا فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ تَهْلِكُمْ لِإِقْدَامِهِ
 وَتَفُتَّ فِي عِضْدِهِ فَيَنْعَى حَظَّهُ قَائِلًا:

شَوْتَنِي تَجَارِبُ الْحَيَاةِ وَإِنَّهَا
 لَهَا لَهَبٌ يَشْوِي بِأَوْجَعِ مَا شَوَى
 فَمَاذَا عَسَى أَبْغِي وَمَالِي عَزْمَةٌ
 وَقَدْ هَدَّنِي سَعْيِي وَأَفْقَدَنِي الْقُوَى
 فَيَلِي خَيْبَةٌ فِي كُلِّ سَعْيٍ سَعْيُهُ
 رَوَى وَقَعَهَا شَعْرِي وَفِي الشَّعْرِ مَا رَوَى
 وَهَلْ بَعْدَ أَنْ أَفْنَيْتُ عُمْرِي ظِلَامٌ
 وَقَدْ نَصَّ غَيْرِي بِالْأَمَانِي وَارْتَوَى

أحاولُ تبديلَ الذى كانَ وانتهى

وهل يَنْضُرُ الغُصْنُ الرطيب إذا ذوى؟

وفى هذه الآيات صورة صادقة لما كان الشاعر عتمان يعانيه من قسوة
الآخفاق وحسرة الغبن الذين لاحقاه طوال مراحل حياته .

فتمد التحق فى صباحه بوظيفة فى قسم التحصيل ببادية الاسكندرية- وشاء حظه
العائر أن يكون رئيسه من هؤلاء الرؤساء الذين يحلو لهم الاساءة إلى زملائهم
فى عجرفة وعنجهية جوفاء - وعندما تعرض هذا الرئيس لعتمان الذى لا يقبل
المقام على الضيم أبته نفسه المرهقة الحس أن تخضع للخطرسه الروتينية - فبادر
إلى الاستقالة غير آسف على الوظيفة .

ثم عين بمصلحة البريد - ولم تخنه كبرياؤه فى الوظائف التى شغلها فى هذه
المصلحة - فما ألح فى طاب يهدف إلى تحسين حالته الوظيفية - ولم يطرق باب
أية وساطة لبلوغ حقه من الترقيه - فكان - كما يؤكد زملاؤه - زاهداً فى الوظائف
عزوفاً عن الترجمى راضياً بما قسم له فى عمله ولا سيما فى السنوات الأخيرة التى
قطعها قابعا بقلم الاستعلامات يتولى رياسته إلى أن أحيل على التقاعد .

وكان كل ما يصبو إليه هو بلوغ المسكاة الأدبية التى هو قمين بأن يتبوأها
بين كبار الشعراء والكتاب .

وأنين عتمان حلمى فى شكواه يرجع إلى مرارة الآخفاق والغبن التى ذاقها -
فتمد أحيل على التقاعد فى ١٨ مايو سنة ١٩٥٤ م . (١٣٧٤ هـ) ولمّا يصل إلّا إلى الدرجة
السادسة من درجات الكادر الكتابى ومن ثمّ يستبين مقدار معاشه المتواضع الذى
يتضاءل كثيراً إزاء درجته الأدبية فى كادر التفكير الثقافى الذى يضعه فى الصفوف
الأمامية وفى الدرجة الأولى الفنية .

ولا يطول أمد التبرم بالحياة وقسوة صروفها فى وجدان عتمان حلمى فيرجع

على نفحات شعره إلى روضة القناعة يمثلاً رقيقه بعبير وردها وربانها ويسير في
مسالكها البهيجة بخطوات موسيقية وثيد وهو بنشد :

كانت الدنيا التي نجيا بها
والتي ندخل من أبوابها
دون أن نجعل من سلطانها
والتي نجهل من أسبابها
كل ما يدعو إلى إحسانها
والتي تسخر من طلائيمها
والتي قامت على ميزانها
رسل للغيب من صنع القدم
كانت الدنيا ولا زالت قسم

ثم يستمر في سيره وهو عامر القلب بالصوفية الربانية فيرى الله ببحيره
وبأياته الراسخ فيغنى :

تجلى الله في الزمير
ولاح الله في النور
وفي الأغصان والشجر
وفي شدة العصفير
وفي قلبي وفي نظري
يفوق جلال تنديري

ولكن هذه القناعة المتعمقة لا تستمر طويلا في أعماق نفسه فيعاوده طموحه
الوثاب الذي قضى عليه الإخفاق في غير رحمة - فينعيه بهذه الأبيات الحزينة :

مُبْنِي تَنَائِرِنَ حَوْلَ النَّفْسِ ذَابِلَةً
كَمَا تَنَائِرَ حَوْلَ الدَّوْحَةِ الْوَرَقُ
تَأْتِي التَّجَارِيبُ إِلَّا أَنْ تُدْعَمَا
بَيْنَ الطَّمَّاحِ وَبَيْنَ الْيَأْسِ تَصْطَفِيقُ
وَالْعَمْرُ يَجْرِي كَمَا يَجْرِي السَّحَابُ فَمَا
يَعُودُ مَا جَدَّ مِنْهُ وَهُوَ يَسْتَبِقُ
إِلَى أَنْ يَغْمَرَ الْأَسَى فُؤَادَهُ الْمَكْلُومَ فَيَسْطُرُ بِالْقَلَمِ خَلِجَاتِ قَلْبِهِ الْحَزِينَ قَائِلًا:
وَأَدْمَعُ لِي حَيْرَتِي فِي تَحَاجِيرِهَا
وَلِي فُؤَادٌ وَلَكِنْ بِالْأَسَى تَخْنِيقُ
فَكُنْتُ أَحْسَبُ أَحْلَى مُحَقَّةً
وَلَا مَحَالَةَ حَتَّى لَأَخَ لِي الشَّفَقُ
آمَنْتُ أَنْ وَجُودِي كُلُّهُ خُدْعٌ
وَأَنْ نَفْسِي تَخِيكِ كُلَّ مَنْ سَبَقُوا

وما أعذب نغمة شكواه حين يبغى الهروب من واقعية الحياة لينسى همومه
وأحزانه وإخفاقه ويصور هذا النسيان في إطار لوحته الواضحة الأبعاد والتعبير
ويعملها في هذين البيتين :

وَمَا اشْتَهَتْ النَّفْسُ الْمَدَامَ لِلذَّةِ
وَلَكِنْ لِكَيْلَا تَعْرِفَ النَّفْسُ مَا هِيَ

ألا فاستيانيها سلافاً إذا تسليت

على الرشد لم تتترك من الخميم بآقيا

وليس من الإنصاف أن نطالب شاعرنا بأن يجعل التشاؤل نبراس سلوكه في الحياة وأن يرى هذه الحياة سياقاً متصل المراحل من روضات الورود والرياحين وهو الذي قاسى من شجها الشيء الكثير وشاهد سخاءها المندق على من هم دون مرتبته في عالم الفكر والنضوج الأدبي .

ولقد عرض عتمان في شعره لألوان القريض المختلفة فتنى الحب والجمال وبهاء الكون وجلال الخالق وترنم بالوفاء والفن بهجاء الغدو وصحاب السؤ ولؤم الدنيا :

أما الوطنية فتد كانت تملك عليه شعوره فهام بها في قصائد عديدة تفيض بحب بلاده وبحب العروبة وبلدانها وشعوبها - ولم يقصر عتمان في التغني بعهد الثورة وما حققه للشعب من مكاسب - ومن أواخر قصائده في أعيادها قوله :

يوم تهلل في سنى أجداده

دار الزمان وعاد في ميعاده

في كل عام ما استهل صباحه

إلا أهلاً اليمن في ميلاده

هو يوم مصر ويوم عيد خلاصها

يا سعد من شهدوه من أشهاده

الشعب باركه وخلده ذكره

في أخلد الأعياد من أعياده

وعالج عتمان الشعر القصصى وحالته النجاح فيما أنتج من مسرحيات

قوية التركيب - المخزون مستعدة - حروبها من تاريخ مصر الفرعوني والإسلامي
الذي كان الملاحة يتناول حتى نواحيه وذلك بعد أن ألف قصصا متينة التكوين
جزاء الأسلوب والثقافية منها قصة الملك والشيطان - وقصة البخت النائم -
وثورة في جهنم .

ومن مسرحياته « ساحر بابل » التي تقدم بها في مسابقة أجرتها وزارة التربية
والتعليم وفاز فيها بالجائزة الأولى - والذي يعرفه أصدقاؤه عن هذه المسرحيات
هو أن عددها ست - وعندما رافته المنية كان يكتب مائة عصرية لم يممه إلا ليل
ليفرغ منها .

شير أن النفس لم يبتل عاينه بنمرجة تجعل البسمة تعلو شفقيه وهو على
فراش الموت إذ عذرت له عن المؤسمة العامة للثقافة والنشر مسرحية
والظاهر برقبته .

هذا هو صديقي الشاعر عثمان حلمي كما عرفته وكما تبينته من خلال شعره
الذي يعبر عن حقيقة طويته واحاسيس نفسه - فشعوره الصادق كان يصور ما يرى
وما يسمع وما يحس أبدع تصوير .

ويقيني هو أن الشاعرية الحقة تتمضي هذا التنقل في خضم العواطف ليعبر
عن جميع ما تظم خفايا النفس من عوامل متباينة متنازعة - ولما كانت الشاعرية
فاترة ضيقه الأفق لا تصالح للتأثير القوي على من يتذوقون الشعر ويطربون لأنغامه .

ولست من القائلين بأن عثمان تلمذ على الشاعر عبد الرحمن شكري وتأثر
بشعره إذ أرى في أسلوبه السهل وأنماط نظمه المختلفة لونا آخر غير اللون الذي
ينبعث من قصائد الشاعر عبد الرحمن شكري - ويدفعني هذا الرأي الذي كونه
من طول مخالطتي لعثمان أن أعرضه يتسم بشخصية بارزة لها طابع خاص هي شخصية
عثمانية بحت .

وبما أنه أحيى على التقاعد في ١٨ من مايو سنة ١٩٥٤ فيكون قد ولد في عام ١٨٩٤ - وبما يدل على مكان مولده قصيدته «الطاحونة» التي يستلها بهذه الأبيات:

في المكس في ظِلِّهَا جَلَسْنَا
ونحنُ أطفال بكل مفتي
نجهلُ ما الدنيا وما عَلِمْنَا
من أمرها غير السرور يُجَنِّي
نُطْرِبُ مِنْ لاشيء إن طَرِبْنَا
ونملا الجوَّ إذا ضحكنا

وفعلا ولد عثمان في ١٨ من مايو سنة ١٩٥٤ بضاحية المكس الكائنة في
في الطرف الغربي من مدينة الإسكندرية التي لم يبارحها طول حياته - أما نسبه
فقد كان يؤكد أنه ينتمي بالأورمة وبالأجداد الأقدمين إلى الجنس المغولي .

وإذا كان نابليون بونابرت قد اعترف بفضل «كورني العظيم» على الشعر الفرنسي
فقال إنه لو وجد في عهده لقلده لقب الإمارة فإن الإسكندرية لن تنسى فضل عثمان
حلي عليها وستقلد ذكراه يوما قلادة المجد بين الخالدين من أبنائها المحسنين .

وما من شك في أن تراثه الأدبي الغزير لن يضيع بإهماله في زوايا النسيان -
وأن الجهات الأدبية والهيئات الثقافية وعلى رأسها المجلس الأعلى للفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية لن ترضى بجمع هذا التراث وإخراجه إلى حيز الوجود إذ أن
في تخليد هذا التراث ما يدخل الغبطة على روح عثمان في عالم الأبدية ويجعلها
ترجع عما أوصى به صاحبها قبل أن تلاقى ربها بأن يحرق أهله شعره إذ قال :

لي قضاة لا تستقيم

سمُ بسمع من ألف السعاه

مَثَلْتُ بَعْضَ فُصُولِهِ _____ ا

وَسَتَنْتَهِي تِلْكَ الرَّوَايَةَ _____ هـ

أَنَا شَاعِرٌ لَمْ يَدْرِ بِي

فِي أُمَّتِي أَهْلُ الدِّرَايَةِ

يَتَسَاءَلُ الْمَسْأَلُو

نَ أَمَّا لِهَذَا الشَّعْرِ آيَةٌ؟

فَأَجِبْتُهُمْ هَلْ يَسْتَحِقُّ

عَلَى غَزَارَتِهِ الْعِنَايَةَ؟

أَوْصِيَتْ أَهْلِي بِالْأَذَى

فِيهِ الضَّمَانَةُ وَالْكَفَايَةُ

أَوْصِيْتُهُمْ أَنْ يَحْسِرَ قُورُ

هُ وَيُبْشَسَ مِنْ خَانَ الْوَصَايَةِ

وحزناً في نفسي وأحزنتني ما رأيته يوم تشيع جنازته - فلم يجتمع أمام منزله بشارع « السيدة فاطمة » المحاذي لشارع محرم بك - وهو شارع متواضع - لم يجتمع لتشيع جنازته سوى سبعة وعشرون من أخصائه - وعندما بدأت الجنازة سيرها طفقت دموع الأسي تغمر مقلتي وقلت في نفسي والحزن يغمرها : « أهكذا يكون تقدير كبار الأدباء في نظر الناس؟ أهكذا يكون إظهار مال الأديب الشاعر الأريب من احترام وتجلة في قلوب المواطنين؟ »

وكنت قبل تشيع الجنازة ببضعة أيام أشترك في تشيع جنازة رجل كل ما كان له من فضل هو أنه كان من الأغنياء وينعم بعضوية إحدى الهيئات - لا عن علم وجدارة - ولما له من ثروة وجاه - وسمي في جنازته مئات عديدة من المشيعين مع أن الفرق بين الرجلين كبير لافي الأراء ولكن في السمو الفكري والثقافي

ومع ذلك سار نعل الشري وخلفه صفوف كثيرة من المجاملين لذويه وسار
نعل الشاعر عثمان حلمي يتبعه القليل من أقاربه وأصدقائه عارفي فضله . وكأنني
بروح صاحبه تطل علينا ساخرة من الأقدار وتردد هذه الأبيات التي نظمها في
في يوليو عام ١٩٥٨ وكان الصديق الراحل من أوائل من استمعوا إليها:

مَاذَا يَسْضِيرُ رُفَاتِي إِذْ يُشَيِّعُنِي
عَدُّ الْأَصَابِعِ مِنْ أَهْلِي وَخِيَلَانِي
تَسْأَتُونِي فَوْقَ حَدِّ بَنَائِي بِمَنْ مَلَكَوْا
وَأَمْنَعُونِي فِي نَعِيمِ الْعَالَمِ الْفَانِي
وَفِي غِيَابَةِ قَبْرِ لَنْ يُفَرِّقَنِي
عَنِ الْمُلُوكِ جَمِيعًا حَمَلُ تَيْجَانِ
فَتِلْكَ دَارُ بَقَاءٍ لَا يَدْنُسُهَا
جَاهُ الْعُرُوشِ وَلَا إِغْرَاءُ شَيْطَانِ
تُرْدُ أَرْجَاؤَهَا الذِّكْرَى مُنْغَمَّةً
لِكُلِّ مَنْ أَحْسَنُوا فِي عَذَابِ الْحَانِ

رحم الله عثمان حلمي وأجزل ثوابه لما قدم للعروبة من إنتاج أدبي قديم ..

المراجع

- ١ - الأغاني - أجزاء مختلفة : أبو الفرج الأصفهاني
- ٢ - فجر الإسلام : الدكتور أحمد أمين
- ٣ - دائرة المعارف الإسلامية - أجزاء مختلفة : لجنة ترجمة الدائرة
- ٤ - جميل بثينة : عباس محمود العقاد
- ٥ - عائشة بنت طلحة : كمال بسيوني
- ٦ - نساء شهيرات : مبارك إبراهيم
- ٧ - الأصمعي : الدكتور أحمد كمال
- ٨ - محمود سامي البارودي : الدكتور علي محمد الحديدي
- ٩ - كتاب الشعب : حافظ إبراهيم - مقال بالعدد رقم ٤٦
- ١٠ - حديث الأربعاء : الدكتور طه حسين
- ١١ - حب ابن أبي ربيعة : الدكتور زكي مبارك
- ١٢ - النجوم الزاهرة : ابن تفرى بردى
- ١٣ - الكامل فى التاريخ : ابن الأثير
- ١٤ - المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها : عبد الله عفيفى (الجزء الثانى)
- ١٥ - تاريخ آداب اللغة العربية : جورج زيدان
- ١٦ - المنتخب من أدب العرب : الدكتور طه حسين - وأحمد الأسكندراني - وأحمد أمين - وعلى الجارم - وعبد العزيز البشرى - وأحمد ضيف
- ١٧ - المفصل فى تاريخ الأدب العربى : أحمد الأسكندراني - وأحمد أمين - وعلى الجارم - وعبد العزيز البشرى - وأحمد ضيف

- ١٨ - ديوان إسماعيل صبرى : لجنة التأليف والترجمة
- ١٩ - ديوان حافظ إبراهيم : أحمد أمين - وأحمد الزين - وإبراهيم الإييارى
- ٢٠ - ليالى سطيح : حافظ إبراهيم
- ٢١ - البؤساء : حافظ إبراهيم (ترجمة عن الفرنسية)
- ٢٢ - ديوان الفجر الأول : خليل شيبوب
- ٢٣ - المعجم القضائى : خليل شيبوب
- ٢٤ - الوصف فى شعر البارودى : المؤلف - مقال نشر بمجلة الإمام - عدد مارس ١٩٣٦
- ٢٥ - ديوان نسيم السحر : عثمان حلى
- ٢٦ - مجلة العربى - أجزاء مختلفة : وزارة الإرشاد والأنباء بحكومة الكويت

Références

- 1 — Cyrano de Bergerac : Edmond Rostand
- 2 - Histoire de la Littérature Française : J. Faivre
- 3 — Larousse Universel : Claude Fuge
- 4 — Méditation (l'isolement) : Lamartine
- 5 — Les Misérables : Victor Hugo
- 6 — Napoléon le Petit : Victor Hugo
- 7 — Les Châtiments : Victor Hugo
- 8 — L' Art d'être Grand-père : Victor Hugo

مواد الكتاب

صفحة

- ١ - مجنون ليلى وجميل بثينة ٣ - ٢٨
- ٢ - وضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة ٢٩ - ٥٥
- ٣ - عائشة بنت طلحة ودمادمى رامبويه *M^{me} de Rambouillet* ٥٦ - ١٠٨
- ٤ - الوصف والتصوير فى شعر البارودى ١٠٩ - ١٣٦
و «ألفريد دى فينى *Alfred de Vigny*»
- ٥ - الشاعر إسماعيل صبرى وتأثره بالشاعرين الشريف الرضى ١٣٧ - ١٧٤
و «لامرتين *Lamrtine*»
- ٦ - حافظ إبراهيم و «فكتور هوجو *Victor Hugo*» ١٧٥ - ٢٢٣
- ٧ - الشاعر خليل شيبوب والمذهب «الرومانسى *Le Romantisme*» ٢٢٤ - ٢٤٧
- ٨ - الشاعر الاسكندرى عثمان حلى ٢٤٨ - ٢٦٧

مطبعة المصري

٩ شارع ابن تيمية - عطايا النيل

تلفون ٢٧٤٠٦

القاهرة

صحائف من تاريخ الأدب العربى

كتاب ممتع ، يحدثك فى أسلوب رشيق عن :

- « مجنون ليلى » ، وكيف أن شخصيته خيالية لا وجود لها ، ويقارن الشعر المنسوب إليه ، بشعر « جميل بن معمر » ، ويصور تشابه قصته وشعره بقصة جميل وشعره .
- « وضاح اليمن » ومقارنة شعره بشعر « عمر بن أبى ربيعة » ، وكيف أن وضاحاً لا يقل عن ابن أبى ربيعة شاعرية وإتقاناً .
- « عائشة بنت طلحة » ومنتدياتها الأدبية التى نقت الشعر الغزلى فى صدر الإسلام ، ومقارنة منتداهما (صالونها) بمنتدى « مدام دى رمبويه » الفرنسية .
- « محمود سامى البارودى » ومقدرته الفائقة على الوصف التصويرى ، ومقارنته بالشاعر الفرنسى « ألفريد دى فينى » مع أمثلة من شعر الشاعرين فى هذا اللون .
- « إسماعيل صبرى » وتأثره « بالشريف الرضى » وبالشاعر الفرنسى « لامرتين » مع أمثلة من شعريهما .
- « حافظ إبراهيم » وتأثره بالشاعر الفرنسى « فيكتور هوجو » فى الشعر والنثر .
- « خليل شيبوب » وتأثره فى شعره بالمذهب الرومانسى ، ولاسيما بالشاعر الفرنسى « موسيه » .
- وأخيراً الشاعر السكندرى « عثمان خليل » وما عاناه من إخفاق على الرغم من قوته وغزارة إنتاجه .

١٦٨٢٢

Bibliotheca Alexandrina



0365040

٥٠

